الشيعة

الإمامة عند الشيعة الخلفاء الحقيقيون للنبي

علم التوحيد عند الشيعة مذهب الشلمغاني

عودة المهدي عند الشيعة الغيبة الصغرى

المهدي ودولته عند الشيعة الغيبة والرجعة





عقائد
الشيعة الاثنى عشر

د. محمد شاهين

الدولية للنشر والتوزيع

رقم الإيداع
١٣٤٢٨ / ٢٠٠٦ م

الدولية للنشر والتوزيع

٦ ب شارع جواد حسني - الدور التاسع - شقة ٣٠ - عابدين - القاهرة
ت: ٠١٠٥٠٩٨١٠٦ - ٠١٠٨٧٣١٦٨٨ - ٠١٠٦٦٩٥٢٧٩

الفهرس

مقدمة

لقد تقدمت الدراسات الإسلامية تقدمًا كبيرًا وقامت عدة جامعات بدراسات واسعة عن الإسلام وعقائده ومذاهبه المختلفة، وبرغم كل هذه الانجازات فإنه لا تزال هناك فروع قد تكون أقل أهمية، لأنها لا تتصل بالعالم الإسلامى كله، وهذا الكتاب يتصل بتاريخ أوساط إسلامية خاصة، وهى الشيعة؛ أى أتباع علىّ وآل بيته. وقد تم اختيار تلك الفترة الغامضة عندما اختفى الإمام الثانى عشر، أى عقب ((على بن أبى طالب رضى الله عنه)) من الأرض حسب اعتقاد الشيعة، وناب عنه سفراؤه – وعددهم أربعة. وفى هذه الفترة كان الشيعة فى غاية الضعف، لكنهم لم يلبثوا أن تقوّوا وكانت لهم سطوة بعد ذلك، وظهروا فى أيام حكم البويهيين، لا يزل الكثير من هذه المرحلة غامضًا. وهذه الأطروحة تقوم لأول مرة بمحاولة الفصل بين الحقيقة التاريخية والأسطورة، فى تلك المرحلة التى لم يتم بحثها، ولذلك نقدم كثيرًا من الأسئلة والأجوبة لهذه المرحلة.

الناشر

تمهيد

انقسم الإسلام كما انقسمت المسيحية إلى ديانات، وتمثلت أسباب انقسام الكنيسة المسيحية في اختلاف الآراء حول طبيعة المسيح وإرادة الإنسان الحرة، أما في الإسلام فقد لعبت السمات السياسية والعائلية الدور الأول[1]. ففي المركز الثاني بعد السنة تأتي من حيث العدد فرقة ما يسمى بالشيعة الإثني عشرية، يشكل أتباعها ٩/ ١٠ من سكان إيران المعاصرة[2]، ومليونا ونصف المليون في العراق و٥ ملايين في الهند وفي المناطق ذات الأقليات الدينية[3]. وهذه الفرقة من الشيعة تدعى الإمامية أو الجعفرية أيضا.

وكلمة «شيعة» تعني في العربية «الحزب». ثم أصبحت فيما بعد لا تطلق إلا على أسرة علي بن أبي طالب[4]. ويعود اسم الإمامية إلى اعتقادهم بالإمامة، بمعنى القيادة الدينية، التي تشكل نواة عقيدتهم[5]. والإمامة تنتمي عند الشيعة إلى الأسس الرئيسة الخمسة للدين:

---

(١) أمير علي سيد، روح الإسلام، ص ٢٩٢.

(٢) إقبال علي شاه، شرق إيران، ص ١٦٠.

(٣) ضحى الإسلام، ج ٣، ص ٢١٣ والشيعة، ص ٧٠.

(٤) لسان العرب، ج ١٠، تحت كلمة «شيعة»، ومقدمة ابن خلدون، ص ٣٥٥.

(٥) ضحى الإسلام، ج٣، ص ٢١٢ ومحاضرات غولدتسيهر عن الإسلام، ص ٢١٦.

١. التوحيد، ٢. العدل، ٣. النبوة، ٤. الإمامة والبعث[٦]. ويصل عدد الأئمة بعد النبي (عليه السلام) إلى اثني عشر إماما، ومن هنا جاء الاسم «الشيعة الإثنا عشرية». وكان الإمام الأول على بن أبي طالب، والأخير هو المهدي. ومن مات من غير أن يؤمن بالأئمة الاثنا عشر، يعد كافرا[٧].

وعلى الرغم من أن الإثني عشرية يشكلون الأغلبية بين غير السنيين، فليست هناك حتى اليوم دراسة علمية حديثة شاملة حول الإثني عشرية. إلا أن الأعمال التي رأيتها حول هذا الموضوع، والتي توجد من بينها دراسات متميزة، يقدم بعضها ما لا غنى عنه من هذه المصادر، بينما يعالج بعضها الآخر المشاكل والمراحل المفردة، بشكل يدل حقا على أن هناك نوعا من الحرص على دراسة تلك الميادين، ولكنها في مجموعها لا تزال تنقصها الدراسة النقدية المنهجية الشاملة[٨]. يقول ا. غ. براون: «إننا لا نملك عرضا مفهوما موثوقا به عن مبادئ الشيعة في أية لغة أوربية[٩].» ويعيد شتروتمان الأسباب المفترضة لذلك إلى: «أن كتابة تاريخ الشيعة وتاريخ عقيدتهم ودراسة طبيعتهم الداخلية بشكل مفصل يعتمد عليه لا تزال غير ممكنة في هذا الوقت في ألمانيا لأسباب خارجية. حتى هذه الدراسة الصغيرة، التي هي بين أيدينا، تعاني، إذا ما نحن أخذنا بعين الاعتبار المجموعة الضخمة من المصادر الشيعية، التي ليست في متناول اليد ـ تعاني من قلة المصادر[١٠]».

لقد اتبع المستشرقون المحدثون منهجا جديدا، فلم يعودوا يرجعون، كما كانوا في السابق، إلى المصادر السنية، بل أصبحوا

(٦) أصل الشيعة، ص ٩٤ و٩٦.
(٧) الكافي، ص ٨٦.
(٨) أنظر عقيدة الشيعة، ص VII.
(٩) الأدب الفارسي في العصر الحديث، ص ٤١٨.
(١٠) الشيعة الاثنا عشر، ص VII.

يعتمدون في بحوثهم بالدرجة الأولى على المصادر الشيعية، على غرار ما فعله شتروتمان مثلا في كتابه «الاثنا عشرية»، الذى يعالج المشكل في عهد المغول. ويمكن على العموم اعتبار هذا الميدان العلمي كله أرضا لا تزال بكرا.

في سنة ١٩٢٥ أصدر نيبرغ H. S. Nyberg الكتاب العربي «الانتصار في الرد على ابن الراوندي». وبعد أن تحدث في مقدمته عن قيمة الكتاب ومعناه، أراد توضيح جوهر الشيعة. ورغم تقدم العلم في هذا الميدان، ومع أن هذه الفترة قد عرفت مصادر شيعية غير قليلة، لم تلبث أن أصبحت في متناول الأيدي مطبوعة أيضا، فقد اكتفى نيبرغ بتلك الأفكار القديمة عن الشيعة، التي أملتها على أصحابها الكراهية الدينية المتعصبة. وهكذا كان التجسيم مثلا (ص ٥٣، سطر٧ وما بعده) وتناول المذهب الشيعي على أنه خليط من الثنوية والإسلام (ص ٥٥، سطر ١٠ وما بعده) وكذلك بعض المزاعم الأخرى من الكتب الدينية القديمة، التي لم يتطرق إليه الشك عنده، في حين أنها تحتوى على الخرافات المعادية.

إن الشيعة يرفضون الاعتذار بقلة المراجع بوصفه تهربا «لأن كل إنسان يريد أن يكتب عن موضوع، يجب عليه أولا أن يجمع المصادر، ثم ينظم موادها ويفحصها بكل ما يمكنه من دقة. وإلا فإنه لا يحق له أن يكتب شيئا عن هذا الموضوع وينشره على الناس[١١]». «ومن الواجب الخلقي على الباحث متقصي الحقيقة أن يدع جانبا جميع الروايات المتعصبة والمتحيزة[١٢]».

لقد شغل الداعي الحسيني نفسه في كتابه «تبصرة السنة» بالمآخذ الموجهة إلى الشيعة. فهو يقول، عندما يحاول المرء أن يجعل من الشيعة، دون سند من مؤلفاتهم، وإنما اكتفاء بالروايات الشفوية والمفاهيم

---

(١١) أصل الشيعة ، ص ٥٠.

(١٢) آثار الشيعة، ص ٩.

المفهومة غلطا، مسلمين سيئين، فإن من حق الشيعة أيضا أن يتخذوا نفس الإجراء ضد أهل السنة. ويورد المؤلف أمثلة من أوساط السنيين الصوفية ومن أربع مدارس سنية ويشير إلى أن بعض الشخصيات السنية يعدون عند أهل السنة في مرتبة تساوي مرتبة الإله ويطرح هذا السؤال: لماذا يصح للسنيين أن يلوموا الشيعة على إجلالهم لعليّ بوصفه قديسا، ماداموا هم أنفسهم يقومون بمثل هذا؟[١٣].

علينا إذن أن نكون حذرين عندما نقارن الطوائف الإسلامية بعضها بالبعض الآخر، فالمؤلفون يسعون إلى اضطهاد الطوائف الأخرى، غير الطوائف التي ينتمون إليها، وإلى إرغام جميع المؤمنين على الإيمان بها وحدها، حتى ولو هم لجؤوا إلى الكذب والافتراء[١٤]. مثل هذه النوايا لم تحمل المقريزي وحده على القول بأن العقيدة الأصلية للشيعة قد جاءت من اليهودية. فابن حزم الظاهري والشهرستاني وغيرهما من أصحاب الطوائف ليسوا بريئين من مثل هذه الآراء الخاطئة. والحكم لا يختلف عن بعض المنتمين إلى أوساط المؤرخين الحقيقيين، مثل ابن خلدون، الذى روى أن المهدى كان قد دخل في سرداب بيت متطرف من بيوت الشيعة بالحلة وغاب فيه[١٥]. حتى الرحالة ابن بطوطة يدعي في رحلته[١٦] أنه سمع من أهل الحلة يقولون إن الإمام الثاني عشر قد اختفى بعد دخوله أحد المساجد.

إن هذه الآراء تحملنا على الظن بأن المؤلفين لا علم لهم باختفاء الإمام الثاني عشر ولا بإنشاء مدينة الحلة، وما قالوه عن الإمام الثاني عشر من أنه اختفى في الحلة، التي لم تكن موجودة آنئذ، أي سنة ٢٦٠ للهجرة وإنما أنشأها صدقة بن منصور المزيدي في سنة ٤٩٥/ ١١٠١-٢ ،

(١٣) تبصرة العوام، ص ٤٠٢ وأماكن أخرى.
(١٤) خنداني النوبختي، مقدمة، ص ط، والأشعري، مقالات الإسلاميين، ص ١.
(١٥) مقدمة ابن خلدون: ص ٣٥٩، وآثار الشيعة، ج٣، ص ٢.
(١٦) رحلة ابن بطوطة، ج ٢، ص ٩٦.

لم يرد في أي كتاب من كتب الشيعة[١٧].

وإننا لنجد فيها أخطاء حتى بالنسبة للاسم، فقد اعتبر السبكي أبا جعفر الطوسي في كتابه «طبقات» شافعيا، وبعضهم اعتبر الشريف الرضي زيديا، وما أشبه ذلك من الأخطاء[١٨]. لذلك يجب فحص المصادر بدقة، فقد كان من السهل في ذلك الحين أن يقع عالم مرموق في مثل هذه الأخطاء والتحريفات. لقد آن الأوان أيضا لإعادة النظر في مفهوم «الشيعة» المستعمل عموما وتحديده. وهكذا يجب أن يبعد الراوندية أو أبومُسْلِمية، الذين يعتقدون بإمامة العباس، عم رسول الله، فالشيعة إنما هم أولئك الناس، الذين لا يؤمنون إلا بعلي بن أبي طالب وأعقابه[١٩]. وكذلك ينبغي أن يكون موقف المرء من الرزَّامِية، وهي فرع من الراوندية، والخُرَّمية والبابَكِية، والسُّنبَادية والحُلُولية وغيرها. عندما يبحث المرء تعاليم هذه الفرق، لا يجد أي أثر لعبادة علي وأعقابه، وإنما يجد أسماء أخرى، بحيث يكون من الخطأ نسبة هذه العقائد إلى جماعة الشيعة بصورة مطردة[٢٠].

---

(١٧) دائرة المعارف الإسلامية، مقال الحلة، ويا قوت، معجم البلدان، ج٢، ص ٣٢٢.

(١٨) آثار الشيعة، ج٣، ص ٥٢.

(١٩) فيما يتصل بتحديدات مفهوم الشيعة وتفسير التعاليم الشيعية ينظر كتب الشيعة! ومن بينها خنداني النوبختي، ص٥٠، ثم أصل الشيعة، ص ٧١، وتبصرة العوام، ص ٤٢٤ ومواضع مختلفة ! وكتاب آثار الشيعة، ويتكون في الأصل من ٢٠ جزءا ـ طبع منه جزءان ، وهو يقدم معلومات عن المسائل المتصلة بهذا الميدان.

(٢٠) عن هذه الفرق المختلفة ينظر زيادة على دائرة المعارف الإسلامية: عن الرزامية، الذين هم أيضا من أتباع العباس ، فرق الشيعة، ص ٢١ : ١٤، مقالات، ص ٢٢ : ٢١، أنساب، ورقة ٢٥١ ب، الخطط، ج٤، ص ١٧٧، خنداني النوبختي، ٢٥٦، وعن الخرمية ينظر الشهرستاني، ص ١١٣ و١٣٢، فرق الشيعة، ص ٤٣٨ : ٦، تبليس إبليس، ص ١٠٩، و١١٢، أنساب، ورقة ١٩٦أ، وعن البابكية ينظر خنداني النوبختي، ص ٢٥١ و٢٥٤، وعن السنبادية ينظر خنداني النوبختي، ص ٢٥٨.

لقد أصبحت هذه الأخطاء والمواقف المقصودة قديمة. كان بابويه قد حارب في عصره أولئك الناس، الذين اتهموا الشيعة بالتشبيه في تصورهم للإله، فوضع كتابا تحت عنوان «التوحيد»[٢١]، وقد اتجه المرتضى في «رسالة الانتصار» إلى أولئك الذين يحاولون التفريق بشكل جوهري بين الشيعة والسنة، وأوضح أن الفرق في الحقيقة ليس أكبر من الفرق بين المدارس السنية[٢٢].

عندما يقارن المرء دفاع الشيعة عن أنفسهم بمآخذ السنيين عليهم ويفحصها حسب المناهج الدراسية الحديثة، فإنه سيكتشف المسائل المبهمة والتشويهات ، ويستخلص من ذلك مفهوما جديدا عن الشيعة وعن الإثني عشرية ، وإننا لنأمل في أن تقدم في المستقبل دراسات خصبة عن هذا الميدان.

---

(٢١) الكتوري، ص ٤٣٠.

(٢٢) نفسه ص ٦١.

الفصل الأول

فكرة الإمامة عند الإثنا عشرية

يتمثل المبدأ الأساسي، الذي يميز الشيعة عن بقية المسلمين، في فكرة الإمامة، أي القيادة السياسية الدينية. فالإمامة وحاملها نفسه قد نصبهما الله وحدهما عن طريق نبيه[1]. وسلطة الإمام تشمل الأرض كلها[2]، فهو يحكمها بلا حدود، لأن الله وَكَل إليه أمرها[3]، وكل ما يوجد فيها وفوقها، سواء أكان معدنا، أم غابة، أم حيوانا، برا أم بحرا، فالأشياء كلها ملك للإمام، وله الخمس مما يكسبه الناس من أعمالهم[4]. إذا تولى إنسان تسيير قطعة أرض دون علم الإمام فإن من حق الإمام نزعها منه[5]، وإذا ما عجز شخص من الأشخاص عن استغلال قطعة أرض أو تركها غير مزروعة وجاء آخر وتولى تسييرها بنفسه أو استغلها لحسابه، فإنه يكتسب حق الملكية وعليه أن يدفع الخراج للإمام.

وسيبقى هذا النظام قائما إلى أن يأتي زمان «الإمام المختفي»، وعندئذ سيتولى تسيير الأرض بنفسه ويوزعها بين جميع المؤمنين[6].

---

(١) أصل الشيعة، ص ١٠١.

(٢) الكافي، ص ٢٨٩.

(٣) نفسه، ص ٢٢٠.

(٤) كما كان الأمر مع النبي بشأن غنائم الفتوح.

(٥) الكافي، ص ٣٠٠.

(٦) نفسه، ص ٢٢٠.

ولكن الإمام ليس في حاجة إلى خراج من هذا النوع، والناس الذين يدعون ذلك سيوسمون بميسم الكفر، ذلك أن الشيعي يأخذ الخراج ليطهر نفسه من أدران الدنيا(٧)، وهذا التقليد يعود إلى الإمام جعفر الصادق.

ثم إن الحق لا يكون إلا مع الإمام أو وكلائه(٨)، وإذا ذهب شيعي إلى حاكم دنيوي ليس شيعيا ليطلب منه حقه، فإن هذا يعد أمرا سيئا للغاية ويكون بمثابة من يتوجه إلى الشيطان ويطلب منه ذلك، حتى ولو اتسم هذا الأمر بالعدل(٩).

إن الأئمة، الذين يحكمون العالم باسم الله بعد نبيه هم على بن أبي طالب، صهر النبي (صلى الله عليه وسلم)، وابناه الحسن والحسين، ابنا فاطمة، آل بيت النبي، والأحفاد المباشرين للحسين إلى المهدي، صاحب الزمان، الذى اختفى سنة ٢٦٠ للهجرة، والشيعة ينتظرون رجوعه إلى يومنا هذا، وعلم الأنساب هذا في حوزة الشيعة الإثني عشرية. بعد أبناء الحسن والحسين ينتهي ميراث التعاقب بين الإخوة(١٠). ولا ترتبط الإمامة بسن معينة، لأن المسيح بن مريم كان قد جاء بالمعجزات وهو طفل، وأن داود أوحى الله إليه أن سليمان سيكون خليفته(١١).

ولما كان الإمام لا يستطيع أن يشرف على حزبه كله، فإنه يعين نوابا عنه في المدن والأماكن، التي توجد بها طوائف شيعية. وكان هؤلاء النواب يسهرون على أمور هذه الطوائف، ويجمعون الخراج ويرسلون إلى الإمام ما تبقى منه بعد إنفاق الأموال المخصصة للشؤون الاجتماعية(١٢).

---

(٧) نفسه، ص ٢٢٠ .

(٨) ميرزا مخدوم، ص ٥٦ .

(٩) الكافي، ص ٢٠ .

(١٠) الغيبة، ص ١٤٦، وإكمال الدين، ص. .

(١١) الكافي، ص ١٩٥ .

(١٢) كاشف الغطاء، رسالة بتاريخ ٢٨ محرم ١٣٥٥ للهجرة.

و كانت للوكلاء في الحقيقة السلطة المطلقة في الطوائف، بينما لم يكن الأئمة في النهاية أئمة حقيقيين، كما لاحظ شتروتمان بحق وكان الأول في ذلك، ومنهم جعفر الصادق، الإمام السادس نفسه[١٣]. وكثيرا ما كان النزاع يقوم بين النواب حول المناطق التابعة لهم واختصاصاتهم فيها عند جباية الأموال. في البداية كان لكل نائب منطقته المحددة، لكن أبا علي بن رشيد لم يكن يكفيه ما كان يجمعه في منطقته، فكان يطلب من الغرباء عن منطقته، من بغداد أو من المدائن، دفع الضريبة، مع أن هاتين كانتا تابعتين لمنطقة طائفة أيوب بن نوح، فكتب أيوب إلى الإمام يشكو إليه فعله. ولم يكن في وسع الإمام سوى أن يكتب إلى الاثنين آمرا إياهما ببقاء كل واحد منهما في منطقته حفاظا على الأمن والنظام[١٤]. إن هذه النزاعات لتضع أمام المؤرخين مهمة صعبة، وذلك لما في روايات أتباع الوكلاء وأصدقاء الإمام من اختلاف وتضارب، ولهذا فإن تراجم الشخصيات الشيعية المهمة جميعها تعاني مما في الروايات من تناقض وأخطاء.

لا يقوم التنظيم الكامل للشيعة، وعلى رأسهم الإمام ونوابه، بمثابة دولة داخل دولة، إلا في حالة من السرية التامة بطبيعة الحال. فالحكومة تخشى خطر الشيعة وتستعمل جهازا واسعا من المخابرات[١٥]، ولكن الشيعة أنفسهم كانوا يلتزمون الحذر في دعوتهم، ومع ذلك لم تكن هناك مؤسسة واحدة لم تتسرب إليها الخلايا الشيعية[١٦]. لقد أراد عبيد الله، الوزير الأول، اكتشاف المنظمة الشيعية، وأرسل جواسيسه لهذا السبب حتى يتسلموا الجباية من النواب. ولكن القيادة العليا بادرت في الحين إلى إصدار أمر إلى النواب بعدم جباية الأموال في هذه السنة، وهكذا فشل

(١٣) دائرة المعرف الإسلامية، مادة الشيعة.
(١٤) الكشي، ص ٣١٩.
(١٥) الدراجات الرافعة، ص ٢.
(١٦) مجالس المؤمنين (غير مرقمة) الفصل العاشر في مادة علي بن يقطين.

مشروع الوزير الأول، ووجد النواب أنفسهم في مأمن منه[17].

كان على الإمام أن يقبل بمراقبة الدولة له، فكان الجواسيس يحيطون به عند كل خطوة يخطوها، بحيث إنه كان يعيش دائما مهموما خائفا على حياته وقضيته، ولم يكن يسمح لنفسه الظهور أمام الناس من غير حذر وحيطة[18]. وكذلك لم يكن في وسع الوكلاء أن يعملوا باسم الإمام إلا في تستر تام. وكانت ثمة عناصر لا تحصى استغلت هذه الظروف للقيام باختلاس الأموال وامتلاكها بطرق غير شرعية. ولم يكن للإمام في هذه الحالات حول ولا قوة، لأنه لم يكن يستطيع الاتجاه إلى الأجهزة العدلية الحكومية، ولو أنه فعل ذلك لتم اعتقاله هو نفسه. وهكذا لم يبق له سوى التشرد والحرمان، وحتى هذه الوسيلة كثيرا ما كان مآلها الفشل. وكان الحكام الخونة يعرفون كيف يحمون أنفسهم من ذلك بطريقة متميزة، وهي تكوين مجموعة ثابتة من الأتباع، يقاومون بها الإمام عن طريق نشر أحاديث مشكوك فيها أو مزيفة ويحاولون قدر الإمكان تقديمه على أساس أنه الخليفة غير الشرعي لإمام سابق، كانوا يزعمون أنه لا يزال حيا أو عائدا. ومن هذه النزاعات يتضح انشقاق عدد من الفرق الجديدة بين الشيعة. وحسبنا أن نتذكر الأحداث التي وقعت بعد موت الإمام موسى بن جعفر (ولد سنة ١٢٨/ ٧٤٥، وتوفي سنة ١٨٣/ ٧٩٩) عندما اعترف معظم الشيعة بعلي بن موسى الرضا بوصفه خليفة لهم وإماما. فكتب الإمام الجديد إلى وكلائه بشأن الأمور، التي كانت لا تزال تنتظر حلولها، أي الأموال التي تمت جبايتها باسم أبيه، فلم يستجب لطلبه الوكيل زياد بن مروان بمبلغ ٧٠٠٠٠ ألف دينار، وكذلك علي بن أبي حمزة بمبلغ ٣٠٠٠٠ وعثمان بن عيسى الرَّوَاسي بنفس المبلغ، وإنما نازعوا في شرعية الرضا بدعوى أن الإمام السابق لم يمت، وإنما اختفى

---

(١٧) الكافي، ص ٢٩٣.

(١٨) ضحى الإسلام، ص ٢٩٦ ومواضيع مختلفة منه.

من العالم، ولذلك فهم يحتفظون بالأموال باسم الإمام موسى بن جعفر[(١٩)].

إن هذه الأحداث وأمثالها، التي تحدثت عنها كتب الكشي، والنجاشي، والطوسي وغيرهم لتصعب من مهمة المؤرخ في تقديم صورة واضحة عن تطور الشيعية في ذلك الوقت وتوضيح السبب في اختفاء أغلب فرق الشيعة، بحيث لم يبق منها في النهاية إلا القليل.

المصادر

تم منذ الغيبة تأليف عدد كبير من الكتب عن موضوع الإمام المختفي، وقد ضاعت مجموعة منها، بينما وصلنا مجموعة أخرى. لقد أورد غير الشيعيين، حتى من المرتدين من اليهود والنصارى، في كتبهم أساطير، وحكايات عجيبة، وروايات لطيفة، وعقائد أخروية، فتحولت في بعض الأحيان إلى صور من الأشكال القصصية العجيبة، وساعدت على نشأة آداب جميلة غنية. فكان لابد أن ينقذ أحد من الموت في الصحراء أو عند غرق السفينة، على أن يتم ذلك بصورة رائعة، كما نقرأ مثلا في «جنة المأوى» للطبرسي، وتدخلات مشابهة للمهدي في ثوب قصصي، يكون جوا ملائما لقيام الدليل على وجود الإمام المخفي ومعرفة ما وراء ذلك من أسباب. هناك من الناس من يذكرون كتبا، وضعت قبل غيبة الإمام الثاني عشر، وتنبأت بعودته على نحو بديع، وقيل إنها تضمنت تفاصيل عن زمن الولادة والحياة والغيبة. لذلك ليس من السهل على العالم أن يجد طريقه عبر هذا الثراء من الحكايات الخرافية، ويستخرج منها القليل مما يمكن استعماله في دراسته.

وكذلك الأمر بالنسبة إلى النواب، إلى السفراء، الأربعة للإمام الثاني عشر، فقد وجدت تراجم، اهتمت بكتابات السفراء إلى أعضاء الطوائف

---

(١٩) الغيبة، ص ٤٦، منهج المقال، ص ١٥٢.

واحتفظت برسائلهم، على أن هذه الكتابات كلها للأسف قد ضاعت.

لقد كتب الرجال الموالون عن المهدي وسفرائه الأربعة. ولكي نتيح للقارئ أن يتتبع في كتاب معين التطور الكامل لفكرة المهدي، حرصنا على أن نرتب المؤلفين ترتيبا زمنيا.

ونبدأ بتعداد كتب الرجال، الذين لا نستطيع أن نعرف منهم ما إذا كان الأشخاص، الذين قدموها لنا على أساس أنهم مؤلفوها، قد ماتوا قبل الغيبة الصغرى للإمام الثاني عشر أم أنهم ماتوا في الوقت المبكر منها. لقد كان أولئك الكتاب، فيما تقوله الرواية، في عصر الأئمة وعاشوا معهم. أما ما إذا كان الأمر يتعلق في هذه الكتب بشيء زائف من نوع الحكايات العجيبة أو ما إذا كان المهدي المتحدث عنه فيها ليس هو مهدينا نفسه، فلا يمكننا الحكم على ذلك، لأن المهدي، كما نرى، لم يكن هو الأول بمفرده، بل ظهرت هناك لدى الفرق الشيعية المختلفة شخصيات أخرى، تمثل المهدي. لذلك نكتفي بإيراد الرواية كما نجدها عند هبة الدين الشهرستاني وسير علماء الشيعة. ولكننا نلاحظ من جهة أخرى أن الكتب، التي تعالج موضوع الغيبة، تتضمن عادة فصولا من الأخبار، التي يقدمها أشخاص ثبت أنهم لم يعيشوا في زمن الغيبة الصغرى ولذلك أريد لهذه الأخبار أن يتم عرضها علينا بطريقة رائعة[٢٠].

أبو الحسن بن علي بن فضّال[٢١]

(ت ٢٢٤ هـ)

يقال عنه إنه كان «فطحيا»[٢٢]، ثم انسلخ فيما بعد عن هذه الفرقة

---

(٢٠) أنظر الطوسي، الغيبة، ص ١١٩ وصفحات أخرى.

(٢١) منهج المقال، ص ١٠٣ وهبة الدين، رسالة خاصة.

(٢٢) الفطحية هم أتباع عبد الله بن جعفر الصادق، الذى كان أفطح (عريض الرأس أو مسطح القدم)، ولذلك أطلق على أتباعه هذا الاسم. عن الفطحية أنظر نوبختي، فرق الشيعة، ص ٦٥، والأشعري، مقالات، ص ٢٧ وما بعدها، كشي، ص

واتبع القول بإمامة على بن موسى الرضا . وقد وصلنا الكتاب المنسوب إليه عن موضوعنا تحت عنوان: الغيبة.

الحسن بن علي البطاجني[(٢٣)]

(القرن الثالث الهجري)

يروى أنه كان معاصرا للإمام علي بن موسى الرضا (١٥٣ ـ ٢٠٣ هـ) وأحد رؤساء الواقفية[(٢٤)] ، وهو ما آخذه عليه الإمام الرضا. من الكتب الكثيرة للبطاجني، التي تتصل بميداننا:

كتاب القائم الصغير

كتاب الرجعة.

محمد بن الحسن القمي البصري[(٢٥)]

(القرن الثالث الهجري)

قيل عنه أيضا إنه كان معاصرا للإمام الرضا، ومنه سمع البصري شخصيا أحاديث ووضع كتابا تحت عنوان "الرسالة المذهَبة عن الرضا". أما عن موضوع المهدي فقد كتب:

كتاب صاحب الزمان

كتاب وقت خروج القائم عليه السلام.

---

١٦٤ وما بعدها و٢٤٥، والسمعاني، الأنساب، ورقة ٤٢٩، وعباس إقبال، خنداني النوبختي، ص ٢٦٠ والطوسي ، الغيبة، ص ٦٠.

(٢٣) منهج المقال، ص ١٠٢ وهبة الدين، رسالة خاصة.

(٢٤) الواقفية تعني «المنقطعين عن تعداد الإمامة»، وانظر عن الواقفية الأشعري، ص ٢٧، وفرق الشيعة، ص ٦٨، والكشي، ص ٣٨٤ وما بعدها، الشهرستاني، ص ١٢٧، وخانداني النوبختي، ص ٢٦٦، والطوسي، ص ٢٠ وإضافة إلى ذلك الكتب التاريخية الدينية.

(٢٥) منهج المقال، ص ٢٩٠، هبة الدين، رسالة خاصة، منتهى المقال، ص ٢٦٨.

علي بن الحسن الطاطري[٢٦]

(توفي في القرن الثالث الهجري)

كان يتاجر في نوع من الأقمشة، وعرف بالطاطري، وكان إلى جانب مهنته من رؤساء الواقفية ومن المتعصبين لعقيدته. ولا يهمنا من كتبه الكثيرة، التي تتصل بالحقوق الشرعية، سوى كتاب: الغيبة.

علي بن عمر الأعرج[٢٧]

(القرن الثالث الهجري)

قيل إنه ينتمي أيضا إلى الواقفية، وكتابه المقصود هنا هو الغيبة، وقد جاء في «منهج المقال» أنه كان صديقا لزكرياء المؤمن، ولكن المؤمن كان معاصرا لجعفر الصادق (ولد سنة ٨٠ أو ٨٣ وتوفي ١٨٣ هـ)، وموسى الكاظم (١٢٨ أو بعد ذلك ـ ٨٣ هـ) وعلى الرضا (١٥٣ ـ٢٠٣ هـ)[٢٨]

إبراهيم بن صالح الأنماطي

(القرن الثالث للهجرة)

انقسمت الآراء حوله، فهناك من يقول إنه عاش في عصر الإمام الهادي (٢١٢ أو ٢١٤ ـ ٢٥٤ هـ). وذكر أحمد بن نوح، وهو معاصر للطوسي، أن معظم كتب الأنماطي قد فقدت ولم يبق منها سوى كتاب: الغيبة[٢٩]، ينظر معالم العلماء، ص ٣.

علي بن مَهزَيار الأهوازي

(القرن الثالث الهجري)

قيل إن أباه كان مسيحيا، ولكن ابنه أسلم، وعاش ابن مهزيار في

---

(٢٦) منهج المقال، ص ٢٢٩، وهبة الدين ، رسالة خاصة.

(٢٧) منهج المقال، ص ٢٦٠، وهبة الدين، رسالة خاصة.

(٢٨) منهج المقال، ص ٢٣٦، وهبة الدين، رسالة خاصة

(٢٩) منهج المقال، ص ١٥٠

عهد الإمام الرضا (١٥٣ـ٢٠٣ هـ) حتى عهد الهادي، وشغل وظيفة عند الأئمة المذكورين. ونذكر من كتبه المختلفة التاريخية والدينية وغيرها: كتاب القائم[٣٠].

محمد بن عيسى بن عبيد بن يقطين

(القرن الثالث الهجري)

قيل إنه عاش في عهد الإمام التاسع (ولد سنة ١٩٥، وتوفي سنة ٢٢٠ هـ) وكانت له صلة به مشافهة وكتابة. ويقال إن ابن يقطين قد نشر كتابا تحت عنوان: التوقيعات[٣١].

الفضل بن شاذان

(توفي سنة ٢٦٠ هـ)

قيل إنه عاش في عهد الإمام الرضا إلى سنة وفاة الإمام الخامس، وكان له اعتباره بصفته أديبا، وألف ١٨٠ كتابا، وذكرت مدينة نيسابور على أنها مسقط رأسه، ويقال إن الأئمة أثنوا على مؤلفاته، وكان له بطبيعة الحال أعداء يدعون عكس ذلك، لأن أفكاره لم تكن بعيدة عن أفكار يونس بن عبد الرحمن، ومن ثم اغتابه أعداء هذا الرجل. ونذكر من كتب ابن شاذان ١٨٠ ما يلي:

كتاب الغيبة

كتاب القائم

حديث الرجعة

الحجة البليغة في إثبات القائم

منتخب كتاب الرجعة

---

(٣٠) منهج المقال، ص ٢٢ وهبة الدين، رسالة خاصة.

(٣١) منهج المقال، ص ٢٣٩، وهبة الدين، رسالة خاصة.

وقد اعتمد الحر العاملي على هذا الكتاب وضمه إلى ملاحظاته الخاصة، كما ذكر هبة الدين في رسالته إلى مؤلف هذه الأطروحة[٣٢].

إبراهيم ين إسحاق النهاوندي

(توفي في نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع الهجري)

ويعرف أيضا باسم الأحمري، والاعتماد عليه قليل، ولذلك رفضه معظم كتاب التراجم. سمع عنده في سنة ٢٦٩ هـ القاسم بن محمد الهمذاني، والمعروف من كتب النهاوندي هو كتاب: الغيبة[٣٤].

عبد الله بن جعفر بن الحسين أبو العباس الحميري القمي

(توفي بعد سنة ٢٩٠ هـ)

اعتبر في عصرة أكبر عالم في مدينة قم، وكان رئيس الطائفة الشيعية الموجودة هناك. بعد سنة ٢٩٠ هـ جاء إلى الكوفة وعلم فيها. وكان يعد من خاصة أصدقاء الإمام الحادي عشر، وقد جمع مراسلاته معه في كتاب، وألف إلى ذلك كتبا عديدة[٣٥]. وقد نقل الطوسي وابن بابويه القمي الصدوق الكثير عنه في كتبهما، ويقال إن من بين ما عاشه الحميري ولادة الإمام الثاني عشر[٣٦]. ولعل الطوسي وابن بابويه قد استعملا هما أنفسهما كتب الحميري. ولنذكر له هنا الكتب التالية:

١)كتاب الغيبة،

٢) كتب المسائل والتوقيعات،

٣) كتاب مسائل عن محمد بن عثمان العَمْري.

---

(٣٢) منهج المقال، ٣١٣ وهبة الدين، رسالة خاصة

(٣٣) منهج المقال، ص ٢٦٠، هبة الدين، رسالة خاصة.

(٣٤) الكنتوري، ص ٤٥٢، منهج المقال، ص ٢٠، وهبة الدين رسالة خاصة.

(٣٥) فهرست الطوسي، ص ١٨٩، منهج المقال، ص ٢٠١ ، وكنتوري، ص ٤٥٢، وهبة الدين، رسالة خاصة.

(٣٦) نفسه وكتاب الغيبة مثل الطوسي وغيره

محمد بن مسعود بن محمد بن أيوب العياشي

(توفي في نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع الهجري)

يبدو أنه كان أديبا غزير الإنتاج، فقد نسب إليه حوالي مائتي كتاب، معظمها يعالج الشريعة. ويقال إنه قد ورث عن أبيه ثروة كبيرة، ولكن الابن كان قد جمع في بيته علماء وطلاب العلم، فأنفق، كما ذكر عنه، كل ميراثه على العلم وطلابه . وقد ذكر أنه كان في بداية تعلمه سنيا، ولكنه سرعان ما انتمى إلى الشيعة. ونحن نعرف أن أحد طلابه، وهو رجل يدعى حيدر السمرقندي، قد عاش في بداية القرن الرابع. وأذكر من عناوين كتب ابن عياش التي وصلتنا ما يلي:

١) كتاب الغيبة

٢) كتاب الرجعة[٣٨].

علان الرازي، أحمد بن إبراهيم الرازي الكوليني[٣٩]

(توفي في بداية القرن الرابع الهجري)

هو عم الكوليني المعروف، الذى توفي في سنة ٣٢٨ هـ، وأذكر من مجموعة الكتب، التي ألفها الرازي:

أخبار القائم[٤٠]

علي بن محمد بن علي السواق

(توفي في بداية القرن الرابع الهجري)

كان الحديث ميدان تخصصه. ومن عناوين كتبه، التي وصلتنا، آخذ

---

(٣٧) منهج المقال، ١٢٨ .

(٣٨) منهج المقال، ص ٢١٩، وهبة الدين، رسالة خاصة.

(٣٩) كلين مكان في مقاطعة الري. يذكر بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج١ص١٨٧، ٣، محمد بن يعقوب الكليني المعروف. ينظر كذلك فصلنا عن الكليني.

(٤٠) هبة الدين، رسالة خاصة، وانظر عن علان منهج المقال، ص ٣١ و٣٢٩.

في تعدادي: كتاب الغيبة. أما بالنسبة لحياة هذا الرجل، فيقدم لنا سندا عنها شخص يعرف باسم عبيد الله أحمد الأنباري، وهو تلميذ له عاش في بداية القرن الرابع الهجري[٤١].

محمد بن القاسم أبو بكر البغدادي

(توفي في بداية القرن الرابع الهجري)

كان معاصرا لأبي علي بن همام، الذى توفي في سنة ٣٣٢ للهجرة. والكتاب الذي ينبغي ذكره هنا هو:

كتاب الغيبة[٤٢].

محمد بن إبراهيم النعماني

(توفي بعد ٣٢٨ هـ)

مؤلف كتاب الغيبة المشهور يعرف أيضا بلقب ابن زينب. وقد اتخذه الطلبة في مسجد العتيقة ببغداد[٤٣] كتابا تعليميا، ونصحوا بالاستفادة منه. وكان النعماني من تلاميذ الكوليني. ينظر بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، التكملة ١، ص ٣٢١، رقم ١٩.

وذهب إلى دمشق ومات فيها. وطبع الكتاب على الحجر في طهران بإيران[٤٤]، وعنوانه:

كتاب الغيبة.

---

(٤١) هبة الدين، رسالة خاصة، ومنهج المقال، ص ٢٣٨ و٢١٧.

(٤٢) هبة الدين، رسالة خاصة، ومنهج المقال، ص ٣١٥.

(٤٣) ذكر النجاشي (توفي سنة ٤٥٠ هـ) أنه ملك الكتاب وأن الشيعة كانوا يستعملونه في ذلك الحين.

(٤٤) هبة الدين، رسالة خاصة، منهج المقال، ص ٢٧٣، والكنتوري، ص ٤٥٢، الشيعة والفنون، ص ٩٢، علم الهدى (الطوسي list of Shi'ah books، ص ٢٦٤).

أبو الحسن أحمد ين جعفر بن محمد المنادي

(توفي بعد ٣٣٠ هـ)

لقد اختصر المؤلف كتاب: المقتصِر على مُحدث العوام لبناء ملاحِم غابر الأيام، وانتهى من تأليفه سنة ٣٣٠ هـ، وذكر أحد العلماء أن الكتاب كان موجودا سنة ٤٨٠ للهجرة(٤٥).

عبد العزيز بن يحي الجُلودي

(توفي سنة ٣٣٢ هـ)

تقع جُلود في ضواحي البصرة، وقد كتب المؤلف كتبا كثيرة يتصل معظمها بالتاريخ. عاش في زمن الغيبة الصغرى، وعنوان كتابه:

أخبار المهدي(٤٦).

محمد بن علي بن الفضل بن تمام بن سُكين

(توفي بعد ٣٤٠ هـ)

هو واحد من أشهر كتاب الشيعة، ويعتبر عالما كبيرا. درس عليه التلعَكبُري سنة ٣٤٠ هـ واستلم منه الإجازة في هذا السنة. ويسمى كتابه الذى يستحق الذكر هنا:

كتاب الفرح في الغيبة(٤٧).

أبو محمد الطبري المرعيشي الحسن بن حمزة الحسيني

(توفي سنة ٣٥٨ هـ)

هو مؤلف كتاب بعنوان الغيبة، وكان يعتبر عالما ورعا، وقد ذكر الطوسي أن بعض الناس قد درسوا عليه سنة ٣٦٤ للهجرة، وهذا القول

---

(٤٥) بحار، ج١٣، ص ٢٧.

(٤٦) منهج المقال، ص ١٩٥، هبة الدين، في رسالة خاصة.

(٤٧) الكنتوري، ص ٤٥٣، ومنهج المقال، ص ٣٠٩.

غير صحيح، وكثيرا ما يرتكب الطوسي مثل هذه الأخطاء. كان المفيد المشهور من تلاميذ الطبري أيضا[٤٨].

محمد بن أحمد بن عبد الله الصفواني

(توفي في منتصف القرن الرابع الهجري)

كان من تلاميذ الكوليني الشهير (توفي ٣٢٨ هـ). عاش فترة من الزمن في الموصل، وكانت له صلة بأسرة حمدان الحاكمة. وقد كرس حياته لدراسة الفقه، وأطلق عليه لقب شيخ الطائفة اعترافا بفضله. كتب السيرة نفسها تعدّه أميا، ومع ذلك تفوق على معاصريه بعلمه وسعة اطلاعه[٤٩]. ومن مؤلفاته:

كتاب الغيبة.

الحسن بن محمد بن يحيى أبو محمد

(توفي ٣٥٨ هـ)

يعرف الحسن أيضا بابن أخي طاهر. ويصفه كتاب التراجم بأنه مجموعة من النوادر المأثورة المشكوك في صحتها. مات في بغداد، ودفن بها في بيته بسوق العَطَش. عنوان كتابه:

كتاب الغيبة وذكر القائم[٥٠].

الحسين بن حمدان الجُنبُلاني

(توفي سنة ٣٥٨ هـ)

ويعرف أيضا بالخَصِيبي وأحيانا الحُضَيني، كانت له عند النصيرية رتبة باب، ولذا رفضه الشيعة الاثنا عشرية، لكنهم مع ذلك أوردوا في

---

(٤٨) منهج المقال، ص ٩٨.

(٤٩) منهج المقال، ص ٢٨٠، وهبة الدين، رسالة خاصة.

(٥٠) منتهى المقال، ص ٢٠٤، منهج المقال، ص .. وهبة الدين، رسالة خاصة.

كتبهم مقتبسات من مؤلفاته باعتبارها براهين وأدلَّة، كما ذكرت في أطروحتي في غير ما موضع. وأذكر من كتبه الكثيرة، التي وصلتنا عناوينها[٥١] الشهيرة منها:

كتب الإخوان،

كتاب المسائل،

كتاب تاريخ الأئمة،

وكتاب الرسالة.

وتحتوى المكتبة الوطنية البروسية على مخطوطات تحت رقم mq 477، يقال إن مضمونها يعود إلى الخصيبي. وقد فحصت هذه المخطوطات فوجدتها تحتوى على أخطاء نحوية، وكلمات تنطوي على أغلاط تاريخية وأشعار فظة.

أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي

(توفي سنة ٣٨١ هـ)

هو الشيخ الصدوق المعروف، مؤلف الكتاب، الذى يحتوي على ٦٢ فصلا، وهو كتاب: كمال (إكمال) الدين وتمام (إتمام) النعمة في إثبات الغيبة وكشف الحيرة.

تتعلق الفصول ٤٥ـ٤٩ بالمهدي، أما بقية فصول الكتاب فتتحدث عن الناس الذين عاشوا طويلا، وعن الأنبياء، الذين اختفوا لمدة طويلة أو قصيرة. ينظر شتروتمان، مصادر الشيعة، ص ١٥، رقم ٢٤، وبروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج١.. والتكملة ٣٢١/ ١٠ وما بعدها.

كتب أخرى لابن بابويه عن الغيبة:

رسالة في الغيبة إلى أهل الري والمقيمين بها وغيرهم،

المقنع في الغيبة،

---

(٥١) منهج المقال، ص ١١٢، ومنتهى المقال، ص ١١٩.

طبع على الحجر في طهران سنة ١٢٧٤ هـ.

كتاب المصباح الخامس عشر،

وهو جزء من مجموعة تتعلق بالتوقيعات والمرسل إليهم،

تاريخ الغيبة،

مخطوطة في المكتبة الوطنية البروسية ببرلين المحفوظة تحت رقم II ٤٦٥.

كتاب الرجعة،

كتاب علامات آخر الزمان،

السر المكتوم إلى اليوم المعلوم،

الرسالات الثلاث في غيبة الإمام الثاني عشر[٥٢].

كان ابن بابويه يرى رأي مواطنيه في قم أن الأئمة يمكن أن يعتريهم النسيان ، فآخذه بعض الناس على ذلك[٥٣].

حنظلة بن زكرياء بن يحيى بن حنظلة التميمي القزويني أبو الحسن

(توفي سنة ٣٨٥ هـ)

كان معاصرا للتلعَكبُري، الذى درس عليه وتوفي سنة ٣٨٥ هـ، وعنوان كتاب حنظلة هو: كتاب الغيبة[٥٣].

عبد بن محمد البَلوَى

البلوى قبيلة في مصر، وقد أثنى بعض الكتاب على مؤلف:

كتاب الأبواب،

---

(٥٢) روضات الجنات، ج٣،ص ٥٥٧ . عن ابن بابويه ينظر كتاب الخانجي رضوي، الفصل٤: أخبار رقم ٢٣٩، ص ٦٨، وهبة الدين، رسالة خاصة، ثم فهرست كتاب الخانجي، ص ١٣١؛ الكنتوري، ص ٢٧٥.

(٥٣) منتهى المقال، ص ١٢٣، منهج المقال، ص ١٢٧ و٣٨٥.

ولكن آخرين انتقدوه. كان خطيبا ومعلما للفقه(٥٤).

أبو محمد عبد الوهاب المادرائي أو الماداري

(توفي في نهاية القرن الرابع وبداية الخامس للهجرة)

لا نجد كثيرا عن حياته في كتب التراجم، فعلينا لذلك أن نكتفي بذكر مؤلَّفه:

كتاب الغيبة(٥٥).

أبو نصر هبة الله أحمد بن محمد الكاتب

(توفي بعد ٤٠٠ هـ)

كان معاصرا للشيخ الطوسي ويلقب أيضا بابن برنية. كان مختصا في علم الكلام. يقال إن جدته كانت ابنة السفير الثاني. وهو من تلاميذ الحسن بن شيبة العلوي، الذى كان زيديا، فكان يرى نتيجة لتأثره بأستاذه، على العكس من إخوانه في الدين، أن الأئمة ثلاثة عشر عوض اثني عشر، وزَيْد واحد من الثلاثة عشر. وردت ملاحظة في خنداني النوبختي مؤداها أن هبة الله قد عاش الغيبة الصغرى وأنه كان معاصرا للسفير الثالث ابن روح(٥٦)، ولكن هذا خطأ. ذلك أن مصدر الخانداني النوبختي، وهو رجال النجاشي، ص ٣٠٨، يذكر أن النجاشي التقى بهبة الله لآخر مرة في النجف سنة ٤٠٠ للهجرة(٥٧). وقد كتب هبة الله عن موضوعنا في كتابه:

كتاب في أخبار أبي عَمْر وأبي جعفر العَمْرِيَين(٥٨).

---

(٥٤) الكنتوري، ص ٤٢١، منهج المقال، ص ٢١٠.

(٥٥) منهج المقال، ص ٢١٦، وهبة الدين، رسالة خاصة.

(٥٦) خنداني النوبختي، ص ١١٠.

(٥٧) منتهى المقال، ص ٤٠٠، منهج المقال، ص ٣٥٩، النجاشي، ص ٣٠٨.

(٥٨) نفسه. نضد الإيضاح، ص ٣٥٤.

أحمد بن محمد بن نوح أبو العباس الصيرفي

(توفي في النصف الأول من القرن الخامس الهجري)

سكن البصرة وكان معلم النجاشي، وقد تحدث النجاشي عنه. كان الصيرفي يعتقد أن الله يرى بالعين يوم القيامة، وهذا الانحراف وغيره عن عقائد الشيعة يوحي بالتأثير السني[٥٩]. لقد لاحظ الطوسي أنه سمع بالصيرفي، وتأسف لعدم رؤيته له، لأن الصيرفي كان يسكن البصرة[٦٠]. وكتاب أبي العباس الصيرفي، الذى استعمله هبة الله بن أحمد الكاتب كمصدر رئيس يدعى:

كتاب أخبار الأبواب

أو

أخبار الوكلاء الأربعة.

وقد استعمل الطوسي كتاب الصيرفي، فهو يكثر من ذكره في كتابه «الغيبة» ويقول عنه إن الصيرفي يرجع إلى أبي نصر الكاتب[٦١].

أحمد بن محمد بن الحسن بن عياش الجوهري

(توفي سنة ٤٠١ هـ)

ينتسب المؤلف إلى أسرة معروفة في بغداد، وقد ألف كتبا كثيرة. ويبدو أنه كان يتاجر في الأحجار الكريمة، لأنه وضع كتابا عن فن صناعة اللؤلؤ والأحجار الكريمة[٦٢]. وقد أجهد نفسه بحفظ الأحاديث عن ظهر قلب، حتى إنه عانى في أواخر حياته من ضعف الذاكرة. كان هو وأبوه صديقين للنجاشي، ولكن النجاشي لم يكتب شيئا عن الجوهري، لأن

---

(٥٩) الطوسي، فهرت، ص ٤٨، منهج المقال، ص ٣٩، منتهى المقال، ص ٤٥

(٦٠) الطوسي، فهرست، ص ٤٨، معالم العلماء، ص ١٨.

(٦١) ينظر الغيبة، ص ٢٣٠، ٢٣١ ومواضع مختلفة من الكتاب.

(٦٢) منهج المقال، ص ٤٥.

الناس كانوا يشكون في عقل صديقه. وكتاب الجوهر الذى يهمنا هنا هو:

كتاب ما نزل من القرآن في صاحب الزمان والوكلاء الأربعة،

أو

كتاب الوكلاء الأربعة[٦٣].

المفيد محمد بن النعمان العَكبُري البغدادي

(توفي سنة ٤١٣ هـ)

اشتهر هو الآخر بلقب ابن المعلم، ويعتبر فقيها كبيرا بين فقهاء الشيعة. يقال إن ٨٠.٠٠٠ شخص شاركوا في تشييع جنازته، وكان قد درس عليه كثير من الفقهاء[٦٤]. وكتبه المتصلة بالغيبة هي:

الإرشاد في معرفة حُجج الله على العباد،

وهذا الكتاب يعالج موضوع الأئمة الإثني عشر، وتواريخ ميلادهم والآيات القرآنية التي فسرها الشيعة على أن لها صلة بهم، وكذلك بعض أقوال الأئمة[٦٥]. وقد صدر الكتاب مطبوعا على الحجر بمدينة تبريز سنة ١٣٠٨ هـ.

كتاب الغيبة،

أو

مسائل الغيبة،

بمعنى المسائل المتعلقة بالغيبة، ولا ينبغي الخلط بين هذا الكتاب وبين كتب: المسائل العشرة، للمؤلف نفسه.

مختصر كتاب الغيبة.

---

(٦٣) نفسه، هبة الدين، رسالة خاصة.

(٦٤) روضات الجنات، ج٣، ص ٥٦٣ .

(٦٥) الكنتوري، ص ٣٨، فهرست كتاب الخانجي، مجالس، ص ٩٦ ـ٩٧، وانظر عن المفيد المنتظم، ج٢، ص ٢٦٢ (مخطوطة برلين).

المرتضى علي بن الحسين الموسوي

(توفي سنة ٤٣٦ هـ)

كان من تلاميذ الشيخ المفيد، يدعو إلى الكلام المنظم وينتقد بذكاء أتباع الأخبار الآحاد وأشياعها. وكان شاعرا معروفا له مكانته في ميدان الأدب. وقد حاول بجميع الوسائل نشر عقيدته وتبريرها داخل الدين الإسلامي، وكتب ضد أولئك الذين حاولوا أن يقذفوا الشيعية بأنها غريبة عن الإسلام وأنها اتجاه خاص، وتفاوضوا مع الخليفة القادر بشأن الاعتراف بالذهب الشيعي ومساواته بالمذاهب السنية الأربعة. وقد روي أن الخليفة طلب ١٠٠ ٠٠٠ دينار من أجل الاعتراف، وأنه اكتفى بمبلغ ثمانين ألف دينار عندها لم يتمكن الشيعة من جمع ذلك المبلغ. ويقال إن المفاوضات فشلت لأنه كان من المستحيل على الشيعة حتى جمع هذا المبلغ المطلوب أيضا، حسب ما ذكره الشيعة عن هذه المسألة[٦٦].

من كتب المرتضى العديدة، التي تتصل بميداننا، ما يلي:

المقنع في الغيبة

كتاب الغيبة،

وقد طبع مع كتاب: حاشية تعليقات الخرساني، في طهران.

الشافي في الإمامة[٦٧].

محمد بن زيد بن علي الفارس

(توفي في بداية القرن الخامس الهجري)

كان من بين تلاميذه المفيد النيسابوري[٦٨] عبد الرحمن بن أحمد بين الحسين، الذى درس أيضا على المرتضى، والطوسي، وسَلار (توفي

---

(٦٦) روضات الجنات، ج ٣، ص ٣٨٥ ـ ٣٨٦، والكنتوري، ص ٦١.

(٦٧) هبة الدين، رسالة خاصة، روضات الجنات، ج٣، ص ٣٨٦.

(٦٨) تذكرة المتبحرين، ص ٤٥٨، هبة الدين، رسالة خاصة

سنة ٤٤٩ هـ) والراضي، أخي المرتضى[٦٩].

محمد بن علي بن عثمان الكراجُكي

(توفي ٤٤٩ هـ)

من علماء الحديث المشهورين، درس على علماء مختلفين من الشيعة، منهم المفيد، والمرتضى، والطوسي، وكتب شروحا على مؤلفاتهم، ولنذكر من بين مؤلفاته الخاصة:

البرهان على طول عمر صاحب الزمان[٧٠].

أحمد بن محمد بن عمر بن موسى الجراح

(توفي في منتصف القرن الخامس الهجري)

كان يلقب أيضا بابن الجندي، وكان من العلماء الذين درس عليهم النجاشي[٧١]. وكتاب الجراح يحمل العنوان المذكور مرارا وتكرارا:

كتاب الغيبة.

أحمد بن علي أبو العباس الرازي الخضيب

(٣٧٠ ـ ٤٥٠ هـ)

هناك آراء متعددة حوله، فقد أوضح بعضهم أنه اتخذ لنفسه آراء غلاة الشيعة، بينما اعتبره بعضهم الآخر متدينا صالحا[٧٢]. وكتابه هو:

الشِّفاء والجَلاء في الغيبة.

أبو الفرج المظفر علي بن الحسين الهمذاني الأسدي

(توفي في منتصف القرن الخامس الهجري)

---

(٦٩) تذكرة المتبحرين، ص ٥٠.

(٧٠) تذكرة المتبحرين، ص ٥٠٤، وهبة الدين، رسالة خاصة.

(٧١) هبة الدين، رسالة خاصة، ومنهج المقال، ص ٤٦، وتذكرة المتبحرين، س ٤٦١.

(٧٢) منهج المقال، ص ٣٨ وما بعدها.

ستتحدث عنه عندما نتطرق للسفير الرابع. وكتابه المهم يسمى: كتاب الغيبة.

أبو جعفر بن محمد الحسن بن علي الطوسي
(توفي سنة ٤٦٠ أو ٤٥٩ هـ)

ألف الطوسي كتابه «الغيبة» بأمر من أستاذه المفيد[٧٣]. ومحتواه يشبه تقريبا محتوى كمال الدين للصدوق بن بابويه، على أن الطوسي يتوسع في بعض الفصول، وقد طبع الكتاب سنة ١٣٢٥ بمدينة تبريز. وكثيرا ما يناقض الطوسي نفسه، وسأقدم البرهان على ذلك في أطروحتي، وليس في هذا الكتاب فقط، بل إن هذا النوع من التناقض هو ما يميز كل مؤلفاته بالذات. فقد أورد أحكاما متناقضة للمسألة نفسها، فاختلف فيهِ علماء الشيعة بعده، ومع ذلك دأبوا على الإحالة عليه. وهناك من حاول فيما بعد أن يجد مبررا لتلك التناقضات، وهو أن الطوسي كان يسهو ويختلط الأمر عليه لغزارة علمه[٧٤]. ونلاحظ كذلك تذبذبا غريبا في اتجاهه العلمي: فهو مرة مثل الأخباريين، ومرة أخرى مثل الأصوليين[٧٥]. وقد هاجمه بسبب هذا التذبذب محمد بن أحمد بن إدريس (توفي سنة ٥٧٨ أو ٥٩٨ هـ)، الذى جاء بعده، بحدة إلى حد ما[٧٦]. وقد نال الطوسي في بغداد شهرة كبيرة، حتى إن الخلفاء عينوه مدرسا لعلم الكلام، وكان له حوالي ٣٠٠ تلميذ من الشيعة والسنة على السواء. ترك بغداد في سنة ٤٤٨ بعد الهجرة ليذهب إلى النجف، لأن السنيين هاجموا جانب الكرخ وحرقوا بيته[٧٧]. ينظر بروكلمان، التتمة I، ص ٧٠٥، ٢١.

---

(٧٣) الغيبة، ص ٢.
(٧٤) روضات الجنات، ج٣، ص ٥٨٠-٥٨٢
(٧٥) نفسه
(٧٦) روضات الجنات، ج٣، ص٥٩٩.
(٧٧) نفسه

محمد بن الحسن بن حمزة الجعفري أبو علي

(توفي ٥٦٣ هـ)

كان نائب أستاذه المفيد وخليفته، وهناك كتب كثيرة تنسب إليه، منها:

المسألة في مولد صاحب الزمان[٧٨].

أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن العلوي

(عاش في منتصف القرن السادس الهجري)

ألف كتبا بعنوان: كتاب التعازي. في هذا الكتاب القصصي يتحدث عن رحلة بحرية من مدينة الباهلة المسيحية إلى جزيرة، تتواصل الرحلة به منها إلى أن يصل إلى جزيرة، توجد بها مملكة ابن المهدي، ثم يصل أخيرا إلى جزيرة ، يحكم المهدي نفسه. وهذه المدينة الفاضلة هي المملكة المثالية التي يكون فيها جميع الناس سعداء راضين بما لهم فيها من حظ ونصيب ونعيم، تسود فيها الثروة والجباية، ولا يوجد بها فقراء، والديانة الرسمية الوحيدة فيها هي الديانة الشيعية[٧٩].

أمين الدين أبو علي الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسي

(توفي سنة ٥٤٨ وقيل ٥٥٢ هـ)

يعالج الإمامة في كتابه: علم الورى بأعلام الهدى. وقد قسم الكتاب إلى أجزاء، وقسمت أبوابه بدورها إلى فصول. يتحدث في القسم الأول عن حياة النبي وتعاليمه، ويتحدث في الثاني عن علي، وفي الثالث عن إمامة أبنائه، ويتحدث الأخير عن تعاليم الإمامة والإمام الثاني عشر. وفي الفصل الأخير يعالج الغيبة على العموم وتصرفات المؤمنين في هذا

---

(٧٨) منتهى المقال، ص ٢٦٨، ومنهج المقال، ص٢٩٠.

(٧٩) بحار، ج ٣١، ص ٢٥٥

العصر[٨٠]. وله كتاب آخر: كنوز النجاح[٨١]. ينظر شتروتمان، الإسلام XXI، وبروكلمان، التكملة I، ص ٧٠٨ ـ ٧٠٩.

قطب الدين أبو الحسين سعيد بن هبة الله بن الحسن الراوندي

(توفي سنة ٥٦٣ هـ)

يتحدث في كتابه الخرائج والجرائح في المعجزات، عن معجزات النبي والأئمة. ويتكون من ٢٠ فصلا، ١٣ عن معجزات النبي والأئمة الإثني عشر والسبعة الأخرى عن النبي محمد وكذلك عن الكتب، التي ظهرت قبل الإسلام وبشرت بمجيء النبي[٨١]. طبع الكتاب في بومباي سنة ١٣٠١ للهجرة ٢٨٣). ينظر بروكلمان، التكملة I، ص٦٢٤، ٨ د و٧١٠، ٣ س.

أحمد بن الحسين بن عبد الله المهراني الآبي

(توفي في القرن السادس الهجري)

أراد في كتابه النقدي أن يدافع عن عقيدته أمام الناس، الذين لا يؤمنون بالإمام المختفي، ولذلك جعل لكتابه عنوان:

ترتيب الأدلة فيما يلزم خصوم الأئمة دفعَه عن الغائب والغيبة[٨٣].

رشيد الدين أبو جعفر محمد بن علي بن شهراشوب المازندراني

(توفي ٥٨٨ هـ)

كان فقيها أديبا، حصر عمله الرئيس في ميدان التراجم، وعنوان كتابه هو: مناقب آل أبي طالب. وفيه يتحدث هو الآخر عن الأئمة الإثني

---

(٨٠) الكنتوري، ص ٥٤، وتذكرة المتبحرين، ص ٤٩٢.

(٨١) الكنتوري، ص ٢٠٤.

(٨٢) كتاب الخانجي، ص ٧٠.

(٨٣) تذكرة المتبحرين، ص٤٥٨ (عدد الصفحات من منهج المقال) ومعالم، ص ٢٠.

عشر[٨٤]، ويتكون الكتاب من سبعة أجزاء وقد تم طبعه على الحجر في مجلدين بطهران.

الأشرف بن الغر بن هاشم

(توفي ٦١٠ للهجرة)

يعرف أيضا بالتاج العلوي، وهو مؤلف:

كتاب الغيبة[٨٥].

يحيى بن أبي طي الغساني

(توفي سنة ٦١٠ هـ)

ألف هذا المؤرخ الشيعي المعروف «كتاب الجواهر»، وخص فيه السفير الثالث بست صفحات[٨٦]. وكانت أسرة طي مشهورة جدا بين الشيعة، وقد أنجبت عددا من العلماء المشهورين[٨٧]، واستعمل كتابه عدد كبير من المؤرخين من أمثال ابن العديم الحلبي في كتابه «تاريخ حلب» والذهبي في أماكن كثيرة من كتابه «تاريخ الإسلام»، وكذلك ابن الفرات المصري في تاريخه، ثم المقريزي.

سبط بن الجوزي

(توفي سنة ٦٥٤ هـ)

هو شمس الدين بن قِزُوغلُو. كان أبوه عتيقا تركيا، وكان جده لأمه العالم والمؤرخ ابن الجوزي، بحيث أصبح سبط بن الجوزي مؤرخا أيضا. درس سبط في بغداد، ثم انتقل إلى دمشق واشتغل بها خطيبا

---

(٨٤) نفسه، ص ٥٠٤.

(٨٥) هبة الدين، رسالة خاصة.

(٨٦) الذهبي، ج ٢ مخطوط، ص ١٣٢.

(٨٧) خنداني النوبختي، ص ٢٢٢، أمل الآمل، ص ٤٨٨، روضات الجنات، ص ١/٢٠٠.

وعالما إلى أن وافاه أجله. يتصل من أعماله بموضوعنا كتابه «تذكرة خواص الأمة بذكر خصائص الأئمة»، وهو تاريخ الأئمة الإثني عشر. ويتحدث المؤلف هنا عن الإمام الثاني عشر، المهدي، حسب تصور الشيعة له، ولذلك وجه إليه المؤرخ الذهبي كلمات لاذعة[٨٨]. وقد طبع الكتاب على الحجر بطهران سنة ١٢٨٥ هـ[٨٩]. ينظر بروكلمان، ج ١، ص ٣/٣٤٧

أبو عبد الله بن يوسف الشافعي الكنجي
(توفي سنة ٦٥٨ هـ)

يتناول كتابه، وهو بعنوان: «كتاب البيان في أخبار صاحب الزمان»، سيرة المهدي ويستشهد بكتب السنة. ويقال إن المؤلف نفسه كان سنيا (شافعيا)[٩٠]، ويحتوي كتابه على ٢٥ فصلا. وهو أيضا مؤلف كتاب «كفايات الطالب في مناقب علي بن أبي طالب»، وقد اعتمد على كتابه الشيعة والسنة على السواء. وكان قد كتبه للوزير الأول والمستشار دون ذكر اسمه، وطبع الكتاب ملحقا بكتاب الغيبة للطوسي في تبريز سنة ١٣٢٤ هـ[٩١].

رضي الدين علي بن موسى الطاووس (الطاووسي)
(توفي سنة ٦٦٤ هـ)

كان عالما وشاعرا، وكتب العديد من الكتب[٩٢]، وصلتنا منها بعض المخطوطات بخط يده، فهناك على سبيل المثال «كتاب الطرائف في

(٨٨) تاريخ آداب اللغة، ج٣، ص ٨٢/ ٨٣.
(٨٩) أخبار، ج ٤، ص ٥٨، رقم ١٠، فهرست، كتاب الخانجي، مجلس فصلي.
(٩٠) الغيبة، المقدمة، ص ٢ ـ ٤.
(٩١) نفسه، وص ٣٠٢ ـ ٣٠٤.
(٩٢) تذكرة المتبحرين، ص ٤٩٠.

مذاهب الطوائف» المحفوظ تحت رقم ٢١٧٧ ب م ٢٧٣ في المكتبة الوطنية البروسية ببرلين، بالقسم الشرقي. وإلى هذا ينتمي كتاب «ربيع الشيعة»، الذى يتناول السفراء الأربعة والوكلاء الذين نابوا عنه. وهو يحتوي، بناء على ما عرفناه من كتب أخرى، على أشياء كثيرة لا وجود لها عند الطوسي، حتى إنه يروي في بعض الأحيان عكس ما يرويه الطوسي، كما هو الأمر مثلا فيما يتصل بابن بلال، الذى اعتبره الطوسي كافرا وهاجمه بسبب ذلك، بينما اعتبره ابن طاووس مؤمنا، بل إنه اعتبره زيادة على ذلك وكيلا[٩٣]. وقد اعتمد عليه الاسترابادي بن علي بن إبراهيم مؤلف كتاب «الرجال الكبير» (توفي سنة ١٠٣٦ هـ) اعتمادا كبيرا، وهذا يعني بالضرورة أن الكتاب كان لا يزال موجودا في عصره. وقد استعملت في أطروحتي ما وصلنا منه عن طريق مؤلفين آخرين. وقد قيل إن عدد تلاميذه كان كبيرا جدا. وفي وسعنا أن نستعمل من كتب ابن طاووس في موضوع الغيبة الصغرى كتابين له هما:

ربيع الشيعة،

غياث سلطان الورى[٩٦].

بهاء الدين أبو الحسن علي بن عيسي الإربيلي

(توفي سنة ٦٩٢ هـ)

لم يكن فقيها وأديبا فقط، وإنما كان شاعرا أيضا، ويتضح لنا فنه في أحد كتبه، وهو «كشف الغمة في معرفة الأئمة»، حرص فيه على ذكر كل إمام، ومنهم المهدي، نثرا (ترجمة وما شابهها) وشعرا. وكان الانتهاء من تأليف الكتاب سنة ٦٨٧ هـ، ومن الممكن اليوم الحصول عليه في طبعة

---

(٩٣) الغيبة، ص ٢٦٠.

(٩٤) منهج المقال، ص ٣٠٦.

(٩٥) ينظر على الخصوص تراجم الوكلاء إضافة إلى مواضع مختلفة من الكتاب.

(٩٦) ينظر بحار، ج ١٣، ص ٢٥٣.

صدرت في إيران[٩٧]. ينظر بروكلمان، التكملة I، ص ٧١٣/ ١٠.

الفضل بن يحيى الطيبي

(عاش في نهاية القرن السابع وبداية الثامن الهجريين)

أصل هذا الرجل من الكوفة، ولكنه عاش في الحلة والنجف. وقد سمعنا أنه درس على الإربيلي المذكور ونال منه الإجازة. والطيبي مؤلف قصة إطارية، تقوم على تجربة وقعت سنة ٦٩٩ هـ في مدينة الحلة لشخص يدعى زين الدين بن علي بن فاضل المازَنْدَراني[٩٨]. فقد روى هذا للمؤلف أنه ذهب مع أستاذه السني لتعلقه به إلى إسبانيا، فانتابته الحمى هناك في أول مدينة وصلا إليها، فتركه أستاذه في تلك المدينة وواصل طريقه إلى المكان الذى كان يقصده. ولكنه زين الدين شفي من مرضه بعد ثلاثة أيام، وسمع أن هناك جزيرة تدعى «جزائر الرافضة»، لا يسكنها سوى الشيعة. فانضم في غمرة فرحته بذلك ـ فقد كان شيعيا ـ إلى المسافرين، الذين كانوا قد جاؤوا من تلك الجزيرة إلى إسبانيا، وسافر معهم إليها. وفي «الجزيرة الخضراء» تجلى له سحر الطبيعة، وتحدث فيها أيضا مع العلماء وسئل عن الديانة التي كان يدين بها، لأنه لم يكن من الواجب أن يكون المرء مسلما فقط، وإنما يجب أن يكون فوق ذلك شيعيا أيضا، وناقش مع عالم يدعى شمس الدين مسائل دينية، وسجل أجوبته عن المشاكل، التي لا يوجد لها حل عادة، في كتاب، أسماه «الفوائد الشمسية». وقد نصحه العالم شمس الدين بعدم البقاء فترة طويلة في الجزيرة، فعمل بنصيحته وعاد إلى وطنه. وهذه القصة موجودة بتمامها في «بحار الأنوار»، ج ١٣، ص ١٤٣ـ١٤٨[٩٩].

---

(٩٧) تذكرة المتبحرين، ص ٤٨٩، كتاب الخانجي راضوي، نسخ ٤: أخبار، ص ٧٦، رقم ٢٣٤، كنتاري: ٤٦٧، أمل الآمل، ص ٥٤، روضات الجنات، ص٣٩٦.

(٩٨) مازندران مدينة في إيران، ينظر ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص ٣٩٢.

(٩٩) عن كتاب هذه القصة ينظر أيضا تذكرة المتبحرين، ص ٤٩٢.

أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَيْمَاز شمس الدين الذهبي

(توفي سنة ٦٧٣ ـ ٧٤٨هـ)

اختصر الذهبي الصفحات الست التي كتبها ابن أبي طي عن السفير الثالث، ولم يتم طبع الكتاب. وهناك مخطوطات مختلفة منه ببرلين وغوتا Gotha وباريس وكذلك في مدن أخرى أوربية وشرقية. والمخطوطات غير متجانسة، بعضها لا يحتوي إلا على مقتبسات من الأصل سجلت بصورة لا تخلو من تعسف، فقد وجدت أن الصفحات الست لابن أبي طي ليست محفوظة في المكتبة الوطنية البروسية، وإنما في المكتبة الوطنية بباريس تحت رقم القسم العربي ١٥٨١[١٠٠]. ينظر بروكلمان، جII، ص ٤٦، وخانداني النوبختي، ص ٢٢١ وما بعدها.

الحسن بن سليمان بن محمد بن خالد الحلي

(توفي في نهاية القرن الثامن والتاسع الهجري)

كان من تلاميذ الشهيد الأول (قتل سنة ٧٨٦ هـ). وكتاب الحلي الذي يجب علينا ذكره هنا يدعى:

كتاب الرجاء[١٠١]

علي بن عبد الله بن عبد الحميد بن فخار بن مسعد الحسيني النجفي

(نهاية القرن الثامن الهجري)

ألف مجموعة من الكتب في عصر العالم الشهيد الأول القتيل سنة ٧٨٦هـ. ونذكر من كتب النجفي هنا:

كتاب الغيبة،

الأنوار المضيئة في الحكمة الشرعية المستنبطة من الآيات الإلهية في أحوال صاحب العصر والزمان عليه السلام.

---

(١٠٠) عن الذهبي ينظر تاريخ أدب اللغة العربية، ج٣، ص ١٨٩.

(١٠١) تذكرة المتبحرين، ص ٤٦٧، وهبة الدين، رسالة خاصة.

ويتألف الكتاب الأخير من ١٢ فصلا، كلها تقدم الدليل على أن الإمام الثاني عشر قد عاش فعلا، ويستدل المؤلف على ذلك بالكتب الشيعية والسنية على السواء. كتب عن والدي الإمام الثاني عشر، وعن تاريخ ولادته، وعن الزمن المفترض لحياته، وعن وكلائه وتوقيعاته، وذكر بعضا من الناس، الذين ادعوا أنهم رأوا الإمام الثاني عشر[١٠٢]. وقد اختصر الكتاب شخص يدعى أبا علي محمد بن همام تحت عنوان «مختصر الأنوار المضيئة في الحكم الشرعية»(١٠٣). وتوجد في موضع آخر من الكنتوري ملاحظة تدل على أن الحسيني قد ألف كتابا آخر تحت عنوان «السلطان المُفرِح عن أهل الإيمان»[١٠٤]، ولكن هذا الكتاب يذكر في «بحار الأنوار» تحت عنوان «السلطان المُفرِج عن أهل الإيمان» وينسب إلى على بن عبد الحميد النيلي[١٠٥].

علي بن الحسين بن عبد العالي العاملي الكَرَكِي المُحقق الثاني

(توفي سنة ٩٣٩ أو ٩٤٠ هـ)

كان من العلماء الذين نشروا العقيدة الشيعية في بلاد فارس، وكان له أثر كبير في الشاه طهماصب، الذى ينحدر من الأسرة الصفوية. وعن طريق هذا العالم تولى زملاؤه في المهنة قيادة الدولة. ونذكر من كتبه، التي طبعت منها أعداد كبيرة:

رسالة في الغيبة[١٠٦].

---

(١٠٢) الكنتوري، ص ٦٩، بحار ج١٣، ص ٢٥٢.
(١٠٣) الكنتوري، ص ٢٩٥.
(١٠٤) نفسه، ص ٣١١ رقم ١٦٦٢.
(١٠٥) بحار، ج ١٣، ٢٥٧.
(١٠٦) آثار الشيعة، ج ٤، ص ١١٩. ابتداء من صفحة ١١٦ توجد ترجمة جيدة لهذا العالم.

محمد باقر بن سيد شمس الدين الحسيني الداماد

(توفي سنة ١٠٤٠ هـ)

ألف كتابا بعنوان: رسالة في مناهج تسميات المهدي[١٠٨].

محمد بن الحسن الحر العاملي

(توفي في القرن الأول للهجرة)

ألف كتابا بعنوان: «إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات»، يصف فيه معجزات المهدي[١٠٩].

وللشهيد الثاني كتب أخرى هي:

رسالة الرجاء، ويتضمن ١٢ فصلا، تحتوي على ٦٠٠ حديث، و٦٤ آيةً من القرآن.

كشف التعمية في حكم التسمية.

منظومة في تاريخ النبي والأئمة.

وله شهرة في علم الحديث، وينتمي إلى مجموعة الأخبارية[١١٠]، ولنذكر له زيادة على ذلك كتاب: الإيقاظ من الهجعة بالبرهان على الرجعة[١١١].

محمود بن فتح الله الحسيني الكاظمي

يقال إنه كان معاصرا للحر العاملي وألف كتابا بعنوان: رسالة في الرجعة[١١٢].

---

(١٠٧) روضات الجنات ، ج١، ص ١١٤.

(١٠٨) بحار، ج١٣، ص ١٧٢.

(١٠٩) تذكرة المتبحرين، ص ٤٤٨، وروضات الجنات، ج٣، ص ٥٤٤.

(١١٠) هبة الدين، رسالة خاصة.

(١١١) الكنتوري، ص ٢٦٣، رقم ١٣٩٥.

(١١٢) نفسه، ص ٢٦٣، رقم ١٣٩٦.

محمود بن غلام علي الطَّبَسِي

قيلَ عنه أيضا إنه كان معاصرا للحر العاملي، وكان قاضيا في مدينة مشهد[113].

محمد بن الحسين بن عبد الصمد الحارثي البهائي

(ولد سنة ٩٥٣ وتوفي ١٠٣٠ أو١٠٣١ هـ)

وهو عالم شاعر، ينتسب إلى جبل عاملة، ألف مجموعة شعرية تحت عنوان «الفوز والأمان في المهدي صاحب الزمان». وقد كبرت هذه المجموعة بما أضافه إليها الكثير من الشعراء من أشعارهم الخاصة، منهم على سبيل المثال الشيخ جعفر الخطي، والأمير إبراهيم القزويني (توفي ١٣٤٥ هـ)، وشرح كثير من مؤرخي الأدب هذه الأشعار، مثل عبد الله بن نور الدين الغضائري، الذى أطلق على شرحه عنوان «وسيلة الفوز والأمان»، وقد طبع الشرح ملحقا بكتاب كشكول البهائي. وكتب الشيخ جعفر النقدي أيضا شرحا له بعنوان متن الرحمن (طبع أيضا)[114]. وقد اشتغل البهائي أيضا بعلم الرياضيات وعلم الفلك. أما في ميدان التوحيد والفقه، فكان يرى أن القاضي الشرعي، الذى يحكم بعدل، لا ينبغي له أن يتحمل مسؤولية الخطأ أمام الله وأن السنة ـ على العكس من المفهوم الشيعي ـ لا يخلدون في النار[115].

سيد علي خان الحُوَيزي

(توفي في نهاية القرن الحادي عشر الهجري)

كان أميرا وعالما، واعترف به الصفويون أميرا على منطقته، وألف كتبا عديدة، منها كتابه «خير المقال»، الذى كتبه سنه ١٠٨٩ هـ، وتحدث

---

(١١٣) هبة الدين، رسالة خاصة.

(١١٤) روضات الجنات، ج٣، ص ٥٣٢ وما بعدها، وتذكرة المتبحرين، ص ٤٥٠.

فيه عن النبي وعن الأئمة[115].

سيد نعمة الله الجزائري

(ولد سنة ١٠٥٠ هـ)

من كتبه العديدة بخط يده «كتاب المقالات»، الذى يوجد موجز منه في بحار الأنوار، ج١٣، ص٢٨٢، يتحدث فيه عن رحلة تاجر إلى جزيرة الإمام في الخليج الفارسي[116].

سيد محمد مؤمن الحسيني الاسترابادي

(توفي ١٠٦٩ أو ١٠٨٨ هـ)

سماه هبة الدين في رسالته حجي ميرزا محمد مؤمن وذكر سنة وفاته ١٠٨٨هـ، وعنوان كتاب الاسترابادي هو «رسالة في الرجاء»[117].

سيد حسين بن سليمان بن إسماعيل التنكاني (الكتكاني) البحراني

(توفي سنة ١١٠٧ هـ)

عوض التنكاني يدعى هذا العالم أحيانا الكتكاني[118]، وكتكان مكان في البحرين، وهو من رجال الحديث، لم ينازعه في مجده في عصره سوى المجلسي، وقد توفي التنكاني سنة ١١٠٧ هـ[119]. قال مؤلف «كتاب قصص العلماء» إنه توفي سنة ١١٠٩ هـ[120]. وهذا خطأ، لأن التنكاني خلف العالم الشهير ابن ماجد[121]، وكان هذا معاصرا

---

(١١٥) آثار الشيعة، ج٤، ص ٢٠١؛ والحويزة مكان بين واسط والبصرة وخوزستان (ينظر ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ٣٧١).

(١١٦) قصص العلماء، ص ٣٣٧.

(١١٧) الكنتوري، ص ٥٢٦، رقم ١٣٩٣، وهبة الدين، رسالة خاصة.

(١١٨) قصة العلماء ، ص ٢٢٥.

(١١٩) الكنتوري، ص ٤٩٣.

(١٢٠) قصص، ص ٢٢٥.

(١٢١) نفسه.

لمحمد بن الحسن بن علي، المعروف بابن الحر العاملي[١٢٢]. فابن الحر العاملي لم يولد إلا في سنة ١٠٣٣ هـ، لذلك لا بد أن يكون التنكاني قد عاش سنوات بعد ١٠٣٣هـ، وعندما نقرأ بأن سليمان بن عبد الله البحراني، تلميذ التنكاني وتوفي سنة ١١٢٠، كان قد تولى منصب أستاذه، فإننا نقتنع بأن التاريخ الصحيح هو ١١٠٧ هـ. لقد عاش البحراني ٥٠ سنة، فلا بد أن يكون قد ولد سنة ١٠٧٠ هـ[١٢٣]. إذن فدعوى «قصص العلماء» خاطئة. وكتابا التنكاني اللذان ينبغي لنا ذكرهما هنا، هما:

المحجة فيما نَزَل بالحجة،

كتاب مولد القائم.

محمد باقر بن محمد تقي الأصفهاني المجلسي

(توفي سنة ١١١٠ هـ)

كان يعيش في مدينة أصفهان، وكان له نفوذ كبير على الشاه الصفوي سلطان حسين. وقد اهتم المجلسي خاصة بالأحاديث، التي لم ترد في كتب الأحاديث الشيعية الأربعة واشتغل مترجما إلى الفارسية. كان قد سمع أن هناك وثنا في أصفهان، يعبده الهنود سرا، ومع أن الهنود كانوا يقدمون أموالا كثيرة من أجل السماح لهم بعبادة الأوثان، فقد نجح المجلسي في تحطيم ذلك الوثن[١٢٤]. ونذكر من كتب المجلسي الكثيرة ما يتصل منها بموضوعنا:

بحار الأنوار،

---

(١٢٢) قصص العلماء، ص ٢٢٤.

(١٢٣) قصص، ص ٢١٥.

(١٢٤) روضات الجنات، ج ١، ص ١١٨. في قصص العلماء، ص ١٦١ وما بعدها، يجد المرء الشي الكثير عن حياة المجلسي.

ويتضمن ٢٥ أو ٢٦ جزءا في ١٤ مجلدا. الجزء ١٣ يتناول المهدي والغيبة. وقد جمع الكتاب من مصادر مختلفة، كانت في متناول المؤلف، ينظر شتروتمان، مصادر الشيعة، ص ٢ أعلاه، حيث ذكر أيضا بروكلمان II ص٤١١ فقرة ٢ رقم ٦، وبراون ص ٤٠٩ و٤١٧. وقد صدرت المجلدات كلها في طبعة على الحجر في بلاد فارس.

علائم الظهور؛

في هذا الكتاب يحاول المجلسي أن يبرهن من خلال مقارنة حديثين أن حكم الصفويين هو علامة الغيبة(١٢٥). وقد ألف الكتاب بالفارسية وطبع على الحجر في الهند(١٢٦).

كتاب التوقيعات وترجماتها إلى الفارسية

والكتاب ترجمة لجميع التوقيعات، التي تنسب إلى الإمام الثاني عشر، إلى اللغة الفارسية. طبع في بومباي(١٢٧).

أبو الحسن الشريف العاملي

(معاصر المجلسي)

قيل إنه كان تلميذ المذكور سابقا وألف كتابا شاملا تحت عنوان «ضياء العالمين». وقد ذكر أن هذا الكتاب يحتوي زيادة على النثر، على ٦٠٠٠٠ بيت من الشعر، يتناول الجزء الأول الغيبة منه ويتحدث عن معاصري المؤلف، الذين رأوا الإمام الثاني عشر في الغيبة الكبرى أو ادعوا أنهم كانوا على صلة به(١٢٨).

---

(١٢٥) فهرست كتاب الخانجي رضوي، القسم الرابع، ص ١٩، رقم ١٠٦.

(١٢٦) نفسه.

(١٢٧) هبة الدين، رسالة خاصة.

(١٢٨) بحار، ج١٣، ص ٢٧٣ (أي جنة المأوى).

عبد الله بن نور الدين البحراني

(توفي سنة ١١١٤ هـ)

كتابه «العوالم» مقسم إلى أربعة مجلدات كبيرة، ومنهجه هو منهج المجلسي في كتابه «بحار الأنوار»، ولكنه استعمله بشكل أفضل. وقد طبع الكتاب في إيران، والجزء الأول منه يتحدث عن النبوة، والثاني عن الإمامة، والثالث عن الغيبة، والرابع عن علي بن أبي طالب[١٢٩].

مولى محمد رضا الإمامي

(توفي سنة ١١٣٧ هـ)

كتابه «جنة الخلود في الآثار المتعلقة بالأئمة»، يتناول الأئمة على شكل ألواح، وكان قد أهداه المؤلف إلى الشاه حسين الصفوي[١٣٠]. طبع في طهران سنة ١٨٤١ م[١٣١].

شيخ محمد بن أبي عزيز الخَطِّي البحراني

(توفي سنة ١٢٠٠ هـ)

كتابه يحمل عنوان «ذخيرة المحشر في أحوال الإمام المنتظر»[١٣٢].

علي أصغر بن علي أكبر البُروجَردي

(توفي في القرن الثالث عشر الهجري)

عنوان كتابه «نور الأنوار في آثار ظهور الحجة ورجعة الأئمة الأطهار»، وقد انتهى من تأليفه سنة ١٢٢٣ هـ[١٣٣].

---

(١٢٩) لغة العرب، ج ٧، ص ٢٢٣.

(١٣٠) كتاب الخانجي رضوي، ص ٢١٨.

(١٣١) أئمة الشيعة الاثنا عشر، ص ٣٧٥ .The Twelfe-Shi'a Imam, S

(١٣٢) هبة الدين، رسالة خاصة.

سيد دِلدار علي بن محمد الناصرآبادي

(توفي سنة ١٢٢٥ أو ١٢٣٥ هـ)

كتب هذا العالم كتبا يرد فيها على كتب السنة، التي تنكر وجود المهدي، وتتمثل هذه الردود فيما يلي:

«رسالة في غيبة صاحب العصر والزمان خليفة الرحمان،

و

رسالة الغيبة في الرد على التحفة الاثنا عشرية»[١٣٤].

شيخ أحمد الإحسائي

(توفي سنة ١٢٤١ أو ١٢٤٢ هـ)

أصله من جزيرة البحرين الصغيرة الواقعة في الخليج الفارسي، وعاش فترة طويلة في إيران والعراق. ويقال إن مبالغته في تمجيد الأسرة المقدسة قد حملت معظم علماء ذلك العهد على إصدار فتوى يتهمونه فيها بالزندقة، ويعرف أتباعه بالشيخية. بعد موته ترأس مذهبه الشيخ كاظم الرشتي (توفي ١٢٥٨ هـ). وبما أن أصل هذا الرجل، وهو تلميذ الإحسائي، من مدينة رَشت (في إيران) فقد اتخذ تلاميذه اسم الرُّشتِية. ولنذكر من كتب أستاذه: «رسالة في العصمة والرجعة»، وقد لاحظ هبة الدين أن مؤلف كتاب الشيخ هو مهدي بن أحمد، وكان من تلاميذ المؤلف[١٣٥].

---

(١٣٣) نفسه.

(١٣٤) أحسن الوديعة، ج١، ص ٨، والكنتوري، ص ٢٧٥ رقم ١٤٧٥.

(١٣٥) أبو الفضائل، كتاب مجموعة الرسائل، ص ٧٧ وما بعدها، هبة الدين، رسالة خاصة، الفريد كريمر، تاريخ أفكار الإسلام السائدة، ص ٢٠٦ Alfred von Kremer, Gesch.d.herrsch. Ideen des Islams, S. 209 ، الألوسي، مختصر التحفة، ص ١٧ وما بعدها.

سيد عبد الله شُبَّر

(توفي سنة ١٢٤٢ هـ)

تحدث هبة الدين عن عنواني كتابين من كتبه:

علامات الظهور وأحوال الإمام المستور

خطبة الملاحم الكبيرة[١٣٦].

شيخ درويش علي بن الحسين بن علي بن محمد البغدادي الحائري

(توفي سنة ١٢٧٧ هـ)

نذكر من مؤلفاته هنا:

الشهاب الثاقب في أحوال الإمام الغائب[١٣٧].

سيد أسد الله بن حجة الإسلام الإصفهاني

(توفي ١٢٩٠ هـ)

يحمل كتابه عنوان: كتاب الغيبة[١٣٨].

سيد محمد حسين بن ميرزا علي أصغر الطباطَبائي التبريزي

(توفي سنة ١٢٩٣ هـ)

عنوان الكتاب، الذى وصلنا منه هو: سر الغيبة اللاهوتية[١٣٩].

المفتي مير عباس اللَّكناهوري

(توفي ١٣٠٢ هـ)

كتابه يدعى: نسيم الصَّبا في قصة الجزيرة الخضراء[١٤٠].

---

(١٣٦) هبة الدين رسالة خاصة.

(١٣٧) نفسه.

(١٣٨) هبة الدين، رسالة خاصة.

(١٣٩) هبة الدين، رسالة خاصة.

(١٤٠) هبة الدين، رسالة خاصة.

نجف علي بن محمد رضا الزنوزي التبريزي

(كان معاصرا لناصر الدين شاه (١٢٤٧ـ ١٣١٣ هـ)

يتحدث التبريزي في كتابه «جواهر الأخبار» عن الأئمة، ومن بينهم الإمام الثاني عشر. وقد تم تأليف الكتاب سنة ١٢٨٠ هـ وطبع في تبريز[١٤١].

سيد محمد حسين الشهرستاني

(توفي ١٣١٥ هـ)

عنوان كتابه «الحجة البليغة في إثبات وجود إمام العصر»، طبع بالغة الفارسية[١٤٢].

سيد مصطفى بن إبراهيم بن سيد حيدر الكاظمي

(سنة ١٢٥٠ ـ ١٣١٨ هـ)

كتابه يحمل عنوان: «كتاب بشارات الإسلام في علامات المهدي عليه السلام». وقد طبع الكتاب، الذى يبلغ عدد صفحاته ٤٠٢ ، في بغداد بمطبعة الآداب سنة ١٣٢٢ هـ، وكذلك في سورية[١٤٣].

حاج ميرزا حسين النوري الطبرسي

(عاش من ١٢٥٤ـ ١٣٢٠ هـ في النجف)

هناك علماء شيعيون كبار، لا يزالون اليوم على قيد الحياة ، كانوا قد درسوا على المؤلف الشهير لكتاب «كتاب جنة المأوى في من فاز بلقاء الحجة ومعجزته في الغيبة الكبرى»، ومنهم هبة الدين الشهرستاني على سبيل المثال[١٤٤]. والكتاب المذكور مهم جدا، فهو يحدثنا عن آراء شيعة

---

(١٤١) كتاب خانة، قسم ٤ ، ص٣٠، رقم ٦٩.

(١٤٢) هبة الدين، رسالة خاصة.

(١٤٣) أحسن الوديعة، ج ١ ، ص٢٣ ، وهبة الدين، رسالة خاصة.

(١٤٤) أحسن الوديعة، ج١ ، ص ٨٩، وهبة الدين، رسالة خاصة.

اليوم في المهدي. وقد صدر ملحقا بالمجلد الثالث عشر من بحار الأنوار. ينظر، شتروتمان، مصادر الشيعة، ص ٢١، رقم ٥٣.

فضل الله بن مولى عباس

(توفي سنة ١٣٢٧هـ)

عنوان كتابه: الصحيفة المهدوية[١٤٥].

أغا أشرف الحسيني

(توفي القرن الرابع عشر الهجري)

نذكر هنا كتابه: «بشري ظهور» والأمر يتعلق بأشعار باللغة الفارسية[١٤٦].

محمد باقر بن محمد جعفر البحاري

(توفي سنة ١٣٣٢ أو ١٣٣٣ هـ)

يجب أن نذكر هنا ثلاثة مؤلفات:

مقارنات ظهور الحجة

الوجيزة في غيبة الحجة

ذيل كتاب النور في الإمام المستور[١٤٧]

سيد حسين بن نصر الله الموسوي

(توفي في القرن ١٤ الهجري)

عنوان كتابه: هداية الأنام فيمن رأى الحجة في المنام. طبع في طهران ١٣٣١ للهجرة[١٤٨].

---

(١٤٥) هبة الدين، رسالة خاصة.

(١٤٦) هبة الدين، رسالة خاصة.

(١٤٧) هبة الدين، رسالة خاصة.

(١٤٨) هبة الدين رسالة خاصة

سيد حسن صدر الدين

(توفي ١٩٣٣ ميلادي)

أصله من جبل عاملة، ولكنه عاش حياته بوصفه مجتهدا في كاظمين، وهو ضاحية من بغداد، واشتهر من مؤلفاته:

إثبات الحجة، وهو كتاب يتصل بموضوعنا، وكتاب الشيعة وفنون الإسلام، وهو معجم لتراجم علماء الشيعة مرتب حسب المواضيع[١٤٩]، صدر سنة ١٩١٣ م بصيدا، بسورية (لبنان اليوم).

العلماء المعاصرون ومؤلفاتهم حسب ما ذكره هبة الدين

سيد أولاد حيدر: الدر المقصود في أحوال الإمام الموعود. طبع باللغة الأردية.

سيد رضا الهندي: قصيدة الرد عليهم.

سيد على أكبر نهاوندي:

١) كتاب الغيبة

٢) الياقوت الأحمر فيمن رأى الإمام المنتظر.

محمد جواد البلاغي: قصيدة الرد على منكري الحجة.

محمد حِرز النجفي: كتاب الغيبة.

محمد حسين كاشف الغطاء: قصيدة الرد عليهم. طبع في النجف ملحقا بكتاب كشف الأستار.

محمد بن رجب علي طهراني: الصحيفة المهدوية.

هبة الدين شهرستاني: كتاب غيبة الإمام.

زيادة على جميع هؤلاء المؤلفين، الذين ذكرتهم من جهة بناء على أقوال هبة الدين وعلى ما ورد في هذا المصدر من غيره، ومن جهة أخرى

---

(١٤٩) هبة الدين، رسالة خاصة.

بناء على ما توصلت إليه بنفسي من المصادر مع مراعاة التاريخ الدقيق لتاريخ الميلاد أو الوفاة، فقد بقي مجموعة من الكتاب، لم أوفق في العثور على أي شيء يتصل بحياتهم زمنيا:

أحمد بن رميح

نشر:

ذكرى القائم من آل محمد.

إثبات الوصية لأمير المؤمنين(١٥٠)

حسن بن عبد الرزاق الكاشي

له رسالة في الرجعة(١٥١). وذكر هبة الدين كتابا بعنوان «البر المخزون في الرجعة»، يحمل اسم المؤلف المذكور، إلا أن هبة الدين يجعل لقبه اللاهِجي بدل الكاشي، ويضيف هبة الدين أن الكتاب قد وضع بالفارسية وأنه رآه في النجف(١٥٢).

حسن بن محمد ولي الرومي

ترجم الجزء ١٣ من بحار الأنوار إلى اللغة الفارسية(١٥٣).

حيدر علي بن المحقق الشُرْواني

ذكر له مؤلفا بعنوان: رسالة في ترجمة النواب الأربعة في الغيبة الصغرى(١٥٤).

داود بن إبراهيم

ذكر هبة الدين أن الفترة، التي عاش فيها هذا الكاتب، مجهولة

---

(١٥٠) هبة الدين، رسالة خاصة، منهج المقال، ص ٣٦.

(١٥١) الكنتوري، ص ٢٦٣، رقم ١٣٩٤.

(١٥٢) هبة الدين، رسالة خاصة.

(١٥٣) نفسه.

(١٥٤) نفسه.

ويكتفي بالقول بأنه رأى كتابا لإبراهيم بعنوان «نظم الفتن»[١٥٥].

سيد محمد سِبْطين سَرْسَوي

طبع كتابه «الصراط السوي في أحوال المهدي» باللغة الأردية في الهند[١٥٦].

شيخ الشريعة الإصفهاني

نذكر له كتاب: إثبات وجود الحجة[١٥٧].

عبد الغني الحر العاملي

كتابه: منتظم الدرر في مدح الإمام الغائب[١٥٨].

عبد الكريم النجفي

مقالة في غيبة صاحب الزمان، وهو كتاب في الرد على العالم السني محمود شكري الألوسي حول وجود المهدي[١٥٩].

مولانا علي

كتابه يحمل عنوان: كتاب الغيبة وكشف الحيرة[١٦٠].

سيد علي بن أبي القاسم القمي اللاهوري

طبع كتابه: المهدي الموعود، باللغة الأردية[١٦١].

---

(١٥٥) نفسه.
(١٥٦) هبة الدين، رسالة خاصة.
(١٥٧) هبة الدين، رسالة خاصة.
(١٥٨) نفسه.
(١٥٩) نفسه
(١٦٠) نفسه
(١٦١) نفسه

عيسى بن مهران المستعطف أبو موسى

هو مؤلف كتاب المهدي، عاش قبل النجاشي (توفي سنة ٤٥٠هـ)[١٦٢].

كاظم الهزارجريبي

كتابه يسمى: كتاب الغيبة، وهناك أيضا ترجمة من بحار الأنوار، ج ١٣ إلى الفارسية[١٦٣].

محمد باقر الرشتي

كان هذا الرجل تلميذا لشخص يدعى ميرزا أبو القاسم القمي وكتب «رسالة في وجوب إجراء الحدود للحكيم في زمان الغيبة»، وكان ذلك بعد أن سمع من أستاذه أنه يشك في شرعية أحكام قضاة الشيعة، لأن الإمام الثاني عشر كان قد اختفى[١٦٤]. وتوجد مخطوطة الكتاب في مكتبة محمد باقر البِرجَنْدي في إيران[١٦٥].

محمد رضا نجيب الدين التبريزي

له كتاب واحد فقط: البصر في أحوال الإمام المنتظر[١٦٦].

محمد شمس آبادي

له كتاب: الشمس الظلام في أحوال الحجة. طبع باللغة الأردية[١٦٧].

---

(١٦٢) منهج المقال، ص ٢٥٦، وهبة الدين، رسالة خاصة.
(١٦٣) هبة الدين، رسالة خاصة.
(١٦٤) لغة العرب، ج ٦، ص ٥١٧.
(١٦٥) نفسه.
(١٦٦) هبة الدين رسالة خاصة.
(١٦٧) نفسه.

محمد هادي المِيزلُوجِي الحسيني

له كتاب: الأربعون حديثا فيما يتعلق بالحجة[١٦٨].

محمد كاظم بن صافي

يتناول الجزء السابع من كتابه «معارف الأنوار» موضوع الغيبة[١٦٩].

معلي بن محمد البصري

عندما نفحص الكتاب، الذين تحدثوا عنه، نتأكد من أنه كان قد عاش قبل الغيبة الصغرى، وكتابه الذى نذكره هنا هو: سيرة القائم[١٧٠].

مهدي بن سيد علي البحراني النجفي

له كتابان:

كشف الحيرة في صاحب الطلعة المنيرة

كشف الستر عن صاحب الأمر[١٧١]

ميرزا محمد الرضا الواعظ الهمذاني

طبع كتابه كشف المحَجَّة في أحوال الحُجَّة مع كتاب الأنوار القدسية في طهران[١٧٢].

نصر بن علي الجهضمي

جاء في بحار الأنوار أنه كان سنيا وألف كتابا عن السفراء الأربعة

---

(١٦٨) نفسه.

(١٦٩) نفسه

(١٧٠) منهج المقال، ص ٢٨٩ و٣٣٩، وهبة الدين، رسالة خاصة

(١٧١) نفسه

(١٧٢) نفسه.

اعتمادا على مصادر سنية. ويقال أيضا إنه وضع كتابا بعنوان تاريخ الأئمة الإثني عشر[١٧٣].

كتب مجهولة المؤلفين[١٧٤]

المجهول الأول

الأربعون حديثا في المهدي أو كفاية المهتدي[١٧٥].

المجهول الثاني

إرشاد الجهلة المنكرين للغيبة والرجعة، وهذا الكتاب يعالج اختفاء ١٧ نبيا ورجعة المهدي في اليوم الذى يسبق بعث الموتى[١٧٦].

المجهول الثالث

رسالة في أحوال المهدي[١٧٧].

المجهول الرابع

رسالة في غيبة الحجة، والكتاب محفوظ في خزانة مسجد الإمام الرضا بمشهد[١٧٨].

المجهول الخامس

كشف المخفي في مناقب المهدي[١٧٩].

---

(١٧٣) هبة الدين، رسالة خاصة، بحار، ج ١٣، ص٢٧، ولغة العرب، ج ٦، ص ٥٩٣.

(١٧٤) لا يذكر هبة الدين اسم المؤلفين، ولم يكن من الممكن معرفة الأسماء من مصادر أخرى، ولذلك يذكر المؤلفون بصفتهم مجهولين إلى أن يتم العثور على أسمائهم.

(١٧٥) هبة الدين، رسالة خاصة.

(١٧٦) نفسه.

(١٧٧) لغة العرب، ج٦، ص ٥٩٣.

(١٧٨) هبة الدين، رسالة خاصة.

(١٧٩) بحار، ج ١٣، ص ٢٦.

المجهول السادس

نور الأنوار في علائم ظهور الغائب عن الأبصار[١٨٠].

الجهول السابع

هدية المهدية في أحواله عليه السلام، وقد طبع هذا الكتاب في إيران[١٨١].

---

(١٨٠) هبة الدين، رسالة خاصة.

(١٨١) نفسه.

الفصل الثاني

الخلفاء «الحقيقيون» للنبي

يعتبر علي بن أبي طالب عند الشيعة هو الخليفة الأول بعد النبي. وبعده يأتي ابنه الحسن. وبعد مقتل أخيه وخلفته الحسين (سنة ٦١ هـ حوالي ٦٨٠ م) لم يعد أعقاب الإمام الثالث، الذين يعترف بهم الشيعة الاثنا عشرية كأئمة، يقومون بالعمل السياسي، وإنما بايعوا الخليفة. كان الاثنا عشرية يؤكدون طبعا أن هذا يحدث ظاهريا فقط وأنهم لم يتنازلوا أبدا عن حقهم في الحكم. وقد نصح محمد الباقر، الإمام الخامس، أخاه زيدا أن يتخلى عن مشاريعه الانقلابية وأن يكون سلبيا في سلوكه[١]. وكان أتباع جعفر الصادق، الإمام السادس، يطالبونه بأخذ حقه بالقوة، ولكنه كان يرفض ذلك بصورة دائمة[٢]. وقد ابتعد جميع خلفاء جعفر الصادق عن الناس وعن السياسة واكتفوا بالانشغال بالعلم. ولم يصبح معروفا عند الرأي العام سوى الإمام الثامن، علي بن موسى الرضا، ولكن ذلك لم يكن بإرادة منه ، وإنما كان الخليفة المأمون هو الذى جعله خليفة له[٣].

لماذا لم ينجح علي وابناه في سياستهم، ولماذا اتخذ خلفاؤهم هذا الموقف السلبي؟ يبدو لي أن الإجابة عن هذا السؤال الصعب هي ما

(١) ضحى الإسلام، ج ٣، ص ٢٧٥؛ مقدمة بن خلدون، (باريس) ص٣٥٧.
(٢) ضحى الإسلام، ج٣، ص ٢٦١؛ مروج الذهب، ج ٢، ص١٦٦.
(٣) ابن الأثير ، ج ٦ ، ص١٢٠ ، الفخري، ص ٢٦٠.

صرح بي الأحنف عن الحسين، عندما طلب منه الحسين المشاركة في حربه: «لقد اختبرنا أهل أبي الحسن (بن علي)، فلم نجد فيهم لا موهبة الحكم ولا جباية المال ولا استعمال الحيلة في الحرب»[٤]. وكان الفرزدق قد قال للحسين بن علي عندما التقى به وسأله عن أهل الكوفة: «قلبهم معكم، وسيفهم ضدكم والنصر في السماء»[٥].

كان الإمام علي رجلا، صاحب مبادئ صارمة لا تتغير. وكان الورع واحتقار الملذات الدنيوية، اللذان سادا أيام النبي وخليفتيه، قد خفا أو اختفيا أيام الخليفة الثالث. فزاد عدد الناس، الذين كانوا يملكون ألفا من العبيد والبضائع وفائضا من العقار والأموال[٦]. كان ديوان علي يختلف عن ذلك كثيرا، فقد طلب منه ذات يوم عقيل، أخوه، مبلغا من المال لأداء ما عليه من دين، لكنه لم يستطع الحصول على شيء منه، لأن مدخول علي لم يكن يكفي لذلك ولم يكن من حقه أخذه شيئاً من بيت المال العام. وعندئذ اتجه عقيل إلى عدو أخيه، الذى لم يكن لديه ما هو أعز عليه من شراء الذمم والضمائر[٧]. وبلغ من تقوى علي أنه أراد أن يعدم ابن الخليفة الثاني، الذى أراد أن يأخذ ثأر قاتل أبيه، وهو فارسي ضعيف الإيمان، ومن زوجته وابنته[٨]. فكان على من يريد المال والجاه أن يتوجه إلى معاوية، ومن يبحث عن الجنة والتقوى أن يذهب إلى علي ليجدهما عنده.

نجد مثل هذه الحكايات وأمثالها في كتب التاريخ، وهي تبين لنا

---

(٤) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج١، ص٢١١.
(٥) العقد الفريد، ج١، ص ١٥٣.
(٦) ليس من الضروري ذكر جميع هذه المصادر، لأنها تتكرر كثيرا، وأذكر من بينها الشهرستاني (طبعة القاهرة)، ج١، ص ٢٤؛ المسعودي، مروج الذهب، ج٤، ٢٥٣ ـ ٥٥.
(٧) الأعلام، ج٢، ص ٦٤٧ والإصابة، ج٤، ص٢٥٥.
(٨) الإصابة، ج٥، ص ٧٧.

لماذا لم ينجح علي وابناه في أزمنة من هذا النوع.

عندما بايع الناس الحسن بعد مقتل أبيه، وجه إليه ابن عباس، الذى كان مستشارا لعلي وانسلخ عنه لاختلافه معه في سياسته الداخلية، نصيحة للحسن مكتوبة يدعوه فيها إلى شراء قلوب الناس المترددة، مادام ذلك لا يسيء إلى عقيدته وإلى إعطاء الأسر المعروفة ما هي أهل له من احتلال مناصب في الدولة حتى يتوصل إلى ما يريده من سلام مع جميع القبائل.

وكان للنزاع بين أفراد أسرة علي بن أبي طالب ذاتها دور في هذا الفشل. فقد حاول أعداؤهم بطريقة خبيثة نشر الفتنة بين الحسين وبين أخيه غير الشقيق ابن الحنفية، ولكن هذه المساعي الشريرة لم تكلل بالنجاح، لأن محمد بن الحنفية كان قد شعر بنيتهم السيئة، فسعى إلى إخبار أخيه غير الشقيق بما استشفه من مسا عي الأعداء[١٠].

لم يكن هناك على العكس من ذلك تفاهم بين عقب الحسن وعقب الحسين. كان هناك نزاع حتى بين أفراد الأسرتين، أسرة الحسن وأسرة الحسين، واختلاف في الرأي: فخرج بعضهم دون البعض الآخر على السلطة، فكان أن تم دحرهم بسهولة بطبيعة الحال[١١]. وكان زيد، أخو الإمام محمد الباقر، ضد ما ذهب إليه أخوه من أنه لا يحق له أن يعلن الحرب، لأنه يعرف قلوب الناس ودخائل نفوسهم. لذلك لم يعمل بنصيحة أخيه، فذهب ضحية الثورة، التي كان قد تحمس لها إلى حد كبير. لم يكن زيد متفقا مع أخيه لا في مسألة الإمامة، ولا في مسألة العلاقة بالمعتزلة، ولا حتى في الافتخار بعلم الأئمة بوصفهم خلفاء النبي، ذلك لأن زيدا كان قد استمد علمه من واصل بن عطاء[١٢].

---

(٩) العقد الفريد، ج ١، ص ٨.

(١٠) زهر الآداب (الطبعة المصرية سنة ١٣١٦ هـ)، ص ٦٦.

(١١) ابن الأثير، ج ٥، ص ٩١؛ منهج المقال، ص ٣٦٢ والكشي، ص ١٧٠ـ ١٧١.

(١٢) ضحى الإسلام، ج٣، ص ٢٧٥؛ الشهرستاني (الطبعة المصرية)، ج١، ص ٢٠٩؛ ابن خلدون، المقدمة(باريس ١٨٥٨)، ص ٣٥٧.

لم تترك الثورات العديدة، التي قام بها أعضاء هذه الأسرة، للخلفاء أن ينعموا بالراحة أبدا، حتى إنهم لجؤوا إلى جميع الوسائل لحماية أنفسهم منهم. ويروى أن بعض أعضاء الأسرة قد قبلوا الرشوة وارتضوا الخيانة[١٣]. ثم إن الأسرة كلها بدأت تخضع شيئا فشيئا لمراقبة الحكومة بحكم تشعب جهاز المخابرات وتنوعه لدى الخلفاء. وقد ظهر أشخاص من بغداد، كانوا يحملون معهم أموالا ورسائل مزيفة من الشيعة، واتصلوا بأعضاء من هذه الأسرة وحاولوا أن يقدموا لهم الأموال ليدفعوهم إلى تحرير جواب خطي. لكن هؤلاء الخونة الغواة لم يجدوا منفذا إلى جعفر الصادق، لأنه كان يعرف خططهم المدبرة، فتخلى عن السياسة تماما وتفرغ للعلم[١٤].

كانت السياسة المعادية لأسرة علي تتوقف على شخصية الخليفة، فإذا كان يتعاطف مع آل البيت، كانت لهم أوقات تكون فيها أمورهم على أحسن ما يرام. ولكن الخليفة، ليكون على ثقة من أمرهم، نقل مقامهم الرئيس من المدينة إلى بغداد، حيث تم إخضاعهم لرقابة صارمة. وكان على الأئمة الأخيرين أن ينتقلوا إلى مقامهم الجديد سامراء وأن يعيشوا فيها وكأنهم في سجن. كانت قد فرضت عليهم مراقبة شديدة، وكان الخلفاء يأمرون، بناء على نصائح يتقدم إليهم بها أصحاب الطموح وأعداء أسرة علي، بتفتيش بيت الإمام عدة مرات، ولكن ذلك كان بالنسبة إليهم بدون جدوى[١٥].

لقد أدت مثل هذه الأوضاع إلى انعزال الأئمة خوفا من أن تكون لهم علاقة مع الناس. وهكذا كان الإمام العاشر، الذى كانت حاشيته لا تزال بعد صغيرة جدا، وابنه الإمام الحادي عشر ، يتجنب كل اختلاط بعامة

---

(١٣) الكشي، ص ١٧٠ـ ١٧١؛ منهج المقال، ص ٣٦٢.
(١٤) مروج الذهب، ج ٢، ص ١٦٦؛ ضحى الإسلام، ٢٦١.
(١٥) المنتظم، ص ١٦٣.

الناس، حتى إنه يروى عنه أنه كان له ستار، يحجبه عن أتباعه حتى لا يتمكنوا من رؤيته. ولم يكن الناس يرون وجهه إلا عند ذهابه إلى الخليفة. وقد أراد المسعودي، الذى دأب على رواية مثل هذه الأمور، أن يربط تصرف هذا الإمام باختفاء الإمام الثاني عشر: لقد فعل الإمام الحادي عشر ذلك ليتعود الشيعة على اختفائهم وعدم رؤيتهم[١٦].

وقد أصبحت عزلة الأئمة الأخيرين بالنسبة إلينا سببا في غموض تواريخ محياهم ومماتهم، حتى إننا نعتمد في معظم الأحوال على الافتراضات المحضة، وما بقي من تاريخ الأئمة إنما هو بشكل رئيس حكايات عجيبة، ينبغي أخذها بحذر شديد.

لقد تركت سياسة الأئمة المشؤومة، وعدم قيام أية ثورة ضد الخلفاء، ومواقف الأئمة المسالمة، في نفوس الشيعة، خصوصا كبار السن منهم ـ تركت السؤال الملتهب عن نهاية الانتظار وإحقاق الحق، الذى لن يتخلى عنه الأئمة ـ تركته لا يعرف الجواب. ولم يتوقف الشيعة عن سؤال الإمام عن موعد التحرير، وعندما تكون هناك أثناء ذلك إشارة إلى المستقبل البعيد، يتساءلون عن الشخص الذى سيأخذ الحق والعظمة الموعودة، على أنهم يُعزُّون دائما بخليفة الإمام حتى تطمئن قلوبهم: الوقت والشخص بيد الله، وهما رهن إشارته، كان هذا دائما هو الجواب على الأسئلة الكثيرة، التي كان الشيعة ينهالون بها على أئمتهم. وقد رويت الأجوبة في كتب الأخبار المأثورة[١٧]. تتابع الأئمة بعدها الواحد بعد الآخر، ولما جاء زمن الإمام الحادي عشر، وحدثت أزمة كبيرة في صفوف الشيعة بسبب موت الإمام الأخير سنة ٢٦٠ هـ وعقبه: هل ترك الإمام الحادي عشر ولدا؟ وما هو مستقبل الشيعة من الآن فصاعدا؟ وتساءل الناس، إذا كان الإمام قد ترك ولدا، فلماذا لم نر هذا الولد وأين

---

(١٦) المسعودي، إثبات الوصية، ص ٢٥٦.

(١٧) تعليقات على منهج المقال، ص ٩.

هو؟ ولما صح أن الإمام لم يكن له عقب، فقد أخذ الناس يشكون في شرعية الإمام الحادي عشر ويحاولون أن يتخذوا أخاه جعفرا بمثابة الإمام الحق، فالإمام في رأيهم لا يموت دون أن يترك ولدا بوصفه خليفة له[١٨]. لقد أثارت هذه التأملات وجدان الشيعة وأدت إلى انقسام حركتهم، التي كانت قبل ذلك تعاني من الضعف، إلى أربع عشرة فرقة[١٩].

لم يكد الإمام الحادي عشر يبلغ الثلاثين، حتى قيل عنه إنه مريض مرضا قاتلا سيعجل بنهايته، وأن أخاه جعفر، وقد سمع بمرضه، قد استحق ميراث أخيه، الذى لم يكن بالشيء القليل في ظن كثير من الناس. لم يكن يتصور أن هناك وارثا من أهل الميت، ولكنه ما أن سمع من الشيعة أن أخاه قد ترك ولدا، حتى ذهب إلى الخليفة وطلب منه أن يتحرى هذا الأمر، وهو ما قام به الخليفة ليفرق بين الشيعة ويضعفهم في الوقت المناسب. لقد جلس مراقبو الخليفة، حسب ما جاء في هذه القصة، قرب سرير المريض ومكثوا عنده إلى أن وافاه أجله، فقاموا بتسجيل وصيته، وفتشوا حريمه بحثا عما قد يكون هناك من عقب له.

ويروي أن النزاع حول ميراث الإمام الحادي عشر قد استمر بعد وفاته. وقد ادعت أم الإمام أن الوصية بحوزتها، بينما اعترض جعفر على ذلك وقال إنه لا توجد للميت وصية أخيرة على الإطلاق. وعندما وصل النزاع إلى القاضي، حكم بأن يتقاسم جعفر الميراث مع الأم. كان تصرف جعفر قد أثار العداوة بين الشيعة، فأراد أن يتخلص من أعدائه باتهامهم لدى الخليفة بأنهم يدبرون له للإطاحة به والقضاء عليه[٢٠].

---

(١٨) فرق الشيعة، ص ٧٩ـ ٩٤؛ الشهرستاني، ص ١٢٩ ـ ١٣١؛ وخانداني النوبختي، ص ١٤٩.

(١٩) فرق الشيعة، س ٧٩ وخانداني النوبختي، س ١٤٨.

(٢٠) تاريخ الغيبة، ص ٣١.

ولم تستطع الطوائف الشيعية المنشقة البقاء والاستمرار، فانحلت مع توالي الأيام. كانت الفرقة الرئيسة تؤمن بوجود ابن للإمام، وبذلك أنقذت فكرة الإثني عشرية بالنسبة إلى العصور القادمة. كانت هناك، إلى جانب الشيعة الإثني عشرية، التي تتصل بموضوعنا، فرقة صغيرة في سورية، هي فرقة النصيرية. حقا إن أتباعها يؤمنون أيضا بالأئمة الإثني عشر، ومع ذلك فما من علاقة لهم بموضوعنا، لأن عقيدتهم تختلف عن الشيعة الإثني عشرية الحقيقيين، ولأنهم يجعلون لسفرائهم مراتب أخرى ويعرفون أشخاصا آخرين غير السفراء[٢١].

لقد عرف الوضع المتأزم ، الذى نشأ عقب موت الإمام الحادي عشر، الحل التالي عند الفرق الشيعية الرئيسة: كان للإمام ولد. وكان هناك شهود كثيرون على ذلك، رأوا الولد، وكان هذا الولد خليفة أبيه وبقي في وظيفته فترة من الزمن. ولكن عندما هددت تحريات الخليفة الحثيثة أمن الإمام الثاني عشر، أخفاه الله عن أعين الناس، ولذلك لم يكن يتصل بالناس إلا عن طريق وكيله بصفته القائم بوظيفته.

تقدم لنا أول وأقدم كتب الشيعة الإثني عشرية، التي عالجت هذا الموضوع، مثل: إكمال الدين، الغيبة للنعماني، والإرشاد للمفيد، والغيبة للطوسي، كمولد للإمام الثاني عشر سنة ٢٥٥ أو ٢٥٦ هـ. هناك مكان واحد فقط يرد فيه أن الإمام الحادي عشر قد كتب توقيعا لأحمد بن الحسن بن إسحاق القمي سنة ٢٥٤ هـ أنه قد ولد له ولد[٢٢].

واعترض الشيعة الآخرون، الذين يؤمنون أيضا بالأئمة الاثنا عشر، على هذا التاريخ، كما يحدثنا النوبختي (توفي بين سنتي ٣٠٠ و٣١٠ هـ) مؤلف كتاب «فرق الشيعة». فذكر عن بعضهم أن الإمام ولد ثمانية أشهر

---

(٢١) أنظر النصيرية فيما بعد.

(٢٢) بحار، ج ١٣، ص٣.

بعد موت والده[٢٣]. غير أن آخرين ذهبوا إلى أنه لا يمكن تحديد سنة الميلاد[٢٤].

يعتبر أبو الحسن بن حمدان الخصيبي، وهو باب النصيرية، تحديد السنة ٢٥٧ هـ لميلاد الإمام صحيحة[٢٥].

هذه هي الآراء القديمة حول سنة الميلاد، أما في الأزمنة المتأخرة، فقد كانت هناك تواريخ أكثر من هذه.

ولا يذكر الأشعري، الذى توفي سنة ٣٢٤ هـ، تاريخا لميلاد المهدي[٢٦]. ويذكر ابن حزم الظاهري (توفي سنة ٤٥٦ هـ) مجموعة من الافتراضات الشيعية[٢٧]. ويبدو أنه كان على معرفة بالآراء الشيعية المختلفة، ولكنه لم يستطع تقديم ما يؤكد ما ذهب إليه. وكذلك الأمر عند البغدادي (توفي سنة ٤٢٩ هـ)[٢٨] وعند بقية المؤرخين.

والاثنا عشرية أنفسهم، الذين أخذوا، كما ذكرنا، بتاريخ سنة ٢٥٥ أو ٢٥٦ هـ، لم يعودوا بعد قرون يتمسكون بهذا القول، فنحن نجد عند علي بن عيسى الإربيلي (توفي سنة ٦٩٢ هـ) سنة ٢٢٨ هـ بوصفها سنة ميلاد المهدي. ومنذ ذلك الحين ظهرت عند هؤلاء الإثني عشرية تواريخ مختلفة وخصوصا في كتبهم المتأخرة[٢٩]. وقد كتب غولدتسيهر، من غير أن يحيل على مصدره، أن الإمام الثاني عشر قد ولد في بغداد سنة ٨٧٢ م[٣٠]. على أنه يجب علينا أن نضع نصب أعيننا أن المصادر الشيعية

---

(٢٣) خنداني النوبختي، ص ١٥١؛ فرق الشيعة، ص .؛ الشهرستاني، ص.
(٢٤) خنداني النوبختي، ص ١٥٢.
(٢٥) بحار، ج١٣، ص ٦.
(٢٦) مقالات ، ص ١٧،
(٢٧) ابن حزم، الفصل، ج٤، ص ١٨١.
(٢٨) الفرق بين الفرق، ص ٤٧.
(٢٩) بحار، ج١٣، ص ٥، والوسيلة إلى تحصيل الأماني، مخطوطة، ص ٢٤.
(٣٠) محاضرات عن الإسلام، ص ٢١٦، وديانات الشرق، Die Relegionen des Orientes, S. 134.

والسنية على السواء لم تتحدث عن بغداد بوصفها مكانا للميلاد !

ويبدو أن الأخبار المتصلة بميلاد المهدي تريد أن تؤكد وجوده الواقعي، ولذلك فهي أقوال وشهادات ذات درجات متفاوتة من الصحة، تظهر لنا عقيدة الإثني عشرية. وبعض هذه الأخبار يتحدث عن حضور أصحابها عند الولادة[٣١]، وبعضها الآخر يتحدث عن القيام بدور القابلة[٣٢]، وعن رؤية الطفل مرة واحدة[٣٣] أو عن خبر عن الإمام الحادي عشر[٣٤]. لقد أخبرنا أحمد بن بلال بن داود الكاتب، الذى كان عدوا متطرفا للعائلة المقدسة والشيعة ووصفه أحدهم بالنفاق، أنه كان قد التقى بمفرده ، بعد غيبة طويلة عن بيته، الذى كان مقابلا لبيت الإمام في سامراء، بعجوز من معارفه القديمة، حدثته أن الإمام الحادي عشر قد دعاها إلى بيته، فشاهدت هناك ميلاد طفل، وعاشت معجزة اختفائه المفاجئ، حتى إن أحمد فضل أن يتخلى عن سخريته من هذه الأسرة المحبوبة عند الله[٣٥]. لكنه لا ينبغي لنا في هذا المقام أن نهمل، حيال هذه القصة، الطبيعة الساخرة المنافقة لأحمد السني هذا.

وقد وصلنا خبر حكيمة، بنت محمد بن علي بن موسى الرضا وخالة (عمة) الإمام الثاني عشر وأخت جد (جدة) الإمام الحادي عشر، في صيغ مختلفة وصور متباينة[٣٦]، حتى إن باب النصيرية، الحسين بن حمدان الخُصيبي، الذى يعتبره الاثنا عشرية زنديقا، يتحدث عنها[٣٧]. ومضمون الرواية هو ما يلي: كان الإمام الحادي عشر قد طلب من أخت

---

(٣١) الغيبة، ص ١٥٠ وما بعدها.
(٣٢) نفسه، ص ١٥٥.
(٣٣) نفسه، ص ١٥٨.
(٣٤) بحار، ج ١٣، ص ٣.
(٣٥) الغيبة، ص ١٥٥؛ بحار، ج ١٣، ص ٤.
(٣٦) الغيبة، ص ١٥٥؛ وابن حزم، ص ١٨١.
(٣٧) يرى دونالصن في «عقيدة الشيعة»، ٣٨٥ أن حكيمة أخت علي الرضا، وهذا غير صحيح تماما، فعلي الرضا جدها، كما يتضح من المواضيع المذكورة أعلاه.

جده(جدته) أن تحضر إلى بيته وأن تقضي ليلتها عنده، لأن هناك ولدا سيولد له هذه الليلة ويكون خليفة الله فوق الأرض، فاستغربت أخت الجد (الجدة) كيف يولد له طفل وليس له من بين نساء حريمه من هي حامل، فأجابها بأن نرجس، وهي عبدة عتيقة، ولدته منه. فذهبت أخت الجد (الجدة) إلى نرجس وفحصتها، وحين عادت إلى الإمام قالت له انها لم تلاحظ شيئا على نرجس. فضحك الإمام وبين لها أن ذلك لا يلاحظ على نرجس إلا في غسق الصبح. هذا الأمر الغريب هو نفس ما وقع لمريم، أم موسى، فقد كانت حاملا، ومع ذلك فما من أحد لاحظ عليها أنها تحمل طفلا حتى زمن الولادة. قال الإمام لقد جعله الله هكذا حتى لا يقتله فرعون في رحم أمه، وكذلك الأمر بالنسبة لابن الإمام. لقد صرخت نرجس عند الغسق فعلا، فذهبت حكيمة إليها. وأمر الإمام حكيمة أن تقرأ آيات من القرآن، وفي تلك اللحظة سمعت كيف يرد الطفل على تحيتها من رحم أمه نرجس ويقرأ الآيات نفسها. وحين فزعت حكيمة، ناداها الإمام، الذى كان قد لاحظ عليها ذلك، ألا تفزع، لأن الله يمنحنا الحكمة، عندما نكون أطفالا، ويمنحها الأرض مؤخرا عندما نكون كبارا. وعندئذ وقع قناع فوق عيني حكيمة، بحيث إنها لم تعد ترى أثرا لنرجس، فصرخت وأسرعت إلى الإمام الحادي عشر، فطمأنها وأمرها بالرجوع إلى المكان، الذى ترى منه نرجس مع الطفل. وعثرت على الاثنين فعلا، ولكن الضوء الذى غمر الطفل وأمه في تلك الآونة، بهرها إلى درجة أنه كان عليها أن تستدير إلى الخلف. كانت ركبتا الطفل فوق الأرض، وجبينه يلمس الأرض، وهو يذكر صيغ شهادة المسلمين، ويقرأ آيات من القرآن، ويذكر أسماء الأئمة واحدا فواحدا إلى أن وصل إلى ذكر اسمه. وبعد ذلك أمر الإمام الحادي عشر بإحضار الطفل، فأُحضِر والحمائم تطير حوله . وأمر حمامة أن تطير إلى السماء فطارت معها الحمائم كلها، وبدأت الأم تبكي، ولكن الإمام أوضح لها أنه لا ينبغي لها أن تحزن، فالطفل سيرضع من ثديها إلا أن عليه أن يتعلم ذلك

من السماء؛ فالحمامة إنما هي الملاك، الذى يعلم الأئمة. وبعد أربعين يوما عادت الحمائم، فرأت حكيمة الطفل من جديد، ولكنه كان كبيرا في حجم طفل في الثانية عشرة من عمره. وعندما اندهشت حكيمة لذلك، قال لها الإمام إن الأئمة يكبرون بسرعة أكثر من الناس العاديين. فالشهر في نمو الإمام يعادل سنة من عمر الإنسان العادي.

وواصلت حكيمة روايتها: كانت تجيء إلى الإمام كل أربعين يوما وترى الطفل إلى أن أصبح رجلا قبل موت الإمام بقليل. وكان الإمام قد أمرها أن تطيع ابنه المهدي، لأنه هو نفسه سيموت بعد حين. وبعد موته كان تراه في بيته مساء وصباحا وتأخذ منه أجوبة على أسئلة الشيعة دون أن تقدم له الأسئلة ، وكانت توجه الأجوبة إلى من يستقبلها[٣٨].

وهناك في المصدر نفسه رواية أخرى تتضمن المحتوى نفسه، والفرق الوحيد هو أن حكيمة تروي هنا أنها زارت الإمام في اليوم السابع بعد ولادة الطفل ولم تجد الطفل عنده. ولما سألت الإمام عن غيابه، أجابها أن الطفل في رعاية الله، كما وضعت أم موسى طفلها في رعاية الله[٣٩].

على أنه يرد بعد ذلك مباشرة ما يلي: زارت حكيمة الإمام في اليوم السابع لرؤية الطفل، وسمعته يقرأ آيات من القرآن. وهذا التناقض موجود عند ابن بابويه؛ وإكمال الدين مثلما هو موجود في الغيبة للطوسي[٤٠].

هناك صيغ مختلفة لقصة حكيمة عن ميلاد الإمام الثاني عشر نجدها عند الطوسي. جاء في موضع منه أن حكيمة زارت الإمام في اليوم الثالث، فافتقدت الطفل، ولكنها لم تجرؤ على السؤال عنه. فأوضح لها الإمام بنفسه أن الطفل مثل موسى في رعاية الله؛ ولا ينبغي لحكيمة أن

(٣٨) إكمال الدين، ج ٢، ص ٢٣٩.
(٣٩) الغيبة، ص ١٥٣
(٤٠) الغيبة، ص ١٥٣.

تحدث أحدا عن ذلك، لكن عليها أن تخبر المؤمنين فيما بعد أن الإمام كان له ولد وأنه الآن مخفي إلى أن يعطيه الله براق الملك جبرائيل، ليجيء إلى الأرض[٤١]. وتوجد في مكان آخر الصيغة المتناقضة المذكورة أعلاه كما وردت في إكمال الدين[٤٢]. وجاء في موضع آخر أن حكيمة زارت الإمام في اليوم الثالث، ورأت الطفل في المهد؛ ويحيي الإمام الطفل تحية وداع، ويطلب من حكيمة أن تلزم الصمت عن ذكر الطفل تماما[٤٣]. وفي موضع جديد نجد ما يناقض ما ورد في إكمال الدين كامل التناقض. فهذا المصدر يروي أن حكيمة زارت الإمام في اليوم الأربعين بعد ولادة الطفل ورأته، ولكن الطفل في زيارتها الثانية لم يعد له وجود عند الإمام، ومنذ ذلك الحين لم تره أبدا[٣٥].

ونجد عند الطوسي كثيرا من هذه التناقضات، التي ليس من السهل أو لا يمكن حلها على الإطلاق. لقد ورد في الطوسي أن الإمام كتب عند ميلاد ابنه إلى شخص ما وطلب منه أن يشتري خروفا ويذبحه لأسرته كما جرت العادة بذلك. وبعد ذلك بقليل رأى الإمام الرجل وقال له إن ابنه قد مات، لكن الطوسي يروي في الوقت نفسه أن الإمام أرسل إلى الرجل خروفين وطلب منه أن يذبحهما من أجل الولد الذى ولد له[٤٥].

تعتبر الشهادات المذكورة آنفا عن ولادة الإمام الثاني عشر من أقواها، لأنها تعود إلى شاهد عيان، هي حكيمة. أما الأخبار الأخرى فمصدرها سفراء وخدم الإمام الحادي عشر، الذين رأوا الطفل مرة أو تحدثوا معه، وليس لها ما للأولى من أهمية[٤٦].

---

(٤١) نفسه، ص ١٥٢.
(٤٢) نفسه، ١٥٣.
(٤٣) نفسه، ص ١٥٣ و١٥٤.
(٤٤) الغيبة، ص ١٥٤.
(٤٥) نفسه، ص ١٥٨.
(٤٦) نفسه، ص ١٤٨ـ ١٦٨، وإكمال الدين، ص ٢٣٦ ـ ٢٤٠، وبحار، ص ١ ـ ٧.

وهناك أساطير غريبة تحاك حول أم الإمام. فاسمها مليكة وهي بنت يوشوعا، ابن القيصر الروماني (اليوناني)، وتنحدر أمها من الحواري شمعون. لقد أراد القيصر أن يزوج مليكة من ابن أخيه (أخته)، ولذلك دعا كل أعقاب الحواريين، والرهبان، والقساوسة، والعسكريين ـ أكثر من ٥٠٠٠ شخص ـ لخطبة حفيدته. وقد رفعت الصلبان وأعلام الفرح وعلاماته في كل مكان، وفتح الإنجيل الكبير وتمت قراءة نصوص منه. ولكن ما أن اقترب العريس من عرش الملك، حتى وقعت جميع الصلبان ووقع حفيد الملك على الأرض مغمى عليه. فاعتبر الناس المؤمنون بالأوهام هذا الذى وقع علامة شر. وفي اليوم الموالي أمر الملك بتزويج حفيدته من أخي ابن أخيه (أخته)، فوقع ما وقع في اليوم السابق. فاشتد الحزن على لملك، وبقيت حفيدته بدون زواج. وفي الليلة نفسها رأت ملكة المسيح مع شمعون وحواريين آخرين في بلاط جدها الملك. فأقاموا منبرا عاليا كالسماء، وذلك في المكان، الذى كان فيه عرش القيصر عند الخطبة. ثم جاء محمد النبي مع أعقابه، وتبادلا محمد وعيسى التحية بحرارة، وخطبوا الفتاة للإمام الحادي عشر، وكان النبي محمد ممثلا للإمام الحادي عشر، والمسيح وشمعون ممثلين لمليكة. فابتهجت مليكة لذلك، ولكنها لم تجرؤ على رواية ما حلمت به للملك. واحترق قلبها شوقا إلى خطيبها، فأخذت فاطمة بنت النبي تزورها في أحلامها إلى أن أصبحت مليكة في أعماقها مسلمة. وفي النهاية قال لها الإمام، الذى كان يأتي إليها في الحلم كل ليلة، أنها ستتحرر ذات يوم من جدها. كان القيصر قد خرج لمحاربة المسلمين، وعندما انتصر المسلمون على اليونان، أخذوا معهم مليكة جارية وباعوها في بغداد. وكان للإمام صديق يدعى بشر بن سليمان النخاس، كان نخاسا معروفا، فأرسل الإمام هذا الرجل برسالة مكتوبة باليونانية، كتبها بنفسه، إلى بغداد، وقدم فيها للصديق وصفا دقيقا للجارية وللمكان، الذى يجد فيه الجارية البائع، فنفذ بشر الأمر وتأكد من صحة كل ما قاله له الإمام. كانت الجارية قد رفضت

أن تباع إلى أن جاء الزبون الحقيقي، وهو بشر، ففرحت بذلك وذهبت معه في الحين. وأراها بعد ذلك الرسالة، فزادها فرحا على فرح. واستغرب الرجل أمرها، عندما رآها تُقبِّل الرسالة، مع أنها لم تكن تعرف مرسلها إطلاقا. فما كان منها إلى وصفته بأنه أحمق، ثم قالت له إنها تعرف الإمام منذ مدة طويلة. وذهبت في الحال إلى سامراء، وأنجبت للإمام له ولدا، هو الإمام الثاني عشر[٤٧].

على أنه جاء في روايات حكيمة أن الإمام الحادي عشر زار حكيمة ورأى عندها الجارية نرجس. ولما كانت قد أعجبته، فقد أهدته حكيمة إياها، ومنها جاءه المهدي[٤٨]. ليس من المستحيل أن تكون هذه الجارية يونانية فعلا، وأن هذا الوضع هو أساس الحكايات العجيبة عن الإمام الحادي عشر وأسطورة النسب العريق لأم المهدي، التي تظهر أن عظمة الأخير مستمدة من الحواريين.

وتذكر عدة أسماء مختلفة لأم الإمام الثاني عشر، وهي نرجس، ريحانة، سوزان (ربما سوزانه) وسيقال (إن الضوء كان يشبه عند ولادة الإمام لمعان النسيف[٤٩]. ويرى ابن حزم أن كل اسم من هذه الأسماء يصف امرأة معينة ولم يعرف الشيعة، أي منهن كانت الأم الحقيقية[٥٠]. وهذا خطأ من جانبه، إذ يغلب على الظن أن هذه الأسماء كلها تطلق على الشخص نفسه[٥١].

---

(٤٧) بحار، ص ٥

(٤٨) نفسه

(٤٩) إكمال الدين، ص ٢٤١.

(٥٠) ابن حزم، ج٤، ص ١٨١.

(٥١) بحار، ج ١٣، ص ٦.

الفصل الثالث

الغيبة والرجعة

عندما بلغ المهدي السنة الخامسة من عمره، مات والده، وخلع الله الإمامة على الفتى رغم شبابه، مثل يسوع، الذى تميز وهو في المهد بالحكمة الكثيرة، ألتي ملكها النبي يحيى في السنوات المبكرة من حياته[١]. غير أن الخليفة قام بتحريات دقيقة عن الطفل، لأنه كان يعرف أن رجلا سيولد في هذا الوقت، يحل السلام فوق الأرض بالسيف. وبذل الخليفة قصارى جهده في القبض على الصبي حتى لا يتولى منصبه فإذا لم يأخذ الإمام الجديد منصبه، فإن عليه أن يبقى متخفيا عن الأنظار، وإلا فإن الإمامة تصبح عديمة الأثر[٢]. كان أبوه وأجداده قد اختفوا تحت معطف التقية، لأن الله أمرهم أن يتخلوا عن السيف. ولما لم يكن له عقب، فإن منصب الإمامة كان ينبغي أن يختفي معه إلى أن يأتي الوقت، الذى يستطيع فيه ممارسة وظيفته دون خوف من المطاردة[٣].

وليست هذه هي الحالة الأولى لغيبة الإم ام، فأبو الإمام الثاني العشر لم يمت في رأي بعض الشيعة، فهو لا يزال حيا وسيأتي بصفته الهادي الذى يرجع إلى الأرض، وقد زعم بعضهم شيئا من هذا القبيل بالنسبة إلى

(١) الأصول المهمة في معرفة الأئمة، ص ١٩٦.

(٢) الغيبة، ص ٦٦ـ٦٧، والشافي، ص ٤٦٧.

(٣) الغيبة، ص ٦٩.

جده[٤]. ويعتقد المحمدية أن أخا الإمام الثاني، الذى مات في حياة أبيه، هو المهدي الحقيقي وأنه لا يزال حيا[٥]. ويرى الواقفة أن موسى بن جعفر هو المهدي[٦]، بينما هو عند الناووسية جعفر بن محمد [٧]، وعند الكيسانية محمد بن الحنفية، وتزعم الكيسانية أنه يعيش في جبل رضوى[٨].

وبعض الشيعة يرون أنه الحسين بن علي بن أبي طالب، الذى سقط في كربلاء شهيدا من أجل عقيدته، فهو لم يقتل على الإطلاق، وإنما قتلوا شبيها له يدعى حنظلة بن أسعد الشيباني، فقد وقع للحسين ما وقع ليسوع، الذى قال عنه اليهود إنهم صلبوه، في حين أنهم قتلوا في الحقيقة شبيها له[٩]. ويرى السبئية أن علي بن أبي طالب هو المهدي، الذى يعيش في السحب، والرعد كلامه، والبرق ضربة سوطه[١٠].

لكن غيبة المهدي الثاني عشر تختلف عن الحالات المذكورة. لقد كان المهدي الثاني عشر متخفيا أيضا، على أنه لم يكن يقطع صلته بطائفته، وهذا فضلا عن أن غيبته تفرعت إلى فرعين، الغيبة الصغرى والغيبة الكبرى. ففي الصغرى يستعمل المهدي وسطاء معينين بينه وبين طائفته، يعينهم في هذا المنصب. ولا يعرف محل إقامته سوى هؤلاء النواب، ويحملون منه إلى الشيعة كل الأجوبة والأوامر والمراسيم الدينية وكل ما تحتاج إليه «دولة سرية» لتسيير شؤونها[١١]. أما في وقت الغيبة

---

(٤) فرق الشيعة، ص ٧٩.
(٥) الغيبة، ص ١٢٩.
(٦) نفسه، ص ٢١
(٧) نفسه، س ٢٠.
(٨) نفسه، ص ..
(٩) قصيدة الحاصبي، ص ٣٥.
(١٠) الشهرستاني، ج٢، ص ١٣٢ و١٣٣ والعقائد الأخرى.
(١١) الغيبة، ص ٨٢.

الكبرى، فلم يعد هناك نواب، لأن المهدي يظهر بنفسه بين الحين والآخر. فإذا ما توسل إليه شخص عند الشدة، فإنه يأخذ بيده في الحين. وحتى عندما يدعوه الرجل والسكين على رقبته، فإنه ينقذه من الخطر الذى هو فيه. وقد رآه كثير من الشيعة وتلقوا مساعدة منه(١٢). وقد سمع العلامة الحلي أن سنيا كتب كتابا هاجم فيه الشيعة، ولكنه لم يعره أحدا حتى لا يكتب عنه ما ينقضه ويرد على ما جاء فيه. فذهب العلامة الحلي إلى العالم بوصفه تلميذا، وقرأ عليه بجد واجتهاد، مخفيا عنه عقيدته الشيعية، مدعيا أنه من أهل السنة. فوثق به العالم في النهاية، وأعاره الكتاب بعد إلحاحه عليه ليلة واحدة. وبما أن الكتاب كان كبير الحجم، فقد خشي العلامة ألا يتمكن من كتابة رده عليه في ليلة واحدة. لكن رجلا ظهر له على حين غرة، وطلب منه أن يؤدي فريضة الصلاة وأن يأوي إلى فراشه لينام، ففعل ما أمر به. وقام في صبيحة اليوم الموالي مهموما، فوجد الكتاب مكتوبا بصفة كاملة وبخط جميل وموقعا عليه باسم الإمام الثاني عشر(١٣)، وهكذا استطاع العلامة الحلي تأليف رده(١٤). من صلى ٤٠ ليلة قبل الجمعة أو ٤٠ ليلة قبل الأربعاء بمسجد السهلة أو مسجد الكوفة، فإنه سيرى المهدي، إلا أنه يجب على المصلي أن يحافظ على نفسه طاهرة على الدوام، وكثيرا ما يراه المصلون، غير أنهم لا يتعرفون عليه في الحين، وإنما يدركون ذلك فيما بعد(١٥). وقد تتبع كثير من العلماء والأتقياء من الناس الإرشادات المتصلة بالصلاة ورأوا المهدي في صور عديدة وفي مناسبات مختلفة. ولم يؤلف كتاب جنة المأوى وكذلك كتب كثيرة متأخرة إلا من أجل إظهار مثل هذه الأمثلة.

---

(١٢) جنة المأوى، ص ٢٨٧ـ٢٨٩.
(١٣) قصص العلماء، ص ٢٧٥.
(١٤) قصص العلماء، ص ٧٦.
(١٥) جنة المأوى ٢٨٧.

لقد اختفى الإمام إذن، والكتب القديمة، التي ظهرت في زمن الغيبة الصغرى، وكتاب الطوسي بعد ذلك لا تحدد لنا زمان الاختفاء ولا مكانه، وليس لدى أهل السنة أيضا تفاصيل عن ذلك(١٦). لكننا نقرأ فيما بعد في كتب أهل السنة أن الشيعة كانوا يعتقدون أن الإمام الثاني عشر قد اختفى في سرداب سنة ٢٦٦ أو ٢٦٥ هـ(١٧). وتورد الكتب الشيعية المتأخرة الشيء نفسه وتتحدث عن الصلوات والعادات، التي يؤديها الشيعة في السرداب في ذكرى اختفاء الإمام، ويحاولون أن يبرهنوا من خلال ذلك على أنه اختفى فيه(١٨). ولم يتحدث كتاب من كتب الشيعة في زمن الغيبة الصغرى أو الطوسي عن الاختفاء في ذلك السرداب. فمن أين إذن جاء إلى الشيعة هذا التقليد؟ يجيب مؤلف كتاب «كشف الأستار» عن هذا السؤال بوضوح تام: يقدس الشيعة هذا السرداب، لأنه الجزء الوحيد الذى بقي من مسكن الإمام. وقد أساء السنيون تقديس الشيعة، عندما ظنوا أن الشيعة يقصدون اختفاء الإمام هنا في هذا السرداب، ومع مرور الزمن انتقل سوء الفهم إلى رواية الشيعة أنفسهم(١٩). هناك إمكانيتان متقابلتان في هذا المسألة: إما أن فكرة اختفاء الإمام في السرداب انتقلت إل عقيدة الشيعة من طريق سوء فهم أهل السنة لهذا الأمر، أو أن الشيعة كانت لهم هذه الفكرة من قبل، دون أن يتطرق إليها كاتب شيعي في ذلك الحين. ويبدو أنه من المناسب وضع قائمة زمنية لكتب السنة والشيعة، التي تتضمن هذه الفكرة:

---

(١٦) الأشعري، ص ١٧، وابن حزم، ١٨١، ومؤلفين آخرين.

(١٧) ابن خلكان، ج٢، ص ٥٧١، وابن خلدون المقدمة، ص ٣٥٩، ويذكر بن خلدون أن ذلك السرداب في الحلة.

(١٨) لبيب السير، ج٢، ص ٣٧، وجنة الخلود، الجدول ١٩، ثم تاريخ العلويين، ص ١٧١.

(١٩) هبة الدين، رسالة خاصة.

ابن الجوزي، توفي سنة ٥٩٦ هـ[٢٠].

ياقوت الحموي، توفي سنة ٦٢٦ هـ[٢١].

ابن الأثير، توفي سنة ٦٣٠ هـ[٢٢].

أبو عبد الله بن يوسف الكنجي، توفي سنة ٦٥٨ هـ[٢٣].

ابن طاووس، توفي سنة ٦٧٣، شيعي[٢٤].

ابن خلكان، توفي سنة ٦٨١ هـ[٢٥].

علي بن عيسى الإربيلي، توفي سنة ٦٩٢، شيعي[٢٦].

ابن بطوطة، توفي سنة ٧٧٩ هـ[٢٧].

ابن خلدون، توفي سنة ٨٠٨ هـ[٢٨].

نور الدين الطبرسي، توفي سنة ٨٥٥ هـ، شيعي[٢٩].

يمكننا أن نستنتج من هذا الجدول، إن كان كاملا وصحيحا، أن السنة هم أول من عبر عن هذه الفكرة وأن معظمهم قد تحدث عنها.

لا تتحدث جميع الكتب، حتى عصر الشهرستاني، عن المهدي المنتظر في سامراء ولا تذكر السرداب (في الحلة). والشهرستاني نفسه، الذى توفي سنة ٥٤٨ هـ، لا يعرف شيئا عن سرداب، وإنما يعرف فقط واقعة الاختفاء[٣٠].

---

(٢٠) المنتظم (مخطوط)، ص ١٦٩، تاريخ سنة ٢٦٥ هـ.
(٢١) معجم البلدان، ج٣، ص ١٩ و٢٢.
(٢٢) ابن الأثير، ج ٧، ص٩٧.
(٢٣) بحار، ج١٣، ص ٢٤، وكتابه البيان في أخبار صاحب الزمان، ص ٣٤٥.
(٢٤) بحار، ج ١٣، ص ٨١/٢٨٠.
(٢٥) نفسه، ج٢، ص ٥٧١
(٢٦) بحار ج١٣، ص ٢٤.
(٢٧) رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص ١٣٢ وانظر ص ٩٦ وما بعدها.
(٢٨) مقدمة ابن خلدون، ص ٣٥٩.
(٢٩) الأصول المهمة، ص ١٩٨.
(٣٠) الشهرستاني، ج . ، ص ١٢٨.

يروى لنا الإربيلي في كتابه «كشف الغمة» عددا كبيرا من الحكايات ترينا الدور الكبير، الذى لعبه السرداب في ذلك الحين. كان المرضى، واليائسون، والمطاردون والمضطربون داخليا في وقت كثرت فيه الاضطرابات السياسية وترعرعت فيه الأوهام، يجدون ملاذهم الأخير في سرداب الإمام، يعملون هنالك على التخلص من همومهم عن طريق الصلوات أو الرسائل إلى الإمام علهم يجدون فيه العزاء. عندما تكون التقية في قلوبهم، يفقد فن الطب اعتباره إلى جانب قوة السرداب العجيبة. وكانت الأخبار عن كرامات الإمام تنتقل من فم إلى فم ومن كتاب إلى كتاب حتى تصل الخليفة نفسه[٣١]. لكن تقديس الإمام في سرداب سامراء وبعض الأماكن الأخرى لا يعني بالتأكيد ، كما يذكر «كشف الغمة» وكتب أخرى، أن الناس يحصرون قوة الإمام في هذه «المزارات»، ذلك أن الشيعة يعتقدون أن جميع البلدان والبحار خاضعة له وأن جَلاله يمكن أن يظهر في كل مكان[٣٢].

والإربيلي لا يذكر أن الإمام اختفى في سرداب وأقام فيه. حقا إنه يأخذ «شهادة» من كتاب «كفاية الطالب في مناقب علي بن أبي طالب» للكنجي السني، ولكن هذه الشهادة لا تعبر عن رأي الناقل، وإنما تعبر عن رأي الكنجي، الذى حاول، لسبب غير معروف، أن يقنع إخوانه في الدين أن غيبة الإمام وحياته في السرداب ليس أمرا عجيبا ولا مستحيلا، مادام الناس يعتقدون نفس المصير بالنسبة إلى بعض الأنبياء مثل يسوع[٣٣].

ونجد مفتاح فكرة السرداب عند ابن الراوندي المتوفى سنة ٥٧٣ هـ. فالمؤلف يحدثنا عن قصة اختفاء الإمام في السرداب على الشكل

(٣١) بحار، ج١٣، ص ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٣، ١٢٤و ١١٨.
(٣٢) هذه الفكرة موجودة في كل كتاب من كتب الغيبة.
(٣٣) بحار، ص ٢١ وما بعدها وص ٢٤.

التالي: أرسل الخليفة المعتضد (٢٧٩ ـ ٨٩٢/٢٨٩ ـ ٩٠٢ في منصب الخليفة) عند سماعه بإقامة الإمام في سرداب بسامراء فرقة من الحرس وأمرهم باعتقال الإمام. فوجدوه في السرداب يقرأ القرآن. وعندما انتهى الإمام من ذلك، خرج بجلاله أمام أنظار الحرس، من غير أن يراه قائد الحرس أو يتكلم معه(٣٤). إذن فالشيعة يقولون إن الإمام اختفى من السرداب ولم يقولوا إنه اختفى في السرداب وأقام فيه على ما يذهب إليه أهل السنة.

ونأتي الآن إلى المسألة الثانية، وهي اختفاء الإمام في مدينة الحلة وانتظاره هناك. لقد اختبرنا هذه المسالة في بداية كتابنا وقدمنا الدليل على استحالتها. يروي لنا ابن بطوطة في وصفه لرحلته عبر العراق أنه جاء إلى الحلة وشاهد كيف يأتي بعد صلاة العصر مائة رجل إلى حاكم المدينة، ويأخذون فرسا مسرجا ملجما أو بغلة، يتقدمها ٥٠ رجلا ويتبعها ٥٠ رجلا، وهم يضربون الطبول وينفخون البوقات ويذهبون إلى المسجد الكبير، وينادون الإمام من أمام باب مغطى بستار من الحرير. وبعد مغيب الشمس يعود الموكب وينصرف الناس عائدين إلى بيوتهم(٣٥). ويعرف المسجد المذكور باسم مشهد صاحب الزمان أو مقام صاحب الزمان(٣٦).

---

(٣٤) بحار، ج ١٣، ص ١١٨.

(٣٥) كتب كلود هوارت Cl. Huart ، تاريخ العرب، Geschichte der Araber، ج٢، ص ٣٢٠ يقول: «عندما مات الإمام الحادي عشر... ترك ولدا في السادسة من عمره، يدعى محمدا، كان الخليفة قد حبسه في الحلة، حيث مات في الثانية عشرة من عمره، ولعله مات مسموما. ولم يصدق الشيعة موته، وهم يدعون حتى اليوم أنه اختفى في غار، سيخرج منه عندما يحين حينه ...» وهذا العرض لا يحتاج إلى تعليق، لأني أولا ناقشت هذه المسألة، ثم إن هوارت لا يذكر مصدره!

(٣٦) رحلة ابن بطوطة Voyages d'Ibn Btoutah, par G.Deferemery et le Dr.B.R.Sanguinetti, Paris MDCCCLXXVII, Société Asiatique. ويذكر ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص ١٥، قصصا مشابهة عن انتظار الإمام في

وقد وردت في «بحار الأنوار» حكايات عجيبة عن هذا المقام مع ذكر التواريخ، فهناك قصة مثلا تعود إلى سنة ٧٤٤ هـ، تتحدث عن شفاء أعمى من عماه في المسجد عن طريق الإمام[٣٧]، أو سنة ٧٥٩ هـ، التي توصل فيها كسيح إلى استعمال رجليه ثانية[٣٨] وغير ذلك. ويتضح من هذه القصص أن الشيعة في الحلة ينتظرون الإمام، ولكن ذلك لا يعني أنه اختفى فيها.

هناك قصص أخرى تحدثنا عن كثير من علماء الحلة، الذين ادعوا أنهم رأوا الإمام متنكرا. ومعظم هذه القصص العجيبة يعود إلى عهد المغول، الذى لم تتعرض فيه الحلة لنهب الدخلاء، فتطورت لتصبح المقام الرئيس للشيعة. ويبدو أنه لم يكن من المستحيل أن يربط الناس نجاة المدينة بكرامات المهدي وأن يكون الرأي القائل باختفاء الإمام في الحلة وانتظاره فيها قد نشأ بهذه الطريقة. وتعود هذه القصص العجيبة عن مَقام أو مشهد صاحب الزمان في معظمها، بناء على ما توصلت إليه في بحوثي، إلى رجل يدعى شمس الدين محمد بن قارون، وهو «متصوف وعالم» كما تسميه القصص[٤٠].

ويذكر لنا مقام آخر كان للمهدي حضور فيه، فقد تحدث رجل يدعى شيخ جواد النعماني عن ظهور الإمام له، فسأله عن مقاميه في الحلة

مدينة قاشان (وتنطق كاشان أيضا): يخرج سكان هذه المدينة وضواحيها عند طلوع النهار بالخيل والسيوف إلى استقبال الإمام ويعودون في المساء حزينين إلى بيوتهم. ويذكر ابن خلدون، Prol'gomènes, p.339 (par M. Quatremère, Paris, 1858) ما ذكره ابن بطوطة. بحار، ج١٣، ص ١٤٧، تتضمن في المدينة الفاضلة بالجزيرة الخضراء (ظهرت المدين الفاضلة : ٦٩٩ هـ) ملاحظة أن عامة البلاد تقيم يوم الجمعة بعد منتصف كل شهر موكبا لانتظار المهدي.

(٣٧) بحار، ص ١٢٣/١٢٤ (ج١٣) ، ثم ص ٢٧١.
(٣٨) نفسه، ص ١٢٣/١٢٤.
(٣٩) نفسه، ص ١٢٤؛ كثيرا ما تتكرر قصص مماثلة في هذا الكتاب.
(٤٠) أنظر، بحار ،ج١٣، ص ١٢٠، ١٢٣، ١٢٤ و٢٥٢.

وفي النعمانية[٤١] وعن مقامه في الاثنتين، فأجابه الإمام إنه يقيم كل يوم الاثنين ليلا ويوم الثلاثاء في النعمانية، ويقيم في الحلة كل جمعة[٤٢].

ولسنا في حاجة إلى إقامة فرضيات صعبة حول نشأة مقامات الإمام المختفي! فالذى يغلب على الظن أن قصة ما، كما نستطيع أن نتتبع ذلك من خلال الأمثلة، عن ظهور الإمام تدفع الناس إلى إقامة مقام مقدس أو مسجد يحمل اسم الإمام[٤٣].

زعم ماكس هورتن في كتابه «فلسفة الإسلام» أن «(الإمام) الثاني عشر ... اختفى ويعيش في جبل رضوان(؟)[٤٤] (حجة بارباروسا) ومنه يسيِّر مصائر أهل الشيعة، أي الفرس[٤٥](؟) وفي نهاية الزمن يؤسس مملكة العدل[٤٦]. ولا أدري من أين جاء هورتن بهذه المزاعم، لأنه لا يذكر مصدره. وأظن أنه خلط بين الكيسانية، الذين يتصورون كما هو معروف أن محمد بن الحنفية يعيش في جبل رضوى، وبين تعاليم الشيعة.

وتحاول الكتب غير الشيعية أن تبرهن على أن فكرة الاختفاء قد انتشرت في الإسلام عن طريق اليهودي عبد الله بن سبأ، الذى أسلم، وكذلك بمقتضى الوصية والإمامة[٤٧]. وقد أقام بعض المستشرقين وغير المستشرقين في العصر الحديث بناء على ذلك نظرية جديدة عن أصل

---

(٤١) النعمانية مدينة صغيرة بين بغداد وواسط على دجلة، ياقوت، ج٤، ٧٩٦.
(٤٢) بحار، ج ١٣، ص ٢٨٠/ ٢٨١.
(٤٣) نفسه، ص ١١٩ و١٢٢ وكذلك مواضيع مختلفة.
(٤٤) الجبل يسمى رضوى.
(٤٥) ليس الفرس وحدهم شيعة، فلماذا لم يذكر إلا الفرس؟
(٤٦) الفلسفة الإسلامية، ص ١٣٣.
(٤٧) الطبري، تاريخ سنة ٣٥ هـ، ص ٢٩٤١، والشهرستاني، ج ١، ص ١٣١ و١٣٢.

الشيعة وتحدثوا عن «التأثير اليهودي»[٤٨]. والشيعة ينكرون شيئا من هذا القبيل طبعاً، فهو لم يكن سوى الأول الذى مثل إمامة علي علانية وانفصل عن أعدائه. ومن ذلك أراد غير الشيعة إثبات التأثير اليهودي[٤٩].

لم يكن عبد الله بن سبأ أول من نشر فكرة الرجعة، فقد أخذ فكرة قديمة، لم تظهر حتى في أيام عمر بن الخطاب، الخليفة الثاني، الذي أبى، عند ما خطب في المسجد، أن يصدق بموت النبي. ذلك أن هذه الفكرة[٥٠] لم تكن قبل الإسلام غريبة عن العرب والبدو[٥١]. ليس من الضروري الحديث هنا بتفصيل عن مسألة عبد الله بن سبأ، ما دام عدد كبير من الباحثين، مثل فريدلينر[٥٢] وغيره، قد شغلوا أنفسهم به، ولذلك أترك هنا مسائل الرجعة والوصية جانبا. فهناك على العكس من ذلك مسائل أخرى ترتبط برجال من الشيعة، أعتقد أن علي هنا أن أبحث قضية عبد الله بن سبأ من جديد، إذ يبدو لي أنه ليس من المستحيل أن تكون هذه الواقعة قد عرضت في ضوء زائف عن طريق جمع تفاصيل تاريخية مقصودة. إن نحن استطعنا الوصول إلى الحقيقة هنا، فإنه لمن الممكن عندئذ أن ننقل الفكرة نفسها إلى الرجعة والوصية.

---

(٤٨) من المستشرقين مثلا فيلهاوزن، «الأحزاب السياسية الدينية المعارضة في صدر الإســـلام» Wellhausen, Die religi?s-politischen Oppositionsparteien im alten Islam ، ص ٩١. هناك خلاصة واضحة لآراء المستشرقين في «جريدة الجمعية الشرقية الأمريكية»، Journal of the American Oreintal Society ج ٢٨، النصف الأول، ١٨٠٧ تحت عنوان «تعليم الشيعة في تقديم ابن حزم» بقلم إسرائيل فريدلايندر.

(٤٩) الكشي، ص ٧١.

(٥٠) الشهرستاني، طبعة القاهرة، ج١، ص ٢٠/ ٢١، ونقدي لأحمد أمين في جريدة الطريق، في أعداد مختلفة من سنة ١٩٣٣.

(٥١) تاج العروس، ج٥، ص ٤٤٨/ ٤٤٩، ولسان العرب، ج٩، ص ٤٧٢.

(٥٢) Zeitschrif für Assyriologie und verwandte Gebiete, Bd.XXIII und Bd. XXIV und a. Werke.

يروى أن عبد الله بن سبأ دخل الإسلام في عهد الخليفة عثمان[٥٣]. وبعد ذلك تنقل هذا المرتد في عدد من البلدان الإسلامية، وقيل عنه إنه كان يريد أن يقود المسلمين على طريق الضلال. فظهر أولا في الحجاز، ثم في البصرة وأخيرا في الكوفة، وقد حاول الأمر نفسه في سورية دون جدوى.

يقال إنه ذهب أولا إلى مصر ومنها تآمر مع عدد من البلدان ضد الخليفة، ولكن عثمان عرف حماسته وتآمره وأرسل بعض أخصائه إلى تلك البلاد ليتعرف على الوضع، فأرسل عمار بن ياسر[٥٤] إلى مصر، وعاد الجميع باستثناء عمار. غير أن عجب الخليفة زال عندما وصلته رسالة من حاكم مصر عبد بن سعد بن أبي سرح، الذى أخبره فيها بأن عمار قد انضم إلى الثوار[٥٥]. والذين نقلوا هذا الخبر أنفسهم وأخذه عنهم الطبري، يذكرون في موضع آخر أن عبد الله بن سبأ التقى عند وصوله إلى سورية بأبي ذر وحرضه على معاوية، حاكم سورية، بهذه الكلمات: «يا أبا ذر، ألا تعجب من قول معاوية: المال كله مال الله، وكل ما يوجد إنما هو لله، وكأنه يريد أن يأخذ كل شيء لنفسه، عوض أن يقدمه للمسلمين؟» وبعدئذ أخذ أبو ذر يثير الفقراء ضد الأغنياء، حتى إن الحاكم أرسل أبا ذر سنة ٣٠ هـ إلى الخليفة خوفا من حدوث انقلاب اجتماعي[٥٦]، بينما طرد اليهودي إلى مصر[٥٧]. كانت لعمار ولأبي ذر، صديقي علي بن أبي طالب، مكانتهما عند الشيعة، فهما أول من نسمع

---

(٥٣) مقتل عثمان، س ٨٤: أسلم عبد الله بن سبأ سنة ٢٩ أو ٣٠ هـ.

(٥٤) عمار بن ياسر عند فريدلندر، الجريدة الأشورية، ج ٣٠٢/١٣، هو حاكم مصر. وهذا الرأي يقوم على خطأ. ومصدره هو الطبري، ص ٢٩٤٤، ولكن الطبري يقول هناك إن عمار بن ياسر لم يرسل إلى مصر إلا لمعرفة الوضع فيها، أنظر أعلاه.

(٥٥) الطبري، تاريخ سنة ٣٥ هـ، ج١، ص ٢٩٤١.

(٥٦) نفسه، ص ٢٨٢٨.

(٥٧) نفسه، ص ٢٩٤١.

عنهما أنهما قد حملا اسم الشيعة[٥٨]، ويبدو من الخبر المأثور أنهما قد تأثرا باليهودي عبد الله بن سبأ. ويذكر الطبري في موضع آخر أن اليهودي عبد الله بن سبأ قد جاء إلى البصرة في الثالثة من ولاية عبد الله بن عامر وأقام عند حكيم بن جبلة من عبد قيس. وهناك جمع حوله عددا كبيرا من الغوغاء وطرح عليهم أسئلة دينية عويصة دون أن يجيب عليها، فنال بذلك بعض الشهرة. وقد سمع الحاكم بما حدث، فطلب إحضاره إليه. وعندما سأله عن شخصه أجاب اليهودي أنه من أهل الكتاب، وأنه يتشوق إلى الإسلام وإلى حماية الحاكم. على أن هذا رفض الاستجابة له وطرده من المدينة. فاتجه عبد الله بن سبأ إلى الكوفة، ولما لم يكن له بها مقام، اتجه إلى مصر[٥٩]، ولا يتحدث الطبري في هذا المكان عن سفر اليهودي إلى سورية. اعتمادا على هذا الخبر فإن عبد الله بن سبأ كان قد ذهب إلى البصرة سنة ٣٣ هـ[٦٠].

لقد أرسل الحاكم معاوية أبا ذر سنة ٣٠ هـ إلى الخليفة عثمان في المدينة، فطرده الخليفة منها وأخرجه إلى الربذة قرب المدينة، فتوفي فيها في شهر ذي الحجة في السنة الثامنة من خلافة عثمان[٦١]، أي سنة ٣١ أو ٣٢ هـ ٦٥٢م، كما روى سيف بن عمر الأسدي[٦٢].

إذا ما نحن أخذنا بما جاء في الموضع الأول من الطبري[٦٣] بأن عبد الله بن سبأ قد ذهب إلى سورية والتقى بأبي ذر، فإنه يتضح لنا أن هذا مستحيل، لأن الحاكم معاوية كان قد طرد أبا ذر سنة ٣٠ وأن أبا ذر

---

(٥٨) روضات الجنات، ص ٨٨.
(٥٩) الطبري، ١، ٢٩٤١ص.
(٦٠) نفسه، ص ٢٩٢٢؛ ابن الأثير، ج ٣، ص ٦٠؛ سير وليم موير Sir William Muir، الخلافة، ص ٢٠٨.
(٦١) الطبري، ١، ص ٢٨٩٥.
(٦٢) نفسه
(٦٣) نفسه ١، ص ٢٩٤١.

توفي سنة ٣١ هـ، في حين أن عبد الله بن سبأ لم يذهب إلى سورية إلا في سنة ٣٣ هـ، أي بعد سنة أو سنتين من موت أبي ذر وثلاث سنوات بعد طرده من دمشق.

ولأسباب عاطفية أيضا لا يمكن على الإطلاق أن يتأثر رجل تقي مثل أبي ذر بيهودي، لم يدخل الإسلام إلا قبل فترة قصيرة، ولم تكن له مكانة علمية متميزة في طائفته اليهودية. وكان قد شتم كعب الأحبار، العالم المعروف[٦٤]، الذى أسلم عبد الله بن سبأ على يده وكانت له منزلته في الدوائر الإسلامية، خصوصا عند الخليفة عثمان، عندما تدخل في مسألة قانونية مع الخليفة: «تفا لك ! يا ابن اليهودية ! ما ذا تعتبر نفسك هنا ! إما أن تسكت وإلا فإني سأريك كيف تسكت»[٦٥]. وفي رواية أخرى قال أبو ذر: «تفا لك ! يا بن السوداء !ما أسوأ لغتك عن ديننا »[٦٦].

لقد وضع إسرائيل فريدلندر بحوثه عن عبد الله بن سبأ بناء على مصادر كثيرة، بل كان الآخرون الذين كتبوا عن عبد الله بن سبأ مصادفة، قد اكتفوا بمقارنة الشكل الخارجي للإخبار التي وصلتنا بعضها بالبعض الآخر ليقيموا عليها نظريتهم. على أنه لابد أولا في رأيي من فحص المضمون الحقيقي لرواية من الروايات، والتأكد من أمانة الراوي، والإحالة الزمنية للكلمات وشكل الأسلوب وطبيعة الأفكار قبل أن تتم المقارنة بين أشكال الروايات المختلفة بعضها ببعض وإصدار حكم عليها في مرحلة تالية.

لقد أقمنا الدليل على استحالة التقاء عبد الله بن سبأ بأبي ذر. وأريد الآن أن أقدم روايات لها علاقة بالأخبار السابقة كأمثلة لأظهر مدى قوة

---

(٦٤) نولدكه، «الإسلام»، ج١٣، سنة ١٩٣٢، ص ٧١ سطر ١.
(٦٥) الطبري، ١، ص ٢٨٥٨.
(٦٦) ابن الأثير، ج ٣، ص ٢٦٨.

اختلاط ما هو حقيقي بما هو غير حقيقي. إن عمار بن ياسر المذكور أعلاه كان عدوا قديما للخليفة عثمان. ففي سنة ٢٣ هـ، عندما بويع عثمان خليفة، كان عمار ينشر الإشاعات ضده، حتى إن أقرباء الخليفة تعدوا عليه بالضرب[٦٧]. وعندما أخذ الخليفة المال من خزانة الدولة ليقدمه إلى أقاربه وهاجمه عمار بسبب ذلك، عاقبه أهل الخليفة مرة أخرى بالضرب[٦٨]. وعندما طرد الخليفة أبا ذر إلى الربذة ومنع من مرافقته إليها، لم يعبأ عمار وعلي وبنوه بمنعه[٦٩]. فغضب عثمان على عمار غضبا شديدا حتى إنه رغب في طرده أيضا، لكن بني مخزوم وعلي استطاعوا بفضل سمعتهم ونفوذهم أن يتوسطوا بين عثمان وعمار، بحيث خاف عثمان وترك عمار في المدينة. وسكن في بيته، ولكنه ظل معارضا لعثمان وتابعا مخلصا لعلي[٧١]. لقد كان عمار إذن معارضا كبيرا ودائما لعثمان، ولذلك لا يمكن أن يكون قد أرسله نائبا عنه إلى مصر، كما تعرض ذلك علنا الرواية في صفحة ٥٨ من هذه الأطروحة، بل كان عمار بوصفه ثائرا على عثمان على صلة بمصر، رغم أنه كان يسكن المدينة.

ولهذا فإنه لمن الصعب أن يكون الخليفة قد أرسل رجلا من هذا القبيل إلى مصر في قضية على هذه الدرجة من الأهمية. ونفس المصادر عند الطبري تقول إن عمار بقي في المدينة حتى سنة ٣٥ هـ، وهي السنة التي قتل فيها عثمان. فعندما خرج الثوار المصريون لمهاجمة المدينة، نزلوا في قرية ذي خشب، وبعثوا بمفاوض إلى علي وعمار طالبين منهما مساعدتهم معنويا في مشروعهم[٧٢]. ومع أن الخليفة كان يعرف أن عمار

---

(٦٧) الطبري، ١، ص ٢٧٥٨.
(٦٨) ابن العبري، ص ١٧٨.
(٦٩) ابن الأثير، ج٣، ص ٢٦٦.
(٧٠) ابن واضح، ص ٢٠١.
(٧١) دائرة المعرف الإسلامية، مبحث عمار بن ياسر.
(٧٢) الطبري، ج١، ص ٢٩١٩.

ضده، فقد طلب منه بالذات، بناء على نصيحة رجاله له، أن يذهب إلى ذي خشب ليفاوض المصريين تجنبا لسفك الدماء[٧٣]. فليس من الممكن إذن أن يكون الخليفة قد أرسل عمارا إلى مصر. من المؤكد أن سبب ذلك الخبر الزائف يكمن في أنهم ـ كما وقع في الحديث عن أبي ذر ـ حاولوا أن يربطوا بين عمار، وهو من رؤساء الشيعة، وبين عبد الله بن سبأ وخضوعه له قصد الحط من قيمة الشيعة.

ورواة الخبرين هما السري وسيف بن عمر الأسدي التميمي الكوفي. ويعتبر الأول كاذبا بالنسبة إلى الذهبي السني[٧٤]، وبذلك يوصف الثاني أيضا[٧٥]. ومن هنا يغلب على الظن أن روايتيهما للمسألة كان القصد منهما تشويه السمعة[٧٦].

ويروي عبد الرحمن بن مالك بن ماغول أن أبا عمر بن عامر بن شراحيل الشعبي قال لمالك بن معاوية: «أحذرك من الزنادقة، وأسوأهم الرافضة، فهم يهود هذا الشعب. فالرافضة يتبعون الإسلام كما يتبع اليهود النصارى. . .[٧٧]». كان الشعبي شيعيا، ولكنه ترك الشيعة فيما بعد[٧٨]، فقدمه الشيعة على أنه عدو لعلي وشيعته[٧٩]، ومات الشعبي سنة ١٠٤ أو ١٠٥ - ١٠٩هـ.

في الخبر المذكور أخيرا نجد ذكرا للرافضة، وهو أصحاب الردة. وفي أقوال أخرى أن هذه الكلمة لم تظهر إلا في حوالي سنة ١٢٢ هـ،

---

(٧٣) نفسه.
(٧٤) الذهبي، ميزان الاعتدال، ج ٣، ص ٢٧٠.
(٧٥) نفسه، ج ٣، ص ٤٣٧.
(٧٦) يوليوس ويلهاوزن، تصميمات و. . . ، ص ١ـ٧.
(٧٧) العقد الفريد، ج ١، ص ١٩٠؛ ضحى الإسلام، ج ٢، ص ٣٣٤، والطريق، رقم ٤٢ (١٩٣٣).
(٧٨) ابن تيمية ، منهاج السنة، ج١، ص ٧.
(٧٩) روضات الجنات، ج ٢، ص ١٩٣، ٣٢٦.

وهناك آراء مختلفة حول أصلها. ويقال إنما قصد بها أهل الكوفة. فعندما أراد زيد بن علي أن يثور على الأمويين، جاء إليه أهل الكوفة وسألوه عن رأيه في أبي بكر وعمر، فالمعروف أن الشيعة قد لعنوا ذينيك الرجلين وجميع الخلفاء وتبرّؤوا منهم. لكن زيدا لم يتبرأ من أبي بكر وعمر ورفض أن يلحق السوء بهما. وعندئذ انفصل الشيعة عن زيد، وذهبوا إلى جعفر الصادق واعترفوا به إماما، لكن أتباع زيد القدامى أطلقوا عليه اسم «الرافضي»(٨١).

وتفسر المصادر الشيعية هذه الكلمة على نحو آخر، عندما جاء زيد إلى الكوفة وسمع الناس بذلك، أحاطوا به في بهجة. فقد تصوروا أن أخاه محمد الباقر، الإمام الخامس، هو الذى أرسله. وعندما أعلن زيد عن رغبته في القيام بثورة، سأله الشيعة عما إذا مشروعه يمثل رأيه الخاص أو يمثل رأي الإمام. ولما أوضح لهم أنه يثور من تلقاء نفسه، تركه الشيعة وتبرّؤوا منه، ولذلك حملوا منذ الحين اسم «الرافضة»(٨٢).

ويشك تيودور نولدكه Theodor Nöldeke في هذا الأصل لكلمة «الرافضة»، ويرى أن هذه الحكايات عن نشأة الاسم موضوعة، لكنه لا يشك على العكس من ذلك في أنه من الممكن أن تكون قد نشأت في القرن الثاني أو بداية القرن الثالث الهجري(٨٣).

ليس من الضروري بالنسبة إلى أطروحتنا أن نبحث عن الجانب الاشتقاقي للكلمة، وإنما يكفينا أن نؤكد أنها قد أطلقت على الشيعة في أيام زيد أو بعده بقليل.

---

(٨٠) جريدة الطريق، رقم ٣٥ (١٩٣٣)، مقال « ضحى الإسلام»؛ وابن خلكان، ج١، ص ٣٠٦.

(٨١) ابن الأثير، ج ٨، ص ٢٧٢، حوادث سنة ١٢٢ هـ.

(٨٢) تبصرة العوام، ص ٢٧٢، مجالس المؤمنين، مقال زيد بن علي؛ وروضات الجنات، ج١، ص ٨٨ وما بعدها.

(٨٣) مجلة «الإسلام Der Islam» ج ١٣، سنة ١٩٢٣، ص ٧٣.

(ص ٨٤) لقد اعتبر الشيعة كلمة الرافضة شتيمة، فذهب رؤساؤهم إلى جعفر الصادق، الإمام السادس، ورووا له أن رجلا معينا قد أطلق عليهم هذه التسمية. فأجابهم الإمام بكلمات مطمئنة، مؤداها أن الله هو الذى سماهم هكذا؛ فقد جاء في الإنجيل أن ٧٠ شخصا قد انفصلوا عن فرعون والتحقوا بدين موسى، ولذلك أطلق عليهم اسم «الرافضة»، وهكذا هم الشيعة أنفسهم، الذين انفصلوا من جانبهم عن الدين القديم[٨٤]. ولا تزال هذه الكلمة شتيمة عند السنيين[٨٥]، والشيعة بدورهم يسمون أهل السنة «نواصب»، أي أعداء علي[٨٦].

توفي الشعبي، الذى وضعت الكلمة على لسانه، ١٢ إلى ١٩ سنة ثورة زيد وموته. ولذلك لا يمكن السبعي صاحب هذه الكلمة. وقد لاحظ عدو الشيعة المعروف ابن تيمية أن جميع الروايات المتعلقة بكلمة الرافضة وربطها بالشعبي زائفة. فقد وضعها عبد الرحمن بن مالك بن مغول لتزيين حكاياته وبصفتها حجة على الشيعة[٨٧].

ويتخذ فريدلندر رواية الشعبي هذه لمقارنة الشيعية باليهودية، لأنه ليس من الممكن إقامة الدليل على المصدر الرئيس لهذه الرواية[٨٨]. ويأخذ أحمد أمين كذلك تلك الرواية على أنها رواية حقيقية ويستنتج منها أن أصل الشيعية مستمد من اليهودية[٨٩].

---

(٨٤) بحار، ج ١٥، ص ١٢٧ تحت

(٨٥) روضات الجنات، ج١، ص ٨٨.

(٨٦) تبصرة العوام، ص ٣٦٩، وروضات الجنات، نفسه. (يوجد فيه شرح لكلمات الرافضة، وروافض، ونواصب وغيرها حسب المعنى والأصل.

(٨٧) لبعض علماء الشيعة أيضا كتب بعنوان «كتاب الرد على الرافضة»، مثل الحسين بن علي بن سفيان وعبد الله الحسين بن علي بن الحسين بن بابويه (أنظر الكنتوري، ص ٤٤٢). ونرى من ذلك العنوان أن هذه الفرقة من الشيعة، التي ينتمي إليها المؤلفون لا تعني نفسها، الإثني عشرية، وإنما تعني فرقة أخرى.

(٨٨) Journal of the American Oriental Society, Bd.1, 1907, p. 19.

(٨٩) ضحى الإسلام، ج ٢، ص ٣٣٤.

وفكرة الرجعة، التي تلعب دورا كبيرا عند معظم الفرق الشيعية حتى الإثني عشرية، زاحمتها أيام الغيبة الصغرى فكرة الاختفاء، وجعلتها الاثنا عشرية في المقام الثاني. والفكرة الرئيسة للرجعة والغيبة هي في الأصل واحدة، ولكن التحديد الدقيق لهذين المصطلحين يبين اختلافات بين الاثنتين: فالغيبة تعني غيبة الإمام الذى لم يمت ورجوعه إلى الأرض، بينما تعني الرجعة بعث كل الأئمة وبعض أصحابهم من القبور جسديا، وكذلك بعض أعدائهم ليفرح أولئك بانتصارهم ويعاقبون أعداءهم القدامى بإراقة دمائهم[٩٠]. والاثنان، الرجعة وبعث الإمام الثاني عشر، تتمان في وقت واحد على التقريب، وعندئذ سيكون الإمام الثاني عشر هو حاكم العالم[٩١]، وتقام مملكة الله الحقيقية. وكان جابر بن يزيد الجُعْفِي من الذين آمنوا بالرجعة[٩٢].

وبعض الشيعة ينظرون إلى الرجعة على أنها إقامة الدولة الشيعية عند رجعة المهدي[٩٣]. وقد اشتد شوق الشيعة بكل ما في صدورهم من حرارة الإيمان إلى هذه الدولة، وقد كانوا دائما يسألون الأئمة عن هذه الدولة وعن شخصية الحاكم. وإذا لم يذكر لهم الإمام وقتا معينا وشعروا بالحزن خشية من أن يموتوا قبل عهد هذه الدولة، أخذ يعزيهم بأن الظلم كله سيزول قريبا. ومن هنا وصل مؤولو الرجعة إلى فكرة إقامة المملكة الشيعية. إذن فتعاليم الرجعة ليست مذهبا دينيا، وإنما كانت نتيجة للإحباط السياسي لدى الشيعة. فقد كانت القوة بيد أعدائهم، يتمتعون بنعم الحياة الدنيا، بينما كان الأئمة يعيشون في خوف دائم من القمع والمطاردة والاغتيال، وكان أتباعهم، الشيعة، يشاطرونهم نفس المصير. فكان أئمتهم يعزونهم بالمستقبل، لأن ذلك كان الوسيلة الوحيدة لتقوية

---

(٩٠) بحار، ج ١٣، ص ٢٣٥.
(٩١) بحار، ج ١٣، ص ٢٣٥.
(٩٢) تعليقات على منهج المقال، ص ٩.
(٩٣) بحار، ج ١٣، ص ٢٣٥.

إيمانهم، حتى قيل عنهم لقد كبروا على الأمل والانتظار[٩٤]. ومن هذا الموقف النفسي يمكن فهم فكرة البعث عند الخصمين، الأئمة مع أتقيائهم وأعدائهم: رؤية الموتى الأتقياء لجلال الأئمة من جهة، والحرص على أن يبقى من يعيشون في هذا الوقت من الشيعة على تقواهم.

والرجعة، كما نحب أن نؤكد، ليست مذهبا دينيا، وإنما تقع في نفس المرتبة مع رجعة المسيح أو الدجال عند أهل السنة. فكما أن الاعتقاد برجعة هؤلاء الرجال الثلاثة ليس عقيدة ملزمة عند أهل السنة، كذلك لا يعرف الشيعة عقيدة دينية في الرجعة[٩٥]. ويختلف الأمر في الغيبة، في اختفاء الإمام الثاني عشر، تماما: على الشيعي أن يعتقد بغيبة الإمام الثاني عشر، لأن العالم لا يمكن أن يكون بدون إمام.

وفي رأي الإثني عشرية أن الله هو الذى حدد العدد الثاني عشر للأئمة. ولما كان الأئمة قد تعرضوا في حوالي سنة ٢٦٠ هـ لضغوط سياسية شديدة، فقد كان عليهم أن يفكروا في الإبقاء على حياتهم وكان على الإمام الحادي عشر أن يفكر في حماية ابنه، لتتم مشيئة الله. ولذلك تلقى الإمام الحادي عشر حسب عقيدة الشيعة إشارة من الله تقتضي أن يغيب ابنه عن العالم وأن يظل مختفيا. وإذا ما يظهر الإمام الثاني عشر أمام الناس، فإنه لا يجوز له أن يظهر قوته، وإلا فإن الحكومة ستقضي عليه أو تلحق ضررا بصحته. وهذه الروايات تقدم للشيعة الإثني عشرية أساسا لفكرة الغيبة[٩٦]

يعتقد الشيعة الاثنا عشرية أن العالم لا يمكن أن يكون بدون هداية. وبما أنه كان من الثابت والطبيعي أن الإمام الثاني عشر يجب عليه أن

---

(٩٤) تعليقات على منهج المقال، ص ٩.

(٩٥) كشف، أصل الشيعة، ص ٦٦ وما بعدها.

(٩٦) أنظر الطوسي، ص ٥ وما بعدها، ٦٣ وما بعدها، ٧٣ وما بعدها، وبحار، ج ١٣، ص ٤١ وما بعدها، وكذلك مجموعة كتب الغيبة في أماكن مختلفة!

يختفي عن العالم وعن طائفته، فهناك فكرة جديدة تتصل كنتيجة منطقية بفكرة النيابة عن الإمام في الأرض أمام الطائفة. فقد اختار الله، كما قيل، في ترتيب زمني أربعة سفراء. ولم يجد السفير الأخير من ينوب عنه في طائفة الإثني عشرية. فمن سنة ٢٦٠ هـ، وهي سنة اختفاء الإمام إلى سنة ٣٢٩ هـ، التي أنهى فيها الإمام عن طريق توقيع من التوقيعات نشاط السفراء، يبدأ عد ما يسمى بالغيبة الصغرى. وبسنة ٣٢٩ يبدأ زمن الغيبة الكبرى للإمام، التي لا تكون فيها وساطة بين الإمام والمؤمنين به وتدوم إلى أن يرجع الإمام الثاني عشر في عظمته وجلاله بسيفه وقوته ليقيم العدل من جديد[٩٧].

في هذه الصورة المستقبلية ينعكس حلم شوق الشيعة إلى تحرير كل أفكار القوة وأخذ الثأر، التي تثقل في حقيقة الحاضر كاهل أئمتهم وكاهلهم هم أنفسهم ويجب عليهم أن يلعنوها[٩٨].

---

(٩٧) القرماني أحمد بن يوسف الدمشقي، أخبار الدول، ج١، ص ٢٤٨ (طبع على هامش كتاب الكامل لابن الأثير)؛ وبهذه المناسبة يذكر القرماني أن الشيعة يعتقدون أن المهدي بعد موت أبيه سنة ٢٦٦ هـ قد اختفى في سرداب ببغداد، يحرسه رجال الحكومة، وأن الشيعة كانوا يقودون كل جمعة فرسا مسروجا إلى السرداب وينادون الإمام. وقد ظل هذا التقليد ساري المفعول إلى أن استولى على بغداد السلطان التركي سليم، فمنعه على الناس. على أنني لم أجد ما يؤكد ذلك في المصادر الشيعية. لذلك أتصور أن هناك خطأ مماثلا يشبه ما ورد في قصة ذلك السرداب بالحلة أو أن هناك خلطا بينه وبين قبور السفراء في بغداد.

(٩٨) أخبار الأنوار، ج ١٣، ص ٢٠١ وما بعدها و٢١٥ وما بعدها؛ عامر علي سيد، Ameer 'Ali, Seyed, The Spirit of Islam, p.314. كتب عن الموقف: «كان الاثنا عشرية، أتباع الأئمة المقدسين، الذين يشجبون استعمال القوة، ولا يطالبون إلا بالسيادة الروحية، يتمسكون وحدهم بموقف الاسترجاع التام للمصالح الزمنية، إلى أن أسس الشاه إسماعيل الصفوي العظيم للإثني عشرية الدولة الدينية في بلاد الفرس».

الفصل الرابع

السفيران الأولان للإمام الثاني عشر

تنتهي مجموعة الأئمة بالنسبة إلى الإثني عشرية بالإمام الثاني عشر، الذى يعيش منذ سنة ٢٦٠/ ٨٧٤ في الغيبة. والأمر الحاسم بالنسبة إلى التنظيم وبنائه الداخلي هو الفترة الممتدة إلى سنة ٣٢٩/ ٩٤١ وهي الغيبة الصغرى، التي كان فيها الإمام الثاني عشر يتولى الهداية بنفسه، وذلك عن طريق نواب خاصين. وهؤلاء يدعون سفراء، جمع سفير، وكان هناك أربعة منهم، الأولان هما الأب والابن، في حين أن الآخرين لم تكن بينهما أية قرابة، فأحدهما فارسي والآخر مجهول. لقد استطاعوا الحصول على ما حاول الأئمة الحصول عليه عبثا: وهو محاربة أولئك الذين كانوا يسعون على الدوام بدافع الرغبة في السلطة والطموح إلى زرع روح الشقاق بين الشيعة. فأثمر عمل التنظيم وتم الرضا عنه تحت إشراف السفير الرابع إلى درجة أن المذهب الشيعي استطاع أن يتطور وأن يعيش فترة ازدهاره العلمي(١).

---

(١) عن المدخل ينظر ما يلي: J. Wellhausen, Die religiös-politischen Opposotionsparteien im alten Islam, Berlin 1901; I. Goldziher, Vorlesung über den Islam, Heidelberg 1925; Dwight Donaldson, The Shi'te Religion, London 1933; R. Strothmann, Die Zwölfer-Schi'a, Leipzig 1926; ders. Artikel, Schi'a in Ensyklopädie des Islam; ders. Schi'a -Literatur in Bücher -Katalog O. Harrassowitz. ذكرت هذه

وكتب الأخبار تقول عن أشخاص السفراء أنهم أخذوا مناصبهم بتوصية من الإمام. ولكن ما هي قيمة هذا الخبر؟ نحن نفرق بين خبر الإجماع المتواتر، والضعيف، وأصناف أخرى. ويرى العالم كاشف الغطاء أن هذه الأخبار إنما هي نوع من أخبار الآحاد، ولكنها أمينة بحيث يمكن إقامة رأي علمي عليها دون حرج[٢]. على أن المرء يقع في الكتب نفسها على أخبار من هذا النوع، يناقض بعضها بعضا، أي بناء على رواية من فم حكيمة، أخت، جد (جدة) الإمام الأخير. فقد روي لنا أن علي بن أحمد بن إبراهيم قد زارها ـ حوالي سنة ٢٦٦ هـ، بمعنى ست سنوات بعد بداية الغيبة ـ في المدينة، ليلقي عليها بعض الأسئلة، وعندما سألها عن مقام الإمام، أجابته بأن الإمام الثاني عشر قد اختفى. وعندما سألها عن صاحب منصب الإمامة عند المؤمنين، ذكرت له أن أخت الجد (الجدة)، أم الإمام الحادي عشر، هي التي تنوب عن الإمام المختفي. وحين اندهش علي لوجود امرأة في المنصب، أفهمته حكيمة أن الحسين بن علي بن أبي طالب أوصى بأن تكون أخته وصية على ابنه علي القاصر وأنها تولت قيادة الطائفة الشيعية[٣].

كان من عادة حكيمة، كما لاحظنا في الموضع، الذى تحدثنا فيه عن ولادة الإمام، أنها كانت فيما قيل ترى الإمام في الصباح والمساء وتتلقى منه الأجوبة على أسئلة لم تطرحها[٤]. وليس هناك في هذين

المجموعة من المصادر غير المرقمة في مدخل دراسة عن السفيرين، التي استلها من أطروحته ونشرها، ربما باقتراح من أستاذه المشرف، في مجلة «الإسلام» Der Islam, Zeitschrift für Geschichte und Kultur des Islamischen Orients, 25, 1939, S. 197-227، وهي منقولة طبعا عن النسخة المرقونة ـ المترجم.

(٢) كاشف، رسالة بتاريخ ٢٨ محرم سنة ١٣٥٦ هجرية.

(٣) إكمال الدين، ص ٢٧٥، والطوسي، الغيبة، ص ١٤٨ (ولكن بدل حكيمة تذكر أختها خديجة.)

(٤) إكمال الدين، ص ٢٤٠.

الموضعين من حديث عن السفراء، وإنما تصف حكيمة نفسها أو أخت جد (جدة) الإمام الثاني عشر بأنها واسطة ونائبة عن الإمام المختفي.

ولم يكتب مؤرخو الدين، مثل الأشعري، وابن حزم، والشهرستاني، والنوبختي الشيعي (توفي بين سنتي ٣٠٠ و٣١٠ هـ) عن السفراء، ولم تذكر المصادر الشيعية السفراء إلا من أجل البرهنة على وجود الأئمة الاثني عشر وعلى الكرمات، التي أتمها الإمام على أيدي السفراء[٥]. ولذلك فإن إنشاء منصب السفراء لا يدخل في العقيدة الدينية، وإلا لكانت الكتب الدينية قد تحدثت عن ذلك. جاء منصب السفير نتيجةً للتنظيم، فقد وجد ويوجد شيعيون لا يعرفون عنه شيئا، ومع ذلك فهم شيعيون متدينون[٦]. ولكن الأمر يختلف عند الفرق الشيعية الخاصة (فالباب عند النصيرية، وهو مثل السفير، يشبه الإمام. والإيمان بالباب مثل عقيدة الإمامة فريضة دينية)[٧].

كان السفير في الغيبة الصغرى هو النائب العام للإمام على جميع الشيعة، وعلى هذا فهو الوكيل. وتحت إمرته وكلاء أيضا هو المدبرون المحليون لأمور الطائفة. فهؤلاء يتولون شؤون طوائفهم، فيجمعون المال، ولكنهم يتلقون الأوامر من السفير. ولما كان السفير هو نائب الإمام، فيجب أن يكون أتقى الناس وأفضلهم سمعة في الطائفة، وكلماته لها اعتبارها القانوني، فالسفير لا يكذب[٨]. وعليه أن يبرهن عن طريق كرامة ما على أن الإمام هو الذى ولاه المنصب.

هكذا كان السفراء الأربع قد نفذوا كرامات الإمام[٩]. فمن ادعى أنه سفير ولم ينتج كرامة، فقد كذب في رأي الشيعة على الإمام، ولما يطرد

---

(٥) الغيبة، ص ٢٧١.
(٦) كاشف الغطاء، ٢٨ محرم ١٣٥٦.
(٧) العلويون ١٩٣.
(٨) كاشف الغطاء، نفسه.
(٩) بحار، ج ١٣، ص ٩٩

من الطائفة. وقد اتفقت جميع المصادر على أن كان هناك أربعة سفراء بدون انقطاع، إلا أن هناك رغم ذلك أسماء أخرى للأشخاص الأربعة تسمى في المصادر نفسها أبوابا[١٠]. فإكمال الدين يذكر رجالا آخرين بوصفهم وكلاء. فكيف نستطيع حل هذا التناقضات؟ لقد كان السفراء أنفسهم وكلاء، وكان هناك كما ذكرنا عدد كبير من الوكلاء الآخرين، في حين لم يكن هناك سوى أربعة سفراء، ولذلك ليس من الخطأ عد السفراء مع الوكلاء بوصفهم بدورهم وكلاء. والباب تابع للسفير من حيث المرتبة، ومن ثم فهناك كثير من الأبواب. والسفير يمكن أن يكون بابا، ولكن ليس كل باب سفيرا. وهناك أيضا فرق في المرتبة بين الوكيل والباب: لا يمكن أن يكون كل وكيل بابا، غير أن الباب خارج منصبه يمكن أن يتقلد منصب وكيل. فالنائب والباب يحتلان مرتبة واحدة. هذه الألقاب يتداخل أحيانا بعضها في بعض في كتب الغيبة. عادة تستعمل الكلمات الثلاث الأولى للسفير ويقصد بالوكيل وكيلا من المرتبة الأدنى وليس منها كلها. ولذلك فمن المستحسن أن تطلق عند شرح المفاهيم في اللغات الأوربية لفظة سفير على الأشخاص الأربعة المعروفين وألا يطلق عليهم، كما ورد في دائرة المعارف الإسلامية، اسم الوكلاء.

السفير الأول

كان أبو عمر عثمان بن سعيد العمري أول السفراء. وكان جده عمر بن حريث الصيرافي الكوفي، وهو شيعي معروف من الكوفة، ينسب إلى بني أسد، ولذلك فإن الجد والسفير قد عرفا باسم الأسدي. ولا نعرف شيئا عن والد السفير ومكانته في الطائفة، ولم يذكر كذلك أي شيء عن سنة ميلاد السفير ولا عن أيام شبابه.

يروى أن الإمام الحادي عشر أنه قال لا ينبغي تركيب اسم عثمان

---

(١٠) بحار، ١٣، ص ١٥٠.

ولقب أبي عامر لاسم واحد، وإنما يجب أن يقال: العمري. ويرى بعض الشراح أن هذا الأمر يعود إلى أن عثمان وأبا عامر اسم ولقب الخليفة الثالث، الذي يكن له الشيعة حقدا كبيرا. على أنه ليس صحيحا أن يكون الإمام الحادي عشر قد قال هذا القول، ذلك أن أسماء الأئمة أنفسهم يحملون أسماء مثل خلفاء السنة ، وكذلك الشخصيات الشيعية.

لقد دخل السفير، الذى تقلد هذا المنصب عدة مرات، الخدمة في بيت الإمام التاسع وهو في الحادية عشرة من عمره، ولم يغادره منصبه بعد. لقد أصبح فيما بعد بوابا ثم حاجبا وكسب ثقة الإمام بصفته «يده اليمنى»، فإن الإمام كان يكلفه بتدبير جميع الأمور. وكان عثمان قد ارتقى إلى هذا المنصب في حياة الإمام العاشر علي الهادي، فأثنى عليه كثيرا.

كانت الحكومة تحرص على مراقبة الإمام العاشر وترتاب في أمره. وكان هو إنسانا تقيا ورعا، منطويا على نفسه يعيش في عزلة عن الناس، يخاف الظهور أمامهم، حتى إنه كان يبقى في بيته في معظم الأحيان ويتجنب الحديث مع الأفراد من أبناء طائفته. فكان يقدم عثمان لمن يأتون للحديث إليه موضحا لهم أن عثمان نائبه وأنه رجل محترم وكل ما يفعله إنما يفعله باسمه[١١]. وشغل عثمان المنصب نفسه عند الإمام الحادي عشر، وكان هذا قد قدمه بالكلمات التي كان قد قدمه بها أبوه.

كان الشيعة يرسلون خراج الطائفة إلى الإمام من الأمكنة البعيدة والقريبة على السواء. ولأسباب معينة لم يكن الامام نفسه يستلم المال بنفسه، فكان يأمر عثمان بأخذ المال، ويخبر الشيعة عندما يسألونه بأن عثمان وابنه نائبان عن الإمام وابنه[١٢].

وكانت مهمة عثمان وتحمله للمسؤولية في مقر الحكومة بسامراء في

---

(١١) الغيبة ٢٢٩.

(١٢) نفسه ٢٣٠

منتهى الصعوبة نظرا للحراسة المشددة ، ولكنه كان مع ذلك رجلا يعرف كيف يسير الأمور في سرية تامة دون أن يلاحظ عليه أحد ذلك. كان يرتدي لباس بائع السمن ويرسل أموال الشيعة في كيس السمن إلى الإمام. وبواسطة هذه الحيلة، التي أطلقوا عليه بسببها لقب الزيات أو السمان[١٣]، استطاع أن ينجو من مطاردة أعوان الحكومة له.

واعتنى عثمان بالإمام الحادي عشر أثناء مرضه الأخير، وقدم للميت ما يستحق من عناية واهتمام، فغسل جثته وكفنه ودفنه. وهذه عند الشيعة هي العلامات الأصلية على أن عثمان نائب الإمام المتوفى وسفيره وأنه قد فعل كل شيء بناء على ما أمره به الإمام[١٤].

لم يكن من السهل إذن إدارة طائفة من هذا النوع، كانت تسود حياتها عادة الاضطرابات والمنازعات وتطلعات بعض أفرادها إلى منصب النيابة، وخصوصا في وضع سياسي متأزم لا يخلو من صعوبة دائمة بالنسبة إلى الشيعة، وذلك لاتساع مجال أهل الفتنة في صفوفهم وقيام ثورة القرامطة وغيرهم من الفرق الشيعية المنشقة عنهم. لولا هذه الأوضاع فلربما كان أخو الإمام الحادي عشر، جعفر، الذى أراد هو نفسه أن يكون إماما، أقل صعوبة. لقد رفضته مجموعة كبيرة، ومهما كان له من أنصار، فإن الإثنى عشرية يقدمونه لنا على أنه «كذاب». ويوصف من الناحية الخلقية على العكس من أخيه تماما، فهو يتصف بالنشاط، والصراحة وحب المتعة واللهو والخمر والغناء. ويقال إنه كان بسبب هذه الصفات دائما في نزاع مع أخيه، بحيث عرف الناس جميعا ما بينهما من نزاع وخصام. ولم تكن هناك أية وسيلة، لا الرشوة ولا الخيانة ولا العنف، تعد رديئة بالنسبة إلى جعفر إذا كانت تمكنه من الوصول إلى هدفه، أي الإمامة وميراث أخيه. حتى إنه حاول، من أجل بلوغ هذا الهدف، أن يكسب إلى جانبه عبد الله

---

(١٣) الحلي، الخلاصة ٦٨، المنتهى ٢٠٠.

(١٤) الغيبة ٢٣١.

بن خاقان، وزير الخليفة، برشوة سنوية تقدر بـ ٢٠٠٠٠ دينار، ولكن الوزير أجابه بالرفض القاطع وأحاله سخريةً منه على أبناء طائفته الشيعية[١٥].

ولما لم يستطع جعفر الحصول على مساعدة من الحكومة، أخذ يتقرب من الشيعة. فعندما يأتي شخص من الخارج، لا يعرف شيئا عن موت الإمام الحادي عشر أو ربما لم يكن قد سمع بذلك إلا في سامراء، كان بعض الناس يرسلونه إلى جعفر بوصفه خليفة. «وعندما يأتي الغرباء إلى جعفر ويريدون أن يؤدوا نفس المراسيم، التي أدوها عند أخيه، وكان على «الإمام» أن يقول كم أحضروا معهم من الذهب والفضة وممن، عندئذ يجيب جعفر إنه ليس منجما، وكل ما يقوله الشيعة عن أخيه إنما هو زور وبهتان، فمثل هذه الأشياء لا تتم إلا بإرادة الله. وأراد جعفر الاستيلاء على المال، ولكن حامليه منعوه من ذلك. وانكشف النزاع، فجاء شخص وناداهم بأسمائهم وقادهم إلى إحدى الدور، أراهم فيها الإمام الحقيقي. فذكر لهم الإمام المبلغ، الذى كان معهم، فسجدوا فوق الأرض في الحين وحمدوا الله على أنه أظهر لهم الإمام الحقيقي. فأمرهم الإمام بحمل المال من الآن فصاعدا إلى رجل معين في بغداد. وانسحب الشيعة تحت حماية الحكومة خوفا من أن يعرض جعفر طريقهم، ووجدوا كل شيء في بغداد صحيحا كما قال الإمام[١٦].

رغم محاولة جعفر كسب الشيعة إلى جانبه عن طريق المال، لم يتمكن من إقناعهم بإمامته. وعندما فقد الأمل، ذهب إلى الخليفة[١٧]، وووشى بهم ونجح في إثارة الخليفة فراح يطارد الشيعة[١٨]. ومن بين ما

(١٥) إكمال الدين ٢٦٣، تاريخ الغيبة ٤٦٥، الغيبة ١٤٦ وما بعدها، حيث عوض «الوزير» الخليفة دون ذكر اسم الخليفة.
(١٦) البحار، ج١٣، س ١١٦/١١٧
(١٧) لم يذكر الاسم، والمقصود هو المعتمد
(١٨) الفصول المهمة، ١٩٦، ٢٦٠

رواه جعفر للخليفة أن الشيعة كانوا حتى الآن يؤمنون بوجود ولد للإمام، أخفته أمه صيقال. فأمر الخليفة بإجراء تحريات وأمر الأم أن تظهر لها الولد. فأنكرت أن تكون قد ولدت طفلا، ولكنها اعترفت بأنها حامل. بعد ذلك أمر الخليفة بوضعها في حريمه للمراقبة. فراقب نساء الخليفة وجواريه ونساء القاضي ابن أبي الشوارب صيقال مدة ثلاث سنوات، إلى أن وجدوا أن المراقبة لم تعد ضرورية، فتمكنت من الفرار، عندما حدثت الاضطرابات في أماكن مختلفة من البلاد ولم يعد أحد يهتم بها[19]».

كان جعفر العدو اللدود لصيقال وحاول إلحاق الضرر بها حيثما استطاع. على أن بعض موظفي قصر الخليفة وقفوا إلى جانب صيقال، وكان الشيعة يزدادون إيمانا بابن صيقال. فاتهمهم الجانب المعارض، لأن صيقال كانت قد جاء ت إلى منزل رجل غريب، هو الحسن بن جعفر النوبختي. وتبعا لذلك أمر الخليفة المعتضد بسجنها بين حريمه هو لا في حريم غريب. وبقيت هناك إلى أن ادركتها الوفاة في عهد المقتدر.

وكان جعفر في أثناء ذلك قد بدأ ينازع أم الإمام الحادي عشر، حادث، في الميراث. وقد ادعت حادث أن الإمام جعلها الوريثة الوحيدة، ولكن جعفر أصر على حقه في الميراث بصفته أخا للموروث، وقد دام هذا النزاع سبع سنوات[20]. ورغم أن القاضي حكم للأم في الميراث، فلم يختلف أحد في حق جعفر بسبب علاقاته الجيدة، ولذلك قسم الميراث قسمين[21].

وكان جعفر لا يزال يأمل أن يعترف به إماما للشيعة، وعندما أخذ نصيبه من الميراث، راح ينشر دعوته بينهم، ويصف نفسه بأنه الخليفة

---

(١٩) كمال الدين، ص ٢٦٢ . (ما بين الحاصرتين لم يرد في النسخة المرقونة، وقد نقل عن مقال المؤلف : السفيران . . . ، الذى نشره في مجلة الإسلام Der Eslam ، عدد ٢٥ ، ١٩٣٩، ص ١٩٧ ـ ٢٢٧ ـ المترجم)

(٢٠) الفصل، ج٤، ص ٩٣/ ٩٤.

(٢١) نفسه

الحقيقي وأن له دراية بالدين والعلم. فأنكر عليه الشيعة كل ذلك واتهموه في توقيع بأنه منافق وأنه لم يصل أربعة أيام ونصحوا جميع المؤمنين بالابتعاد عنه[٢٢]. فتخلى جعفر عن كل أمل وتوجه إلى أعداء هذا الطائفة للحصول على مساعدتهم. فتفاوض مع أتباع فارس بن حاتم بن ماهويه القزويني، الذى كان الإمام قد لعنه سنة ٢٤٨ هـ. عندما لم يتخل القزويني عن زندقته وواصل دعوته إلى الثورة على الإمام، جعل الجنة ثمنا لرأس القزويني، ثم قتل القزويني بعد ذلك بطريقة غامضة[٢٣]. فأثنى جعفر على القزويني أملا في الوصول إلى غرضه ووصفه بأنه مؤمن صادق الإيمان، فاستطاع بذلك أن يكسب أتباع القزويني[٢٤]. وشكرت أخت القزويني ثناءه على أخيها وأخذت تنشر خبرا، مؤداه أن الإمام العاشر قد عين جعفرا وليس أخاه ليكون خليفته[٢٥]. واتخذت دعاية جعفر من هذا قوة جديدة واستطاع ببلاغة حديثه أن يكسب المتكلم المعروف علي بن الطاهي الخزاز، أحد رؤساء الفطحية، وهي من طوائف الشيعة[٢٦]. ولكن أتباع جعفر رغم النجاح، الذى عرفوه في البداية، لم يستطيعوا بقيادة قائدهم المحافظة على طائفتهم وازداد اختفاؤهم تدريجيا، حتى إن الطوسي لم يعرف لجعفر أتباعا[٢٧].

كان مقر جعفر سامراء، وكان الإمام العاشر والحادي عشر مقيمين فيها أيضا، ولكن إقامتهم فيها لم تكن اختيارية كما ذكرنا سابقا[٢٨]. كانت سامراء ولا زالت حتى اليوم أرضا رديئة بالنسبة إلى الشيعة. لقد

---

(٢٢) إكمال الدين ٢٦، فرق الشيعة ٧٩، الغيبة ١٨٥ وما بعدها.
(٢٣) الغيبة ١٨٥ وما بعدها.
(٢٤) المنهج ٢٥٧، الكشي ٣٢٤.
(٢٥) إكمال الدين ٣٤.
(٢٦) فرق الشيعة ٨٢.
(٢٧) نفسه
(٢٨) الغيبة ١٤٣، توفي الطوسي ٤٤٨ أو ٤٦٠ هجرية.

أنشأت سامراء بوصفها مستعمرة عسكرية للأتراك، وذلك حتى لا يعاني سكان بغداد، فيما قيل، من عبث الجنود الأتراك وتعسفهم[٢٩]. كان الجيش التركي منذ البداية ضد الشيعة وأئمتهم. وبعد انقراض الأئمة، لم يعد هناك من سبب لوجود السفير الأول في سامراء، فانتقل إلى بغداد وأقام بجانب الكرخ، الذى لا يكاد يسكنه غير الشيعة[٣٠]. وأصبحت بغداد الآن مركز الحركة الشيعية والناحية المقدسة، التي كان الشيعة يحملون المال إلى السفير فيها من مراكز بعيدة ويقدمون له أسئلتهم.

كما كان جعفر يطمح إلى منصب الإمام، كذلك كان الشريعي الحسن أبو محمد قد سبب للسفير الأول مصاعب كثيرة ، فقد كان الشريعي يصف نفسه بأنه سفير. وكان في وسعه أن يحتج أيضا بأنه كان صديقا حميماً للإمام العاشر والحادي عشر، ولذلك فمن حقه المطالبة بمنصب السفير. ولكن الشيعة رفضوه ولعنوه في أحد التواقيع[٣١] وجدد الحرمان السفير الثالث مرة أخرى[٣٢]. ولعل السفير الأول كان يخفي نشاطه الوظيفي عن الحكومة، وهو إجراء كان بارعا فيه حتى إن الأخبار عنه كانت قليلة جدا. فنحن لا نعرف الوسائل التي كان يستعملها لمكافحة أعدائه في الداخل والخارج.

كانت أسئلة الشيعة وأجوبة السفير قد جمعت في وقته، جمعها على سبيل المثال عبد الله بن جعفر الحميري وآخرون، ولكن معظمها ضاع للأسف، ولم يبق منها سو ى القليل في الكتب، التي تتناول بموضوع الغيبة. وقد جمع السفير الثاني، وهو ابنه ، أيضا أقوال أبيه، على أن هذه المجموعة لم تصلنا هي الأخرى[٣٣].

---

(٢٩) ابن خلكان ٥٧٨.
(٣٠) ياقوت، ج٣، ص ١٤ وما بعدها.
(٣١) نفسه ج٤، ص٢٢٥.
(٣٢) الغيبة ٢٥٨.

ويروي لنا الزُهري أنه كان يتمنى أن يرى الإمام المختفي شخصيا، وحاول الوصول إلى هدفه بطرق عديدة، إلى أن تعرف في النهاية على السفير الأول وربطته به صداقة حميمة. وتوسل إلى السفير في آخر الأمر أن يريه الإمام، على أن هذا رفض طلبه في البداية(٣٤). وذات يوم طلب من الزهري أن يجيئه في صبيحة اليوم الموالي، ففعل الزهري ما طلب منه، ووجد عند السفير تاجرا شابا، فسأله الزهري بناء على طلب السفير عدة أسئلة عن أشياء مختلفة. كان الشاب هو الإمام المختفي نفسه، ولم يره بعد ذلك(٣٥).

ويقصد كتاب التراجم بالزهري دائما محمد بن مسلم(٣٦)، وأصله من المدينة وعاش من ١٥٢ـ٢٢٤ هـ، ولكن انتماءه إلى الشيعة أمر مشكوك فيه(٣٧). ومهما يكن فإن الإمام الثاني عشر، إذا نحن أخذنا ما تقوله المصادر بعين الاعتبار، قد ولد بعد ٣٠ سنة من موت محمد بن مسلم هذا. ومن ثم لابد أن يكون الحديث عن علاقة الزهري بالسفير الأول حديثا خاطئا.

من الأسئلة الكثيرة، التي تهاطلت على السفير، هناك أسئلة عن الإمام المختفي تتصل بشكل مطرد بما إذا كان السفير يعرفه ورآه. وكان على السفير طبعا أن يجيب أنه يعرفه وأنه رآه، وإلا لأصبح منصب السفير، الذى يتقلده، أمرا مشكوكا فيه. ولم يكن من الطبيعي تماما أن يطرح سؤال عن اسم الإمام وشخصه. والغريب أن الكتب الشيعية تحدثنا أنه كان من الممنوع التلفظ باسم الإمام، وكان السفراء يعللون ذلك بأن معرفة الاسم ستعرض الإمام إلى مطاردة أعوان الخليفة. على أن الخطر،

---

(٣٣) نفسه ٢٦٨/٢٦٩.
(٣٤) نفسه ٢٣٧.
(٣٥) الطبرسي، ٢٤٥.
(٣٦) المنتهى ٣٧٩.
(٣٧) نفسه ٢٩٤.

الذى يعرض السفير نفسه، عندما يدعي معرفة المهدي ورؤية من تجد الحكومة في طلبه، ليس في الواقع أقل خطرا من ذكر اسم الإمام[٣٨].

عشرون سنة بعد اختفاء الإمام الحادي عشر، أي سنة ٢٨٠ هـ، مات السفير الأول كما يتبين من توقيع، أرسله الإمام المختفي إلى ابن السفير الأول وإلى الطائفة الشيعية، وبعد التعبير فيه عن تعازيه بموت رجل صالح[٣٩] يعين ابنه جعفرا[٤٠] خليفة له. وقد تولى الابن ، كما جاء في الخبر، دفن الميت في جانب الكرخ من بغداد بمسجد الدرب، وهذا المسجد يدعى هكذا لأنه يقع في شارع درب جبلة، الذى يقع بتقاطع مع شارع الميدان.

(٣٨) الغيبة ٢٣٠.
(٣٩) نفسه ٢٣٥.
(٤٠) نعرف أن له ابنا ثانيا يدعى أحمد، أنظر أعلاه ٢٦٩.

الفصل الخامس

السفير الثاني

في سنة ٢٨٠ للهجرة وصل إلى الشيعة توقيع من الإمام المختفي، يعين أبا جعفر محمدا في منصب أبيه المتوفى. وكان أبو جعفر قد ساعد أباه في أداء وظيفته عندما كان يشغل هذا المنصب. وكان الإمام الحادي عشر قد عين، كما سبق أن ذكرنا، أبا جعفر خلفا لأبيه. ومثلما حدث للسفير الأول لم يأت السفير الثاني إلى منصبه من غير صعوبة. فقد ذكر الطوسي شخصيات لها اعتبارها كانت تسعى إلى الوصول إلى منصب السفير، فكان من منافسيه أحمد بن هلال العَبِرتائي الكرخي، وأبو طاهر محمد بن علي بن بلال، ومحمد بن نصير النميري[١].

قيل إن أحمد بن بلال العبرتائي ولد سنة ١٨٠ هـ في عبرتا، وهي قرية في منطقة إسكاف[٢] وتوفي سنة ٢٦٧ هـ. فهو إذن لم يعش سوى الفترة الأولى من تولي السفير الأول لمنصبه،إلا أن علينا أن نذكر أحمد هنا، لأن الطوسي يذكره بالاسم ويقول عنه إنه لم يؤمن شغل السفير الأول لمنصبه، إلا أن علينا أن نذكر أحمد هنا، لأن الطوسي يذكره بالاسم ويقول عنه إنه آمن بالسفير الأول، ولكنه لم يؤمن بابنه، أي

(١) الغيبة ٢٥٩، المنهج ٣٢٧، وهناك يذكر نصير على أنه نصر، وأتباعه دائما النصيرية.

(٢) نفسه.

السفير الثاني. وعندما خاطبه الشيعة في ذلك، قال لهم إن الإمام هو الذى نصب بنفسه السفير الأول وأخبر بذلك جميع أتباعه. ولكنه لا يستطيع ادعاء شيء من ذلك بالنسبة إلى السفير الثاني، ولذلك فهو يرفض الاعتراف به. فطرد بسبب رأيه هذا من الطائفة الشيعية ولعنته، كما لاحظ الطوسي، وفيما بعد لعنه السفير الثالث أحمد من جديد[٣].

ولكن ما أورده الطوسي لا يتلاءم مع الأخبار الأخرى عن أحمد بن هلال العبرتائي الكرخي. وهذه الأخبار الأخرى لا تخلو بدورها من تناقض أيضا، ولذلك فإنه من الصعب معرفة الحقيقة. وجاء في مصدر آخر أن الإمام الحادي عشر كان قد لعن أحمد وتحدث عنه حديثا سيئا أكثر من مرة[٤]. وحسب مصادر أخرى فإن أحمد كان متصوفا تقيا وعالما كبيرا، وكان كتاب التراجم يزينون صورة طبيعته بملاحظة محببة، وهي أنه كان قد حج إلى مكة ٥٤ مرة مشيا على قدميه[٥]. ويقال إنه كان من علماء الكلام المعروفين ، ألف كتبا عديدة، منها كتاب «يوم وليلة» و«كتاب النوادر»[٦].

ومن أقوى الأقوال ضد أحمد بن هلال العبرتائي، التي تعود إلى الإمام حديث القاسم بن العلاء. فقد سأله الشيعة عن هلال وموقفه من الإمام، فقدم القاسم المسألة إلى الإمام كتابيا، فأجاب الإمام: ابن هلال مذنب ولن يغفر الله له ذنوبه. وابن هلال، كما جاء في هذا التوقيع يتصرف تصرف إنسان مجنون مغرور، ويحتفظ لنفسه فوق ذلك بالمال الموجه إلى الإمام. ولذلك فمن واجب القاسم بن العلاء والشيعة الآخرين الاعتراف بهذه الحقائق وتوضيحها لجميع الشيعة حتى لا يتمكن أمثال هؤلاء الناس من القيام بأعمالهم المضرة. ويقال إن القاسم بن العلاء قد

---

(٣) فهرست الطوسي ٣٩، المنهج ٤٨ وما بعدها.
(٤) الغيبة ٢٦٠.
(٥) المنهج ٤٨.
(٦) نفسه.

أخبر الإمام بمن بقي من الشيعة عند ابن بلال وبمن انفصل عنه، وإن القاسم أدى واجبه، لأن بعض الشيعة قد شكوا في صحة التوقيع، ولم يفهموا كيف يتم طرد رجل عظيم تقي. ولكن التقوى لا تفيد عندما يحول الله هذه الأعمال الخيرة إلى ذنوب. لقد كان الدهقان(٧) أيضا رجلا تقيا في خدمة الإمام، ولكن الله حول إيمانه لغروره إلى كفر، وهذا ما وقع لابن هلال، كما يفهم ذلك من توقيع الإمام.

وكان الشخص الثاني، الذي كان، حسب الطوسي، يطمح في عهد السفير الثاني إلى منصب السفير، هو محمد بن نُصير النُمَيري الفَهْري أبو شُعيب، وأصله من البصرة. كان رجلا معروفا في أيام الإمام الحادي عشر، وعندما أدرك هذا أجله، رفض الاعتراف بشرعية السفير الثاني. لذلك لعنه أتباعه وطردوه من طائفتهم. وحاول بعد هذا الطرد تغيير رأي السفير الثاني، ولكنه لم يحظ حتى باستقباله، وهكذا أبعده الشيعة عن طائفتهم(٩)، وأتباعه هم النصيرية أو النميرية(١٠)، وحافظوا على أنفسهم حتى يومنا هذا في الجبال المسماة باسمهم بمنطقة اللاذقية، في طرابلس وفي حماه بسورية. وكثير منهم يسكنون اليوم في حي الصالحية بدمشق وفي منطقة الحولة(١١). ولكنهم مختلفون بالنسبة إلى قيادتهم، ومعظمهم من أتباع الحسين بن حمدان الخصيبي(١٢).

---

(٧) يدعى الدهقان عُروة، وهو معروف باسم ابن يحيى (المنتهى ١٣٢ و٢٠١، الكشي ٣٣٢، المنهج ٢٢٠ و٣٩٨). وهناك إلى جانب عروة هذا رجال آخرون يلقبون بلقب الدهقان، ولكنهم يعتبرون بعيدين عنه من حيث القرابة. واسم دهقاننا الكامل (حسب المنهج ٢٢٠) عروة بن يحيى النخاس البغدادي، كان وكيلا وأمين صندوق الإمام الحادي عشر، ولكنه طرد ولعن بسبب ما اختلسه من الأموال.

(٨) الكشي ٣١٢، وعن العبرتائي ينظر إكمال الدين ٢٦٩، الغيبة ٢٦٠، النجاشي ٦٠ وما بعدها، فهرست الطوسي ٥٠، والطبرسي ٢٤٥.

(٩) الغيبة ٢٥٩، ٢٦٩.

(١٠) خاندني النوبختي ٢٦٦.

(١١) كتاب تقسيم جبل لبنان ورقة ٣ ب.

(١٢) نفسه.

وكان النميري حسب كتاب فرق الشيعة قد لعن منذ عهد الإمام العاشر على بن محمد العسكري، لأنه ادعى أن روح الله قد حلت في جسد الإمام، وأنه هو نفسه، أي النميري، رسوله. وكان أحد أفراد أسرة الفرات، وهو محمد بن موسى بن الحسن بن الفرات، قد وفر له الحماية. وعندما مرض النميري مرضا كبيرا، اجتمع أتباعه حوله، وسألوه عمن سيكون خليفته، فأجاب: أحمد. على أنه كان هنا لا بد من أخذ ثلاثة أشخاص يحملون هذا الاسم بعين الاعتبار، أحمد ابن الفرات، وأحمد بن أبي الحسين، وأحمد بن محمد بن بشر بن زيد. وهكذا لم يعرف أتباع النميري من عناه الميت من بين حاملي اسم أحمد ، ولما لم يتوصلوا إلى اتفاق فيما بينهم، انقسمت طائفتهم إلى ثلاثة مذاهب(١٣).

النصيرية يؤمنون بالتناسخ، لا من إنسان إلى إنسان فحسب، وإنما أيضا من إنسان إلى حيوان(١٤)، ولذلك كثيرا ما نجد في كتبهم كلمتي مسخ ونسخ(١٥). والنصيرية يقدسون كثيرا الأئمة الإثني عشر مثل الشيعة، ويحتفلون إلى ذلك بعيد ميلاد المسيح(١٦). والحسين بن علي بن أبي طالب لم يقتل في كربلاء، وإنما قتل رجل شبيه به كما صلب شخص آخر بدل المسيح. وشبيه الحسين هو حنظلة بن أسعد الشباني، ويرى النصيرية أن الشيعة والسنة غير محقين في دعواهم(١٧).

كان النميري المحتضر قد عين، حسب ما جاء في «فرق الشيعة» خليفة له يدعى أحمد، لكننا نسمع من جانب آخر أن أغلب النصيرية لم يعترفوا بأي أحمد من أولئك الثلاثة، وإنما اعترفوا بمحمد بن جُندب

---

(١٣) فرق الشيعة ٧٨، الغيبة ٢٥٩.
(١٤) تقسيم جبل لبنان ورقة ٥٧.
(١٥) الخصيبي ورقة ٢٣ ا.
(١٦) نفسه ورقة ٥٩ ا، وهناك أيضا ما يتصل باختيار هذا اليوم.
(١٧) نفسه ورقة ٣٥ ا.

بوصفه خليفة للنميري، وجاء بعده محمد الجُنبُلاني الجنان[١٨]. وقد قيل عن هذا إنه كان عالما كبيرا ومتصوفا، قام بالعديد من الأسفار. أنشأ في مصر طريقة سميت بالجنبلانية. وهناك تعرف على شخص يدعى الحسين بن أحمد الخصيبي؟؟؟؟، فتتلمذ عليه ورافقه في أسفاره[١٩]، وبعد موته أخذ مكانه، وسكن بغداد أولا، ثم انتقل بعد ذلك إلى حلب، حيث ألف كتبا كثيرة، خصوصا كتاب «الهداية»، الذى وضعه لحاكم سورية المعروف سيف الدولة[٢٠]. والمعروف من كتب الخصيبي هو ما يلي:

١) الإخوان

٢) كتاب المسائل

٣) كتاب تاريخ الأئمة

٤) كتاب أسماء النبي والأئمة

توفي الخصيبي سنة ٣٤٦ هـ ودفن في القسم الشمالي من حلب، والناس يسمون تمثال قبره: الشيخ بيراق[٢١]. وقد تفرع أتباعه إلى طائفتين: طائفة توجهت إلى بغداد واعترفت بالسيد علي الجسري بابا، بينما رأت الطائفة الأخرى في محمد بن علي الحلبي رئيسا لها.

وقد أُبيدت طائفة بغداد عندما فتحها المغول، واعترفت الطائفة الثانية بعد موت محمد بن علي الحلبي بسعيد ميمون الطَّبَراني خليفة له. ونقل الطبراني مقامه بسبب الحرب في حلب إلى اللاذقية وتوفي بعد ذلك بثلاث سنوات (٤٢٦ هـ). وقد سادت النزاعات بين أتباع هذه الطائفة حتى إن بعض القادة المفردين قد استولوا على منصب الباب بالقوة[٢٢].

(١٨) تقع جُنبُلة في العراق العجمي، العلويون ١٩٦.

(١٩) ذكر في المنهج بلقب الحضيني.

(٢٠) العلويون ١٩٧.

(٢١) نفسه ١٩٤ وما بعدها.

(٢٢) نفسه ٢٠١.

يوجد في القسم الشرقي بالمكتبة الوطنية ببرلين عدد كبير من مخطوطات النصيرية، منها تحت رقم ٤٢٩٢، Sign.Mq.477 قصيدة تنسب إلى الحسين بن حمدان الخصيبي، وتعرف باسم القصيدة القادرية، ويوصف علي بن أبي طالب في هذه القصيدة بصفات إلهية. وهناك قصيدة ثانية للمؤلف نفسه يرثي فيها الحسين بن علي في معركة كربلاء. ورغم أن القصيدتين لم تكتبا بلغة عربية جيدة وتحتويان على أخطاء نحوية كثيرة، فهما مهمتان بالنسبة إلى من يريد معرفة موقف النصيرية من الأئمة. وتبدأ القصيدة الثانية:

وباكيا يبكي على ربه	لستُ بحمد الله من حزبه
يبكي على المقتول في كربلا	لا خفّف الرحمن عن كربه
معتذر من سوء أفعاله	وعذرُه أعظمُ من ذنبه
قلت له لا تبك ذاك الذى	لم تطمحِ الأعداءُ في قتله
ظنوا ظنونا كلها باطلا	من قتله كان ومن سلبه
وهكذا عيسى جرى أمره	وما رواه القوم عن صلبه

(وفي المخطوط: جرا أمره!)

ولذلك فإن تماثيل الأئمة ليست قبور الأئمة، وهو ما يدعيه السطحيون من الشيعة والسنة، فالأئمة في السماء، وروح الإمام تنتقل إلى روح إمام آخر. وبهذه الطريقة تفسر النصيرية الغيبة، وانتقال روح الإمام مرة أخرى إلى شخص آخر يسمى ظهورا[٢٣]. وتوجد في المخطوطة المذكورة بالمكتبة الوطنية ببرلين خطب لجميع الأعياد الدينية على شاكلة الخطب المنبرية، وقد جمعها أبو سعيد الطبراني، خليفة الخصيبي. ويجد

---

(٢٣) قصيدة موت الحسين ص ٣٦ ـ ٣٨.

المرء بقية الأفكار النصيرية مبعثرة في «خطب منبرية» بالمخطوطة البرلينية[٢٤].

الوضع السياسي في فترة الغيبة الصغرى

لم يكن وضع الشيعة في العهد العباسي أفضل مما كان عليه في السابق، أي في أيام الأمويين. كان الشيعة وبنو العباس قد عملوا معا على إسقاط الدولة الأموية، ولذلك كان الحكام الجدد يعرفون جيدا الطرق، التي اتبعوها مع المتحالفين معهم والأمويون في غفلة عنهم. كان الخليفة العباسي الثاني، أبو جعفر المنصور، يراقب العلويين وأتباعهم مراقبة شديدة إذ كانوا عنده دائما محل ريبة. فكان يرسل جواسيسه ويحملهم بالرسائل والأموال إلى رؤساء العلويين ويكتب عليها «اسم أتباعهم» ليختبر اتجاههم[٢٥]. صحيح أن العلويين كانوا يعتبرون أنفسهم الخلفاء الحقيقيين للنبي وكانوا يسعون بنشاط إلى إسقاط العباسيين، ولكن الوسائل، التي كان المنصور يستعملها لقمعهم وإخضاعهم ، لم تكن بالسياسة الملائمة لهذه الحالة. ذلك أن اتباع سياسة القمع وسياسة توجيه التهم، التي لجأ إليها المنصور على هذا النحو، قد أبعدت عنه جميع من كانوا يتعاملون معه في السابق، وبذلك فتح بؤرا جديدة للشقاق والنزاع[٢٦]. واستمر اضطهاد العباسيين للعلويين وأتباعهم، إلى أن أصبح الضغط في النهاية أقوى مما كان عليه في أيام الأمويين[٢٧]. وكما حركت آلام «الهاشميين» قلوب جميع الناس للوقوف إلى جانب العباسيين ضد الأمويين، كذلك

---

(٢٤) ينظر عن النصيرية: السمعاني، ورقة ٥٦٢ ب، الفصل، ٤/١٨٨ ، المنهج ٣٢٧، شرح نهج البلاغة، ٢/٣٠١، الكشي ٣٢٣، الأشعري ١٥ ، تبصرة العوام ٤٢٠ ، الفرق ٢٣٩، الطبرسي ٢٤٤، خندني النوبختي ١٤٤، ١٤٧، ٢٣٥، ٢٦٦، ماسنيون، دائرة المعارف الإسلامية، مادة النصيرية.

(٢٥) الكافي ٢٦٦.

(٢٦) المسعودي ٨/٢٩٦.

(٢٧) الأغاني ١٠/١٠٥.

اكتسب العلويون بصفتهم شهداء سياسيين تأييد الناس لهم في صراعهم مع العباسيين، وتحول السخط إلى ثورات عديدة، سالت فيها دماء من كلا الجانبين.

لقد أخذ العباسيون، من أجل تقوية دولتهم من الناحية المعنوية، يضعون أحاديث تنسِب إلى العباس، عم النبي، جميع الفضائل، وتقيم الدليل على أن الدولة العباسية هي الدولة الشرعية الوحيدة. وكان الأمويون قد وضعوا مقابل فكرة المهدي، التي ادعاها الشيعة لأنفسهم وحدهم، فكرة سفيان، فكان بسبب ذلك من السهل على مطيع بن إياس أن يضع في مناسبة احتفالية حديثا عن النبي يقول فيه إن ابن الخليفة المنصور هو المهدي . والمهدي (سيأتي ويدعى) محمد بن عبد الله، وأمه لن تكون منا. و«منا» تعني الجنس القادم، أي بنو هاشم كلهم[٢٨].

واستغلال فكرة المهدي في الأغراض الحكومية والأعمال الخاصة يظهر بعض الأحداث، التي تبرز المصلحة السياسية من هذه الفكرة بطريقة شيقة ، تجعلنا نروي قصة من هذه القصص باختصار: جاء ذات يوم إلى المهدي، ابن المنصور، رومي (يوناني) ادعى أن أباه كان في السابق قيصر اليونان، واعترف علنا أنه قرأ في كتب آباء الكنيسة عن المهدي وعظمته وعدله وحكمه. ففرح الخليفة بشهادة الغريب أشد الفرح وبالغ في احترامه. وحين اكتشف الرومي (اليوناني) في المدينة منطقة غنية بالمياه، طلب من ولي نعمته أن يتنازل له عنها. ونصبت رُحِي فوق الأرض وأطلق عليها اسم «رُحِي البطريق». لقد كافأت الحكومة المالك الغريب بسخاء على حديثه «النفيس»، فكان يتلقى منها راتبا إلى أن وافته المنية[٢٩].

---

(٢٨) الأغاني ١٢/ ٨٥

(٢٩) الخطيب البغدادي (عند: G. Solomon, l'ntroduction topographique à (l'histoire de Bagdadh, p. 38.

كان العباسيون يأملون أن يصلوا إلى تقوية حكمه عن طريق هذه «الأحاديث» وأمثالها الموضوعة حسب الطلب، ولكنها كان ينقصها على العموم الخط السياسي الموحد. فالمأمون، ابن لخليفة الشهير هارون الرشيد، والعدو الأكبر للعلويين، كان هو نفسه على النقيض من أبيه. كان المأمون يحترم فضائل علي النبيلة، التي فاق بها أبا بكر وعمر. وهناك خليفة آخر، وهو المستنصر، كان على النقيض تماما من أبيه المتوكل. لقد منع هذا من زيارة قبل الحسين وأمر بهدمه. وكان يسمع في مجالس الشراب الأهاجي والأغاني الساخرة من علي، ولكن ابنه ألغى المحرمات كلها بعد وفاته أبيه وأعاد بناء ما هدم من المزارات وسمح للعلويين بتقلد المناصب ونيل الرتب[٣٠]. ولم يكتف الخليفة المعتضد (٢٧٩ ـ ٢٨٩/ ٨٩٢ ـ ٩٠٢) في أيام الغيبة الصغرى بحماية العلويين، وإنما ألف هو نفسه كتابا يلعن فيه عدو العلويين معاوية وطلب من جميع رعاياه قراءته[٣١]، ومن الممكن ذكر أمثلة مماثلة.

كان تنظيم الشيعة في وقت المحن بالذات أكثر تماسكا مما كان عليه في أوقات نيلهم حرية الحركة. ففي زمن المنصور، عندما كان الاضطهاد على أشده، كان جعفر الصادق أول من أرسل الرسل والوكلاء لنشر الشيعة في المناطق البعيدة من بلاد الخلافة[٣٢]. وقام الشيعة، مناهضةً لسياسة الجوسسة عند المنصور، ببناء نظامهم الآن على فكرة «التقية» حسب خطة حكيمة بثقة وأمان. وهناك روايات كثيرة عن التقية تعود إلى هذه الفترة وتنسب إلى جعفر الصادق[٣٣]. وكان المنصور قد ترك مقر إقامته في الكوفة وانتقل إلى بغداد ليبتعد عن أرض الشيعة. ولكنه لم يستطع تصفية قصره، الذى كان يغلب عليه أهل الشيعة. كان يقطين،

(٣٠) ابن الأثير/٧ ١٩ وما بعدها.
(٣١) نفسه، ٧/ ١٥٩، أبو الفداء، ٢/ ٢٦٨.
(٣٢) كاشف الغطاء، ٢٨ محرم ١٣٥٦
(٣٣) الكافي ٢١٩، ٤١٨.

وهو رجل في خدمة الخليفة المنصور، يرسل المال سرا إلى جعفر الصادق، لأنه كان يعترف به بصفته الإمام الحقيقي[٣٤]. وقد وضع عيسى بن روضة، وهو عبد وخادم أعتقه الخليفة، أول كتاب عن الإمامة[٣٥].

وكذلك كان قصر هارون الرشيد وجميع قصور الخلفاء، الذين كانوا يعادون الشيعة عداء كبيرا، مليئا بالشيعة المتسترين. أوضح علي بن يقطين للإمام أنه يشعر بالملل من عمله عند الخليفة، الذى هو فوق ذلك عدو للشيعة وليس إماما حقيقيا، لكن الإمام طلب منه أن يصمد، فهذه هي الطريقة الوحيدة للتخفيف من حدة غضب الخليفة ومساعدة إخوانه الشيعيين في الطائفة. ولم يكن يخلو قصر من قصور الخلفاء والسلاطين حتى منصب الحاجب من الشيعة، ولذلك كانوا يستطيعون الدخول إلى الخليفة دون عائق ويحولون بينه وبين استعمال الشدة والقسوة[٣٦].

لم يكن الخلفاء مجرد أدوات في أيدي موظفي القصر. فقد كانت مراكز القوة والنفوذ موزعة على العدد الكبير من الخدم، ولذلك أصبحت سياسة العباسيين ضد العلويين صورة لما يحدث في القصر من دسائس ومؤامرات. كانت الثقة بين الخليفة وبين وزرائه منعدمة. فلم يكن هناك من وزير يشعر بالاطمئنان في منصبه، ومن ثم كان يخشى على الدوام أن تذهب الوزارة عنه. وكان الخليفة نفسه عادة ضعيفا، وكان مستشاروه جميعهم لا يهتمون إلا بمصالحهم الخاصة. وكان الوزير مجبرا دائما على أن يكسب رضا رجال الحاشية عنه وعلى أن يكون له تأثيره في الرأي العام وفي رجال الجيش. وكان المترشحون للوزارة يستغلون لأغراضهم الخاصة دعوى أن الوزير الحالي ينتمي إلى المذهب الشيعي، وذلك ليخيفوا الخليفة ويدعوا إلى خلع الوزير من منصبه. كان للمنصور كاتب

---

(٣٤) فهرست الطوسي ٢٣٤.

(٣٥) النجاشي ٢٩.

(٣٦) مجالس المؤمنين، الفصل ١٠.

سري، وهو شيعي في دخيلته، يتولى إخبار إخوانه في الدين بكل نوايا الخليفة ومقاصده[٣٧].

في سنة ٢٧٨ هـ نشبت في جنوب العراق ثورة كبيرة ضد الخلفة المعتمد، وقد عرفت هذه الثورة في التاريخ باسم «ثورة القرامطة». فهاجموا كثيرا من الحجاج المتوجهين من بغداد إلى مكة في أثناء الطريق وقتلوهم، فاهتاج الرأي العام في بغداد لذلك إلى حد كبير. والمعروف أن القرامطة يدينون أيضا بالمذهب الشيعي. ووجد أعداء الشيعة في ذلك سلاحا عظيما لمحاربتهم ومحاربة من يظهر الميل إليهم. وفي النهاية لم يستغل الوزراء هذا السلاح ضد أهل الشيعة وحدهم، وإنما استغلوه أيضا ضد زملائهم من أهل السنة. فأطلق الأعداء الشخصيون على علي بن عيسى، وهو عدو لدود للشيعة، اسم قرمط، ولذلك فشلت سياسته وخلع من منصبه[٣٨]. وهناك وزير آخر، كان يناصب الشيعة العداء، وهو أبو قاسم الخاقاني، الذى تم خلعه وإسقاطه بنفس الطريقة. ولم يستغل رجال الدولة سلاح النميمة الخطير هذا وحدهم، وإنما استغله أيضا أشخاص غير رسميين للإطاحة بأعدائهم. فلم يكن من الممكن دفن المؤرخ ومفسر القرآن والفقيه الشهير ابن جرير الطبري، الذى توفي سنة ٣١٠ هـ، أثناء النهار، لأن أعداءه كانوا قد اتهموه بالانتساب إلى المذهب الشيعي[٣٩].

كان الخليفة في مثل هذه الأزمات في حاجة إلى شخصيات قوية، تستحق الثقة للتغلب على هذه الصعوبات، والواقع أنه حتى لو كان تحت تصرفه فعلا رجال من هذا النوع، يتسمون بالأمانة والحذق والمهارة، فإنهم ما كانوا ليستطيعوا محاربة كل ما كان هنالك من اتجاهات سياسية متباينة. وموظفو القصر والوزراء، الذين كان عليهم أن ينصحوا الخليفة،

---

(٣٧) ابن الأثير، ج ٥، ٢٠٧

(٣٨) عريب ٥٩.

(٣٩) تجارب الأمم ١/ ٨٤.

وأن يديروا دفة الحكم في الوقت نفسه، إما أنهم لم يكونوا يهتمون إلا بأنفسهم وإما أن عداءهم جعلهم عميا عن كل ما تقتضيه السياسية الحكومية. لقد حاول وزير المعتضد، عبيد الله، عبثا أن يبطل عزم الخليفة على لعن معاوية علنا، فلجأ إلى القاضي، وهو سني متعصب، وطلب منه أن يستعمل الحيلة لإبطال ما كان الخليفة قد عزم عليه. ولم يفعل عبيد الله هذا خوفا على سلامة الدولة، وإنما لأنه هو نفسه كان عدوا لدودا لعلي[٤٠]. وحاولت حاشية المتوكل أن توغر صدره على علي، لأنها كانت تتكون من أناس كانوا في الحقيقة عتقاء الأمويين[٤١]. ـ كان رجال حاشية خليفة آخر، وهو الراضي، قد تعودوا على إضحاك سيدهم عن طريق السخرية من شخصيات من الأسرة العلوية، وعندما يضحك الخليفة ويتكلم عن العلويين، كانوا في الغالب ينشرون كلماته ويذيعونها بين أفراد الشعب[٤٢]. وكانت كل الوسائل ملائمة لرجال الحاشية من أجل التأثير على الخليفة: كان الراضي قد أقسم ألا يشرب الخمر، ولكن مستشاريه استطاعوا أن يحملوه على استصدار فتوى من الفقهاء تثبت الصحة الشكلية لقسمه. فاعتبر القسم باطلا، فعاد الخليفة إلى الإدمان على الخمر[٤٣] ـ لقد أراد الخليفة المكتفي (٢٨٩/ ٩٠٢ إلى ٢٩٥) مرة من وزيره أن يعيره بعض الكتب، فأمر الوزير أن توضع أولا جميع الكتب أمامه هو نفسه، حتى لا يقع بين يدي الخليفة كتاب تاريخي، يتعلم منه كيف يجب أن يسير الإنسان شؤون دولته[٤٤].

كان هناك أيضا وزراء في أوقات، تسودها الاضطرابات ويتجلى فيها الضعف السياسي، كان الرأي العام يعرفهم بأنهم أصحاب قناعة شيعية،

---

(٤٠) ابن الأثير ٧/ ١٧٣.
(٤١) نفسه ٧/ ١٩ وما بعدها.
(٤٢) الصولي ٥٠.
(٤٣) نفسه ٤٠.
(٤٤) الفخري ٥.

مثل أسرة الفرات، التي كان لها نسب عريق نبيل. لقد تولى لفترة طويلة أعضاء من أسرة الفرات القيادة عند الشيعة. لقد وصل معظم أبناء هذه الأسرة بفضل مهارتهم إلى المراتب المشرفة والوظائف السامية. وكان لهم تأثير كبير أيضا على المتعاقبين على الخلافة. فعندما تولى المعتضد الخلافة، أراد أن يعتقل الأسرة كلها، ولكنها استطاعت أن تكون في مأمن منه في الوقت المناسب[٤٥]. وكان على رأس أسرة الفرات أبو الحسن علي بن محمد بن الفرات، وهو صديق حميم ومستشار للمتوكل، كان سياسيا قديرا وحاكما ماهرا، ولاه الخليفة المقتدر (٩٠٧/٢٩٥ إلى ٩٣٢/٣٢٠) الوزارة (سنة ٩٠٨/٢٩٦). لقد تقلد أبو الحسن هذا المنصب ثلاث مرات في أوقات خطيرة، تفاقمت فيها الأزمات المالية والاضطرابات السياسية[٤٦].

وجند أعداء أسرة الفرات للإطاحة بها كل ما لدى أهل السنة من تعصب متطرف على الشيعة وكراهية لهم. فكان أبو الحسن علي بن عيسى بن داود بن الجراح من ألد أعداء أبي الحسن علي بن محمد بن الفرات. وهكذا أخذ يثير الناس ضده بأسوأ الطرق، وتزيّا بزي السني المتعصب، واتهم الفرات بوصفه شيعيا بالزندقة[٤٧].

كانت سياسة أسرة الفرات تسعى إلى توحيد الشيعة، وجمع كلمتهم، وجعلهم متراصين خلف سياستها، ويعود السبب في ذلك إلى أن مناهضة الشيعة للأغلبية السنية في بغداد ما كان لها الأمل في النجاح، إذا أخذتها على عاتقها فرقة شيعية واحدة. وجلبوا عددا من شخصيات الإثني عشرية إلى الوظائف والمناصب الإدارية ليضمنوا مكانتهم الخاصة مثل أبي سهل إسماعيل النوبختي وغيره[٤٨]. ولكننا لا نجد عند الفرات

---

(٤٥) ابن الأثير ١٥٩/٧.
(٤٦) آثار الشيعة ٤/ ٣٤
(٤٧) خنداني النوبختي ٩٧ـ ٩٩.
(٤٨) نفسه ٩٧، النجاشي ٢٣.

تفضيلا لمذهب شيعي على مذهب آخر. وقد منح محمد بن موسى بن الحسن بن الفرات حمايته لمحمد بن نصير النميري المذكور، ابن الوزير ، المحسن، وساعد الشلمغاني، بل إن الوزير وابنه كانت لهما صلة حتى بالقرامطة.

كان حامد بن عباس أيضا عدوا من أعداء ابن الفرات الألداء، وكان ينافسه منافسة شديدة. واستعمل حامد إلى جانب وسائله الأخرى الحركة القرمطية ليثبت للخليفة أن هناك علاقة بين الشيعي ابن الفرات وبين القرامطة، الذين كانوا يعتبرون من الشيعة، ليصل بهذه الطريقة إلى إسقاط الوزير والإطاحة به. كان المقتدر يخاف القرامطة إلى حد ما ويحرص كل الحرص على معرفة أخبار الحركة القرمطية. وكان بعض الناس يستغلون الفرصة استغلالا واسعا من أجل المتاجرة بالأخبار، وفي النهاية مالت كفة التأثير لصالح الأعداء: فهو شيعي، والشيعي دائما ضد الخليفة. ولذلك فمن الأفضل أن يبعد عن منصبه[٤٩]. وقد اضطربت العامة في بغداد بقوة عن طريق الدعاية، وطالبت بسقوط وإعدام «القرمطي الصغير والكبير» كما سمي الوزير وابنه. وأسقط ابن الفرات وابنه وتم قتلهما سنة ٣١٢ هجرية[٥٠].

وفي الوقت نفسه، الذى كان فيه للشيعة نفوذ في الحكومة، منذ سنة ٢٥٤ هجرية، ازدهرت في قسم آخر من الخلافة، بشمال العراق، السلالة الأميرية حمدان، أسرة سيف الدولة، التي امتدت قوتها من منطقة الموصل إلى حلب وسورية الشمالية. كانت هذه الأسرة تدين أيضا بالمذهب الشيعي، ولكن أفرادها لم يكونوا ينتمون مثلهم مثل ابن الفرات إلى الفرق الشيعية المتطرفة، لأن دعامة من هذا النوع لا بد أن تكون ضعيفة، ولذلك أرادوا أن يوحدوا الشيعة خلفهم. وهكذا وجد

(٤٩) تحفة الأمراء ٣١٥.

(٥٠) المنتظم ١٩٦/١ في حوادث سنة ٣١٢ هجرية.

الشلمغاني، الذى سنتحدث عنه في مكان آخر، وباب النصيرية المأوى والحماية عند ناصر الدولة الحسن بن حمدان[٥١].

يقال إن نصير الدولة قد درس على المفيد، ثم إنه أهدى إلى تلميذه الأميري كتابا عن الإمامة[٥٢]، ونقرأ أخيرا أن نصير الدولة كان في بدايته يسخر من الباب، ولكنه أصبح بواسطة ما رواه له عمه عن قصة كرامة السفير الثاني، التي عاشها عمه ذاته، رجلا متدينا[٥٣]. فإذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن البويهيين في بلاد فارس كانوا قد أنشئوا ملكهم وبدؤوا يلعبون دورا قبل نهاية الغيبة الصغرى، فلا ينبغي لنا أن نرى في صعود أسر شيعية مفردة الكفاح المشترك لجميع أفراد الأسرة المقدسة، كما حدث ذلك في الأزمنة السابقة. فالحديث لا يدور هنا عن الشيعة وانتشار تعاليمهم، وإنما يدور بالدرجة الأولى حول مصالح الأمراء المفردين، ولذلك لم يعلن السفراء عن ميلهم إلى الاتصال المباشر بالأسر، ولم نعرف عنهم مشاريع من هذا النوع.

كانت بغداد ملتقى الشيعة ومركزهم. ففيها كان السفير يؤدي وظيفته، وفيها كانت إقامة الأسرة الشهيرة بسطام، التي تقلدت مناصب عالية شأنها شأن أسرة الفرات[٥٤]. وفي بغداد أيضا كانت تقيم أسرة النوبختي، التي تقلد أعضاؤها مناصب دينية ودنيوية سامية، ونالوا المراتب المحترمة. ومن بغداد كان رجال الشيعة العاملون في السر يرسلون رسائلهم الكثيرة إلى إخوانهم في الدين وإلى الثوار[٥٥]. كانت شبكة الاتصالات قوية وسريعة في عملها، حتى إن الشيعة كانوا كلهم يعرفون على القرب والبعد متى يقوم الخليفة أو وزيره بعمل ضدهم. فقبل أن ينفذ عبيد الله بن سليمان مشروعه في القبض على كل وكلاء الإمام،

---

(٥١) العلويون ١٩٧.
(٥٢) آثار الشيعة ٣/١٣٨.
(٥٣) بحار ١٣/١١٩.
(٥٤) خنداني النوبختي ٢٢٣.

كان الأمر قد صدر إلى جميع الوكلاء بعدم جمع الخراج، بحيث لم يتم جمع الخراج في هذه السنة[٥٦].

كان للقصر دائما تأثير على الخليفة، فلذلك يجب علينا أن نبحث هناك عن أصول أغلب المؤامرات والمشاريع السياسية لإسقاط الحكام. ومن أجل هذا كان من المهم أن يضمن المرء لنفسه تأييد رجال القصر، وكان المرء يستعمل لذلك أتقياء الناس والخطباء من ذوي الشخصيات الكبيرة الجذابة. كان نصر الحاجب قد أوجد لهذا السبب وظيفة من الوظائف الخاصة وعين فيها المتصوف الشهير الحسين بن منصور الحلاج، واتبع نفس الطريقة المحسن بن الفرات، الذى أسند هذا المنصب إلى الشلمغاني[٥٧].

ولم يكن الصراع الآن قائما بين السنة والشيعة، وإنما أصبح بين أهل السنة أنفسهم. فعندما أسقط العباسيون الأمويين، أرادوا أن يمزجوا مصالحهم السياسية بالدين بطريقة جديدة: لقد رويت فجأة أحاديث كثيرة عن النبي تتحدث عن حق العباسيين في الخلافة[٥٨].

كان العباسيون يبدؤون في عيد الفطر بالصلاة، وتتلوها مباشرة الخطبة، مع التخلي عن الأذان الثاني والإعلان عن الإقامة، لأن الأمويين كانوا يبدؤون بالخطبة والأذان والإقامة والصلاة في الوقت نفسه[٥٩].

ومنذ تولي أبي يوسف منصب قاضي القضاة على يد الخليفة هارون الرشيد أصبح منصب القضاء، منظما، فقد أسند أبو يوسف مناصب القاضي إلى أتباع أستاذه أبي حنيفة وتلاميذه، وقد ساعدت الحكومة أبا

---

(٥٥) المنتظم ٢/ ٢٩ في حوادث ٣١٢، تجارب الأمم ٢/ ٣٢.
(٥٦) الكافي ٢٢٩.
(٥٧) تجارب الأمم ٢/ ٧٧٦.
(٥٨) ابن الأثير ٥/ ١٦٥.
(٥٩) نفسه ٥/ ١٤٤، سطر ٥ ـ ٤ من أسفل.

يوسف خلال ذلك قدر استطاعتها، وعن طريق هذا المساعدة انتشر مذهب أبي حنيفة ونال استحسان الحكومة. وفي النهاية صار هذا المنصب امتيازا للحنفية، بحيث إنه لم يكن فيما بعد يعين في منصب قاضي القضاة على العموم غير الحنفية. وعندما عين الخليفة القادر شافعيا بوصفه قاضي القضاة، ثار سكان بغداد في الحين، فكان على الخليفة أن يرضخ لرغبتهم ويترك المنصب للحنفية[٦٠].

وقد حاول المأمون، الذى كان يساند المعتزلة، أن ينشر رأيهم في القرآن بين العامة بجميع الوسائل. وأقسم لخليفته، لأخيه، في وصيته أن يواصل سياسته. فاستجاب الأخ لرغبة أخيه وطارد كل معارضي المعتزلة: لقد عوقب الفقيه الشهير أحمد بن حنبل لاعتراضه على سياسة الخليفة[٦١].

إن اتخاذ موقف حزبي كهذا، وإظهار الرغبة في مساندة اتجاه فقهي ليتغلب على اتجاه آخر، لم يكونا يدلان على السياسة الرشيدة، التي يتبعها الحكام، فقد سببا للخلافة كثيرا من الاضطرابات والمصاعب. كان هناك حقا رجال يحذرون الخليفة ويشيرون عليه بالبقاء على الحياد، ولكن أصواتهم غطت عليها أصوات أولئك الذين كانوا يريدون أن يستغلوا الخليفة لأغراضهم الشخصية[٦٢]. وعمت تاريخ بغداد في ذلك الحين الانفجارات الدينية المتطرفة الحنبلية والشافعية والشيعية وغيرها. وكانت المساجد منطلقا لدعايات لا رادع لها ضد الحكومة وضد من يخالفهم الرأي. ولذلك أمر الخليفة بتسوية مساجد كثيرة بالأرض «بوصفها بؤرا للثورة». وحذر الخليفة الراضي الحنابلة لآخر مرة من التمادي في استعمال مثل هذه الوسائل الدعائية هذه، ولما لم يستجيبوا له أمر بهدم

---

(٦٠) أحمد تيمور ٩.

(٦١) ضحى الإسلام ١٦٣ وما بعدها.

(٦٢) نفسه ١٥٢.

مسجد اجتماعهم[٦٣]. وقد هدم مسجد براثا عدة مرات، مرة في زمن المقتدر، لأن الشيعة استعملوه مكانا لاجتماعهم ودعايتهم ضد الدولة[٦٤].

عمل السفراء

لقد جعل الوضع السياسي وانعدام الأمن عموما، الذى لم يتسبب فيه الشيعة فقط، من الصعب على رؤساء الشيعة أن يظهروا إلى الرأي العام لنشر دعايتهم ومبادئ تنظيمهم. فكان هناك، كما ذكرنا، موظفون شيعيون سامون في جميع الأوقات، ولكن أوضاعهم هذه لم تكن تسمح لهم بمعاونة إخوانهم في الدين علنا. ثم إن مصالح الموظفين الشيعيين السامين من أصحاب النفوذ لم تكن تتلاءم دائما مع سلطة السفراء المحدودة، التي كان يخضع لها الرفيع والمنحط بصفتهم نوابا للإمام. يمكننا أن نفهم لماذا كان من بين الأغراض السياسية السامية، التي كان الوزراء الشيعيون، من أمثال وزراء أسرة الفرات، أن يتوصلوا إلى توحيد جميع الشيعة تحت قيادتهم وأن يقضوا على المطامح الخاصة للشيعة الإثني عشرية. ولذلك لا يكاد المرء يستطيع تكوين صورة واضحة عن علاقة السفير الثاني بازدهار أسرة الفرات في أيامه.

كان السفير الثاني يؤدي مهمته بنشاط، ويراسل وكلاءه بجد واجتهاد، ويوجه إليهم توقيعات عن إسناد الإمام المنصب إليه بواسطة رسل من الشيعة[٦٥]. وكان رسل الشيعة يأتون من بعيد إلى السفير في

---

(٦٣) ابن الأثير ٨/ ١٠٧.

(٦٤) المنتظم ٢ ورقة ٢٩ ب.

(٦٥) الغيبة ٢٣٤؛ نود أن نسجل هنا أن من بين الوسائل العديدة، التي يستعملها الشيعة وغيرهم من المنظمات السرية، الحمام الزاجل، الذى يعود الفضل إليه في معرفة رؤساء المنظمة بأحداث المناطق البعيدة. وكثيرا ما كان هؤلاء الرجال يقدمون علمهم على أساس أنه علم من الله. فهناك شيء من هذا يروى عن عبد الله بن ميمون القداح (ينظر الفهرست ١٨٧)، وأبي عبد الله الشباس وأبيه الحسن

بغداد، يحملون إليه ما جمعوه من خراج ويوجهون مطالبهم إلى الإمام. وقد اكتسب السفير خلصاء في الأقسام المختلفة من بغداد، فكانوا يترقبون رسل الشيعة ويرشدونهم إلى بيت السفير، ويأخذون منهم المال ويحملونها إليه. وكان من بين هؤلاء الخلصاء أبو جعفر محمد بن علي الأسود وعبد الله جعفر بن محمد المدائني(٦٦).

وضع السفير الثاني، ليكون بمنجاة من مطاردات الخليفة من قبضة شرطته، نظاما معقدا للوساطة بينه وبين نوابه في الأماكن الشيعية: كان الوكلاء يجمعون ما تتبرع به الطوائف من جميع الأشياء، التي يودون إرسالها إلى الإمام، ويرسلونها مع الرسل تحت اسم «مال الغريم»، أي تخلص المؤمن مما عليه من ديون! - وهو رقم سري خاص بالإمام - إلى الإمام في بغداد. وكان خلصاء السفير يترقبون الرسل في أماكن معينة من المدينة. وللتعرف عليهم يذكرون للرسل الاسم والبضاعة المنقولة. أما إرسال الأخبار المهمة، خصوصا ما يتعلق منها بالخطر الداهم، فإن السفير كان يستعمل رسلا آخرين، قد لا يكونون على دراية بما تحتويه الرسائل. ويروى أن هؤلاء المخبرين يحولون بعض مراسلات الوكلاء عند وجود الخطر، من بغداد إلى مكان آخر(٦٧). وإدخال خراج الطوائف ليس جديدا في أيام السفراء، وإنما يعود إلى أيام الأئمة. فقد كان لهؤلاء نوابهم في جميع المراكز الشيعية من اليمن إلى بلاد فارس. ليس من الممكن تقدير المدخول السنوي للإمام بصورة مؤكدة، لأن كل شيء كان يتم في سرية تامة. على أن الأمثلة الكثيرة الواردة في الكتب عن هدايا

علي بن الحسين بن محمد (توفي سنة ٤٤٠ هـ). ويروى عن هذين الأخيرين زيادة على ذلك أنهما كان لهما عمل سري، يتمثل في مراسلة من البصرة تتم عن طريق استعمال الحمام الزاجل، واعتبرا أخبارهما معجزة إلهية (ينظر تلبيس إبليس، ٤١٣، ٤١٥).

(٦٦) الغيبة ٢٣٩، ٢٤١، وانظر عن أبي جعفر الأسود في المنتهى ٢٨٣.

(٦٧) الغيبة ١٩١ وما بعدها.

علي بن يقطين وأبيه إلى الإمام تقدم لنا تصورا عن المبالغ الكبيرة(٦٨). وكذلك هدايا الإمام إلى أصدقائه تقدر بثروة هائلة: ٣٠٠٠٠ ألف دينار لا تعد على نحو ما أمرا نادرا(٦٩)، ولا يقدر على مثل هذا الكرم إلا الخلفاء أو السادة الأغنياء.

يمكن أن نستخلص من هذه الأخبار أن الناس، من جميع الطبقات، من الأمراء إلى الناس البسطاء، كانوا يحملون إلى السفير قدر استطاعتهم: كل الأشياء القيمة من الدنانير الذهب إلى قطع الثياب. مع اختلاف المانحين والأشياء الممنوحة ليس من السهل تقدير القيمة الإجمالية لذلك.

كان الناس قد جمعوا سنة ٢٦١/٦٢ فيديناور ١٦٠٠٠، ووضعوها أمانة عند رجل معين اسمه أحمد، ويعرف باسم أستاره، واستلم في مكان آخر ملابس وأكثر من ١٠٠٠ دينار(٧٠). وفي حالة أخرى توفي أمير وترك حصانا وسيفا، فلم يلبث أن ظهر رسول السفير عند ورثته في الوقت المناسب ومعه رسالة إليهم، وقدر ثمن ما عندهم بـ ١٠٠٠ دينار وطلب منهم أن يسلموا إليه المبلغ ليقدم إلى السفير(٧١). وجمع كاتب من مدينة مرو ١٠٠٠ دينار وبعث بها إلى السفير(٧٢). وأرسل الوكيل ١٠٠٠ دينار ومبلغ من الدراهم، التي تسلمها، إلى وكيله المقيم في سامراء(٧٣). وجاءت امرأة من قرية آبه، كانت قد وفرت ٣٠٠ دينار، إلى بغداد لترى السفير وتقدم له المال بنفسها(٧٤).

---

(٦٨) المنهج ٢٤٨، مجالس المؤمنين ٧٨.
(٦٩) الغيبة ٢٢٦، يذكر هناك مبلغ كبير وهو ١٠٠٠٠٠ دينار، الكشي ١٧٤ و٣٤٤.
(٧٠) بحار ٧٩/١٣.
(٧١) نفسه ٨٥.
(٧٢) نفسه ٨٧.
(٧٣) نفسه ٨٩.
(٧٤) نفسه ٢٠٩.

وكان الذهب والفضة يرسلان سبائكَ إلى الوكيل، فقد أرسل غني من مدينة بلخ سبائك من هذا النوع، وحمل آخر معه من بخارى عشر سبائك[٧٥]. وقدمت امرأة للسفير سوارا ذهبا، وخاتما بحجر نفيس، وأقراطاً بالأحجار الكريمة وجواهر باهضة الثمن[٧٦]. وكان النساء يرسلن أيضا الألبسة إلى الإمام، وأُهديت له بيوت، وكانت التبرعات تتكون من مثل هذه الأشياء الباهضة الثمن ومن الأشياء التافهة على حد سواء.

من هذه الأمثلة ومما لم نذكره منها نستخلص أن الخراج كان يأتي السفير من المناطق المختلفة، بعضها بعيد جدا، من بلخ وبخارى وديناور وآبه والعراق وقم واليمن وغيرها.

وكان للسفراء إلى جانب نوابهم مسيرون معينون يهتمون بالأوقاف[٧٧]. ويبدو أنهم كانوا، بفضل وسطائهم، على علم بسير الأمور وحالة الأوضاع في الدولة ، وكانوا ملمين بالوضع الأمني في البلاد أكثر من إلمام الخليفة به. عندما تصل قافلة شيعية إلى بغداد، كان السفير هو الذي يحدد لها مدة إقامتها في المدينة وموعد سفرها منها. ويروى أن قافلة تجرأت على السفر قبل موعده، فهاجمها البدو في الريف ونهبوها وسلبوها ما كانت تحمله معها، في حين أن قافلة أخرى، سافرت بعد أن أشار عليها السفير بذلك، لم يعترض طريقها أي منازع، وكان السفير يأمر أتباعه بالعناية حتى بدواب القافلة[٧٨].

كان في بغداد أيام السفير الثاني رجال آخرون، يطلق كل واحد منهم على نفسه اسم السفير. وكانت لكل منهم دار تسمى «دار النيابة». فاليقطاني والأحمر ـ هكذا كان اسماهما ـ كان لهما حاشية من الخدم والأتباع. وكان هذان السفيران يجلسان في ثياب أنيقة وسط أناس،

---

(٧٥) نفسه ٩٢.

(٧٦) نفسه ٩٠، ثم ٩٧، ١٨٢ وما بعدها.

(٧٧) بحار ٩١/١٣.

(٧٨) نفسه ٨٨.

يتناقشون في المسائل الدينية. ولكن الشيعة يقومون بعرض المسألة من جانبهم كما لو أن منافسي «السفير الحقيقي» لم يستطيعوا الاحتفاظ بمناصبهم فترة طويلة(٧٩).

ويظهر أن سلطة السفير الثاني كانت أكبر من سلطة الأغنياء من ملاك الدور والأراضي. كان إلى جانبه عشرة مستشارين شرفيين من قادة الشيعة(٨٠). وكان بقية أعيان الشيعة وعلمائهم على اتصال دائم به مثل أبي سَهل النوبختي، وأبي علي بن هُمام، وأبي عبد الله بن محمد الكاتب، وأبي عبد الله البَقْطاني، وأبي عبد الله بن الوَجْنَاء(٨١)، وعبد الله بن جعفر الحِمْيري(٨٢) وأحمد بن ميتال وابنه جعفر(٨٣). كانوا يجتمعون عنده ويتناقشون معه في مسائل التوحيد والفقه، ويتعلمون منه، فقد كان له اطلاع واسع على الفقه، لأنه كان قد جمع أحاديث كثيرة عن الإمام الحادي عشر والثاني عشر وعن أبيه(٨٤).

وكان سؤال المتسائلين الأساسي يتصل بعلاقته بالإمام المختفي. وإذا كان الإمام الحادي عشر والسفير الأول لم يذكرا اسم مكان معين للمختفي ولم يكن لديهما سوى دعوى الالتقاء به، فإن السفير الثاني كان يذكر رواية جديدة: لقد رأى الإمام، فقد كان موجودا في كل حجة إلى

---

(٧٩) نفسه ٧٩. توفي الأحمر أبو يعقوب إسحاق بن محمد بن أحمد بن إبَان الكوفي سنة ٢٨٦ هـ. كان مصابا بالجذام، ويروى عنه أنه غطى البقع البيضاء باللون الأحمر حتى لا تبرز من القطع الحمراء. ولذلك عرف بالأحمر، وقد أطلق على أتباعه الإسحاقية نسبة إليه. وقد بقي مذهبه حتى عصر البغدادي (توفي سنة ٤٦٣ هـ) بالمدائن قرب بغداد. ويذكر البغدادي أن الإسحاقية قد ألهوا عليا (ينظر خنداني النوبختي ١٣٥)

(٨٠) الغيبة ٢٣٩ وما بعدها.

(٨١) نفسه ٢٤٢.

(٨٢) نفسه ٢٣٧، ٢٣٤.

(٨٣) نفسه ٢٤٤.

(٨٤) الغيبة ٢٣٦ وما بعدها.

مكة، ينظر في الناس ويتعرف قلوبهم، والناس ينظرون إليه ولا يتعرفون عليه. ومرة أخرى قال السفير الثاني إنه رآه أخيرا عند حجه إلى مكة، ولكنه تجنب الجواب عن سؤال يتصل باسم الإمام بدعوى أنه من الممنوع ذكر اسمه، وإلا فإن اسمه سيعرف بين العامة ويسمع الخليفة به فيحرص على إرسال من يبحث عن حامل الاسم. وعلى هذا فالسكوت هنا هو الجنة، والبحث عن الإمام والسؤال عن اسمه هو النار. وأضاف السفير الثاني إلى ذلك أنه رأى في مكة كيف كان الإمام يتوسل إلى الله أن يسمح له بالعودة إلى شيعته بأسرع ما يمكن ليتسنى له الانتقام من أعدائه ومضطهدي المؤمنين به(٨٥). وأصبحت الآن لفكرة الغيبة عظمتها وشهرتها، فقد كان الإمام يزور كل موسم من مواسم الحج من غير أن يعرف، فيرى الناس ويتعرف قلوبهم، ثم اتسع مدلول هذه الكلمة فيما بعد: إن الإمام يساعد من هم في محنة من غير أن يتعرف عليه أحد.

وأخبر الإمام المختفي السفير الثاني بأنه سيموت قريبا، ومن أجل هذا يجب عليه أن يقوم بجميع الاستعدادات لذلك. وقد جاء في الكتب أن السفير قد حفر قبره بنفسه، وأعد لوحة، توضع فوقها جثته في القبر، وأمر بتزيينها بآيات من القرآن الكريم وبأسماء الأئمة، وأخبر بيوم وساعة موته(٨٦). ولم يسم السفير خليفة له حتى ما قبل موته بقليل. فدارت شائعات كثيرة حول ذلك، فأشار بعض الناس بأحمد بن ميتال أو ابنه جعفر، ذلك أن السفير الثاني لم يكن يتناول طعامه منذ حادثة لم تعرف طبيعتها إلا في منزل هؤلاء الخلصاء(٨٧). على أنه طرح في الوقت نفسه، حسب ما جاء في الأخبار، اسم الحسين بن روح بن أبي بحر النوبختي،

(٨٥) الغيبة ٢٣٧.
(٨٦) نفسه ٢٣٨.
(٨٧) نفسه ٢٤٠، ويذكر أبو الفداء ٢/ ٣٣٠ في أحداث سنة ٣٠٥ هـ موت أبي جعفر محمد بن عثمان العسكري السمان، رئيس الإمامية وسمى نفسه بابا الإمام المنتظر، وأنظر الغيبة ٢٣٨ ـ ٢٤٢ فيما يخص ما يلي.

لأن السفير كان سنتين أو ثلاث سنوات قبل موته قد كلف هذا الرجل باستلام الأموال نيابة عنه. وكانت هناك مراسيم، يجب إتمامها عند تسليم الأموال إلى السفير: يذكر الاسم ومبلغ المال، ويذكر في النهاية أنه يتسلم المال باسم الإمام الثاني عشر. ويروى أن حاملي المال كانوا يخافون من تسليم المال إلى ابن روح، لأنه لم يكن سفيرا ولم يكن يقدم لهم وثيقة الاستلام. لذلك اشتكوا منه عند السفير، ولكن السفير طمأنهم. وعندما كثرت الشكاوى تقدم هؤلاء الناس بأنفسهم إلى السفير، فشرح لهم، كما قالوا، سبب تصرفه: إن ابن روح نائبه وخليفته بعد موته، ففرح هؤلاء الناس بهذا الخبر، واطمأنت قلوبهم.

لم تكن شهادات عدد قليل من الناس كافية بالنسبة إلى قادة شيعة هذا العصر لضمان الخليفة، فزاروا السفير في مرضه الخطير وتلقوا منه الجواب الصحيح، وهو أن ابن روح خليفته. وقد روى جعفر بن أحمد بن ميتال، الذى كان في مرتبة ابن روح أو ربما كان أقرب منه إلى السفير، أنه وقف إلى جانب القادة، بينما كان السفير المعين، ابن روح، عند قَدم المحتضر، فنظر السفير إليه في تلك اللحظة وعين ابن روح خليفة باسم الإمام، وعندئذ بدل جعفر مكانه الشرفي بمكان بن روح.

ومات السفير بعد نعيين خلفائه، ودفن في القبر الذى حفره بنفسه في شارع باب الكوفة بالجانب الغربي من بغداد، الذى كان يقع فيه أيضا منزله وأراضيه(٨٨).

---

(٨٨) هنا ينتهي ما نشره المؤلف بعنوان «السفيران الأولان للإمام الثاني عشر» في مجلة الإسلام المشار إليها أعلاه، وأعترف أني استفدت منه في إعادة صفحة كاملة إلى مكانها في النص، كانت غير موجودة في النسخة المرقونة، وكذلك إزالة الاضطراب، الذى اعترى الصفحات الأربع السابقة قبله، وقراءة كلمات بخط اليد القديم بالألمانية تعذرت علي قراءتها. وفيما عدا هذا فليس هناك اختلاف بين النصين، حتى من حيث المصادر في نهاية المقال والأطروحة ـ المترجم.

الفصل السادس

السفير الثالث أبو القاسم الحسين بن روح

كانت للعرب حتى سنة ٣٠٤ أو ٣٠٥ هـ، سنة وفاة السفير الثاني، القيادة الرسمية للشيعة، فقد كان الأئمة الاثنا عشر والسفيران الأولان من العرب. وقد كسرت تلك القاعدة بتعيين ابن روح سفيرا: لأول مرة يقود الشيعة فارسي. كان هناك منذ فترة طويلة عدد كبير من الفرس بين الوكلاء والعلماء، الذين كانوا على صلة بالإمام، وكانوا قد عملوا على نشر نفوذهم. عندما كان الأئمة لا يزالون يسعون في الأرض، كان الفرس خاضعين لهم مثل العرب تماما، وكان الأمر كذلك حتى في أيام السفيرين الأولين. وبتنصيب الفرس بدأت مرحلة جديدة، تغلب فيها النفوذ الفارسي على النفوذ العربي.

من المؤكد أن أصل ابن روح من بلاد فارس، وهو ينتمي إلى الأسرة الشهيرة بني نوبخت، التي لعبت دورا في السياسة، وفي العلوم بشكل خاص. كان الجد الأول نوبخت قد أسلم في أيام الخليفة المنصور وأصبح منجما في قصر الحاكم. ويتساءل مؤلف خنداني النوبختي عما إذا كان السفير الثالث ينتمي إلى تلك الأسرة من أبويه معا أو من جهة واحدة فقط. وبما أن المؤلف لم يجد في أسرة نوبخت اسما مثل روح بن أبي بحر، ولأن السفير يعرف دائما باسم النوبختي ولأنه دفن في مقبرة الأسرة، فقد غلب على ظنه أنه ينتمي إلى الأسرة من جانب أمه، كما هو

الأمر بالنسبة إلى أبي محمد الحسن بن موسى النوبختي، الذي كان بدوره مرتبطا بالأسرة عن طريق أمه[1]. ولكن شهادة مؤلف خنداني النوبختي ناقصة، لأن التاريخ لا يذكر لنا كل أسماء هذه الأسرة، وإنما يذكر لنا أسماء الشخصيات المعروفة فقط. فابن روح يلقب بالروحي مرة[2]، وبالقمي مرة أخرى[3]، ويذكره الذهبي بلقب القيني أو القيجي[4]. ويحاول مؤلف خنداني النوبختي أن يستنتج عن أبيه: القيني أو القيجي خطأ في الكتابة بدل القمي. وقد سجل الذهبي نفسه أن المخطوطة، التي اتخذها مصدرا، لم تكن واضحة[5]. لذلك قال مؤلف خنداني النوبختي إن القمي قد يكون هو المقصود. وليدعم زعمه هذا ساق خبرا، ورد فيه أن ابن روح كان يتكلم لهجة آبه، وهي قرية قرب قم. ويوجد هذا الخبر في فصل كرامات الأئمة الإثني عشر، مؤداه: أن امرأة من قرية آبه كانت تملك ٣٠٠ دينار وكانت تريد أن تسلم المال للسفير بنفسها. فأرسل الصديق الحميم للسفير الثالث على بن محمد بن ميتال مع المرأة، التي جاءت إليه، كمترجم إلى السفير. وما أن رأى السفير المرأة حتى أخذ يحدثها بطلاقة وبجد واجتهاد بلهجتها المحلية، كما لو أنه كان يعرف ضيفته منذ مدة طويلة[6].

لا ينبغي لنا أن نستنتج من هذه الحادثة، التي توجد بين قصص الكرامات، أن أصل السفير الثالث من قم. فقد كان هناك في ذلك الوقت كثيرون من أهل قم يسكنون بغداد، وكانت لهم رابطة قوية بالسفير. فلو كان من أهل قم، لعرف هؤلاء الناس، خصوصا جعفر بن ميتال، أن

---

(١) خنداني النوبختي، ص ٢١٤.
(٢) الغيبة، ص ٢٠٩ و٢٤١.
(٣) الكاشي، ص ٣٤٥.
(٤) الذهبي، تاريخ الإسلام، ص ١٣٢.
(٥) تاريخ الإسلام، ص ١٣٢.
(٦) الغيبة، ص ٢٠٩ و٢١٠، وإكمال الدين، ص ٢٧٧.

السفير يستطيع أن يتحدث مع الغرباء بلهجة قم، وعندئذ فإن هذه الحكاية ما كانت لترد بين قصص الكرامات. ثم إنه لا يصح أن نتخذ من شهادة الكشي دليلا، وهذا ما فعله مؤلف خنداني النوبختي، لأن الخطأ في كتابة الأسماء كثير الورود عند الكشي(٧).

إذن ما هو أصل ابن روح؟ كان نوبخت، الجد الأول للأسرة الشهيرة، قد تعرف على المنصور أثناء الأسر في الأهواز، وقد ورد ذكره لأول مرة في هذه المدينة(٨). إننا نعرف أيضا رجلا يدعى أحمد بن روح الأهوازي، إذن فأبوه روح وأصله من الأهواز(٩). ألا يغلب على الظن أن هذا الرجل قد يكون أخا السفير الثالث، فهو يتحدث قبل كل شيء عن ميلاد الإمام الثاني عشر، وأن السفير من الأهواز أيضا؟ بما أنه قد ذكر أن نوبخت كان في الأول يسكن الأهواز، فإن هذا يفسر العلاقة بين ابن روح وبين تلك الأسرة.

كان ابن روح يسكن دارا صغيرة في بغداد(١٠)، وقد أصبح بفضل علاقته بالسفير الثاني أمينه والمتصرف في أمواله. وكانت حظوته عند السفير الثاني تزداد بصورة مطردة إلى أن تمكن من الاطلاع على أسرار سيده وحياته الخاصة. كان يتلقى منه ٣٠ دينار شهريا نظير خدماته(١١). وهذا الراتب الكبير لا يزال مقارنة بالقوة والشهرة، اللتين حملهما له منصبه، مبلغا صغيرا، خصوصا إذا ما نحن نأخذ بعين الاعتبار الهدايا، التي كان يتلقاها من الشخصيات الشيعية وكبار الموظفين(١٢). كان منصب الكاتب عند السفير مهما جدا، لأن من يتولاه كان يستطيع من خلاله أن

---

(٧) منهج المقال، ص ٣١٢.
(٨) خنداني النوبختي، ص ٧.
(٩) الغيبة، ص ١٥٣.
(١٠) الغيبة، ص ٢٤٠.
(١١) نفسه، ص ٢٤٢.
(١٢) نفسه.

يطلع على أسرار الشيعة ويتعرف على العديد من رجالهم.

وتقدم لنا الكتب الشيعية ابن روح على أنه رجل يتسم بموهبة عقلية كبيرة، فكان يتعامل مع الخليفة والوزراء بطريقة سياسية ذكية. كان بعض العلماء ذات مرة يتناقشون عند الخليفة المقتدر نقاشا حادا حول أيهما أكثر عفة: أبو بكر أم علي، وكان ابن روح من بين المستمعين. وعندما سئل عن رأيه أجاب: «لقد جعل الصحابة أبا بكر خليفة أولا، وبعده الفاروق عمر، وبعد هذا عثمان ذا النورين وبعده علي الوصي. هكذا أخبرنا المحدثون، وهذا صحيح في رأينا». فعمت الفرحة الكبرى صفوف السنيين وشتموا من وصفوه بالرافضي، وأرادوا في حماسهم حمله فوق أيديهم[13]. ـ ذات يوم لعن بواب ابن روح، وهو شيعي متعصب، معاوية، وما أن سمع ابن روح بهذا حتى طرد البواب لكيلا يسمع أهل السنة شيئا مشينا عن معاوية في بيته[14].

كان أناس، تجار أو شيء من هذا القبيل، كان لهم عمل مع ابن روح، قد طرحوا عليه عن سوء قصد أسئلة مربكة عن أبي بكر وعمر، ولكن ابن روح كان يعرف كيف يجيبهم إجابة ذكية، جعلتهم ينصرفون عنه وقد تغير رأيهم فيه ونسوا مقاصدهم المعتادة[15].

نشاط ابن روح في وظيفته

في اليوم الذى تولى فيه ابن روح منصبه، جاء إليه قادة الشيعة لتهنئته احتفاء بتعيينه. وظهر بين الحضور خادم السفير الثاني المتوفى ليقدم لهم إرادة سيده الأخيرة. كان السفير جالسا في المسكن وحوله قادة الشيعة. فدخل الخادم ذكا وبيده عصا السفير وعلبة، وتقدم من الشيعة وأخبرهم بأن سيده أمره أن يقدم هذا إلى أبي القاسم، أي إلى السفير الثالث، عندما

(١٣) الغيبة، ص ٢٥٠/٢٥١.
(١٤) نفسه، ص ٢٥١.
(١٥) نفسه، ص ٢٥٢.

يموت سيده ويأخذ ذلك مكانه. لقد تم حفظ خاتم الأئمة في العلبة، وكان هذا اليوم يوما مشهودا بالنسبة إلى ابن روح، إذ جاء لتهنئته الوزراء والشخصيات القيادية، ومن بينهم السنيون، وبعد نهاية الحفل ذهب السفير الجديد إلى بيت الشلمغاني(١٦).

وبدأ ابن روح نشاطه الوظيفي في الحين، فكتب التوقيعات إلى الوكلاء في الطوائف الشيعية، ووصل أول توقيع أرسله إلى مدينة الأهواز يوم الأحد في ٢٤ شوال سنة ٣٠٥ هـ(١٧).

تلقى ابن روح من الشيعة لقب باب وأصبح يخاطب دائما بهذه التسمية(١٨). ورغم هذا اللقب المحترم، فقد كان هناك من الناس من ينكرون عليه منصب السفير ويتهمونه بالجشع الشخصي في جمع المال. وكان محمد بن الفضل الموصلي واحدا من هؤلاء الناس، الذين اتهموه باستعمال الأموال، التي اؤتمن عليها، لمصالحه الخاصة بدل تقديها هبة للمعوزين والفقراء. وحاول صديق هذا الرجل، الحسن بن علي بن الوجناء الموصلي عبثا أن يخفف عن صديقه ويبعده عن مثل هذه الأفكار، وأخيرا سافرا إلى بغداد لكي يتخذا قرارهما الحاسم من طريق إحدى كرامات السفير. فكتبا أسئلة صعبة متنوعة على الورق بقصبة بدون حبر، بحيث لا يستطيع الإنسان العادي معرفة الحروف، التي كتبت بها، ثم ختما اللفة، وأرسلاها إلى السفير، وجاء هما بعد الظهر الجواب الدقيق عن الأسئلة كلها، فحملت هذه الكرامة أبا الفضل على تغيير رأيه فيه(١٩).

لكن عباس إقبال، مؤلف خنداني النوبختي يعكس الحكاية: يذكر

---

(١٦) الذهبي، تاريخ الإسلام، ورقة ١٣٢ ب (العد العربي).
(١٧) الغيبة، ص ٢٤٣.
(١٨) ابن الأثير، ٨/ ١٠٠.
(١٩) الغيبة، ٢٠٥ ـ ٢٠٦.

أن الحسن بن علي بن الوجناء هو الذى أنكر على السفير سفارته، بينما يحاول محمد بن الفضل إقناعها بها. على أن عباس إقبال يطلق على الحسن اسما آخر: هو أبو عبد الله الحسين بن الوجناء النَّصيبي، ومصدره هو الطوسي، الذى يذكر الحسن ولا يعرف اسم النصيبي[٢٠].

كان ابن روح ذكيا، متعدد الجوانب، ذا شخصية جذابة، وقد ساعده على ذلك أن أسرته كانت عريقة مرموقة في الحياة العامة. وأصبحت الآن لديه آلاف الإمكانيات للوصول إلى المال والنفوذ، ذلك أن القرى الكاملة كانت تحمل إليه زيادة على خراج الإمام الهدايا الكبيرة، ولم يكن أهلها يتبارون في نيل الحظوة عنده لأسباب دينية فحسب، وإنما لربط العلاقة أيضا بأسرة بني نوبخت، التي اتسع نفوذها في ذلك الحين[٢١]. كان منصبه يتطلب منه العمل الكثير، وكان محمد بين علي الشلمغاني يأخذ عنه نصيبا من عمله، وكان أحمد بن إبراهيم النوبختي يهتم بأمر مراسلاته، وقد أنجز تواقيعات كثيرة أملاها عليه السفير[٢٢]. كان محمد بن علي الأسود يستقبل من يبحثون عن النصيحة ويقودهم إلى السفير أو يسوي مطالبهم عن طريق الكتابة[٢٣]. وكان أبو جعفر محمد بن أحمد الزجوزجي قد تقلد نفس المنصب تقريبا عند الأسود، فكانت الرسل تأتي إلى أبي جعفر حاملين رسائل إلى السفير، فيقدم أسئلة الغرباء إليه، ويسلم أجوبتها إلى الرسل، فكان يهتم بإنجاز الجانب المتصل بالشكل، بينما يهتم السفير أو محمد بن على بإنجاز الجانب المتصل بالمضمون[٢٤].

كان هناك رجل قد ظهر في أيام السفير الثاني سنة ٢٩٦ هـ بوصفه

(٢٠) الطوسي، الغيبة، ص ٢٠٥/٢٠٦، خنداني النوبختي، ص ٢١٧.
(٢١) الغيبة، ص ١٩٩.
(٢٢) نفسه، ص ٢٤٣.
(٢٣) نفسه، ص ٢٠٩.
(٢٤) نفسه، ١٩٨ و١٩٩.

سفيرا، وكان لا يزال يثير النزاع، فكان على السفير الثالث عندئذ أن يسكت صوته، فهو رجل له موهبة الساحر الفتان والخطيب المفوه، الذى يمكن أن يصبح خطرا على السفير: وهذا الرجل هو الحسين بن منصور الحلاج المتصوف والزنديق. وهناك آراء حوله تختلف باختلاف المواقف، وقد سجلها لويس ماسينيون Louis Massignon في دراسته الخاصة، ومهمتنا هنا لا تتعدى وصف الموقف الشيعي. إن صورته التاريخية تصبح عندهم خليطا حيا مزركشا من الألوان: كان يدعي أمام الشيعة أنه شيعي، وأمام السنة أنه سني، وكانت طريقته تتغير بتغير الجمهور الملتف به. كان يظهر أمام بسطاء الناس بوصفه نائبا للمهدي، وعندما يثقون به، يحدثهم عن زندقته المتصلة بتناسخ الأرواح[٢٥]. كان يحضر للفقراء عن طريق السحر المال والطعام والشراب وكل ما تشتهيه أنفسهم، فقد كانت «دراهم القدرة» جملة شائعة في ذلك الحين[٢٦].

ولكن سحر الحلاج لم يدم طويلا، فقد أوقع نفسه بنفسه. لم يكفه ما وجده عند الناس البسطاء من ضيق الأفق، فأراد أن يكسب العلماء، ومن بينهم على وجه الخصوص أبو سهل إسماعيل بن علي النوبختي. لقد كان هذا النوع من الشعوذة أقل ملاءمة لرجل حازم رشيد مثل أبي سهل. لقد تجرأ الحلاج على كتابة رسالة إليه طالبا منه فيها أن يؤمن بوكالته إيمانا صادقا، فقد كتبت هذه الرسالة باسم الإمام. وقد أجابه أبو سهل بأنه لا يشك في ذلك وأنه قد سمع بكراماته الكثيرة، ولكنه يطلب منه طلبا يعد شيئا قليلا مقارنة بتلك الكرامات: عليه أن يصبغ كل يوم جمعة شعره الأبيض، لأن هذا مزعج جدا، ويرجوه أن يعيد إلى شعره لونه الطبيعي الأسود. وعندما ينتهي من ذلك سيكون تابعه المتحمس له والمبشر بتعاليمه. ولكن الحلاج شعر أنه عاجز عن هذه الكرامة، ولم

---

(٢٥) الغيبة، ص ٢٦٢ ، عن الحلاج أنظر ماسينيون L. Massignion, Passion d'Hallag, und al-Hallag Martyr Mystique, Paris, 1922.

(٢٦) خنداني النوبختي، ص ١١٦.

يجب أبا سهل على الإطلاق، فنشر أبو سهل هذه الحكاية وقضى على الحلاج عن طريق السخرية منه، والتندر به في المجالس العامة والخاصة[٢٧].

لم يعد السفير في حاجة إلى اتخاذ أي إجراء ضد الحلاج، فقد تولى أبو سهل العمل كله. فلم يترك أية محاولة لإظهار الحلاج بمظهر الزنديق ومحاولة القضاء عليه تماما. وقد نجح أبو سهل عند ابن داود، معلم الفقه السني. ففي سنة ٢٩٧ هـ قدم ابن داود فتواه الشهيرة بتكفير الحلاج وحرمانه من حماية القانون[٢٨].

كانت مدينة قم، وسكانها تقريبا مائة بالمائة من الشيعة، تعيش في انتظار المهدي، فتصور الحلاج أنها تربة مناسبة لنشاطه، ولعله كان يتصور أيضا أنها سترحب به بوصفه وكيل المهدي. وظهر في هذه المدية بصفته وكيلا ونشر تعاليمه الملحدة، فوجد هناك كذلك أستاذه علي بن الحسين بن موسى بن بابويه. وكتب إلى أقربائه، لكن ابن بابويه أحدث ثقبا في الرسالة، وأعادها إلى الحلاج، وأبعده عن المدينة[٢٩].

ولم يبق للحلاج مكان يقيم فيه خارج بغداد، فعاد إليها، ولكن قضاء أبي سهل كان ينتظره فيها. واشتهرت في بغداد من جديد حادثة مضحكة بين أبي سهل وبين الحلاج: كان الحلاج جالسا في إحدى الساحات العامة بالمدينة يقدم كراماته، ويفتح ذراعيه، فيمطر المال في يديه، فيعجب الناس ويجمعون المال كله. وعندها تقدم إليه أبو سهل بسؤال محرج: لقد رجاه أن يحضر مالا مكتوبا عليه اسمه واسم أبيه: بذلك أوقعه في ورطة: إذا ما هو جاء بكرامة، ظهرت خيانته، وإن هو لم يأت بها، اتضح خداعه. فأعلن الحلاج أنه لا يمكن فعل شيء من لا

(٢٧) الغيبة، ص ٢٦٢.
(٢٨) خنداني النوبختي، ص ١١٣.
(٢٩) الغيبة، ص ٢٦٢/٢٦٣.

شيء، حينئذ مسكه أبو سهل من كلمته وقال ما معناه: مادام الحلاج يدعي عمل المال من لاشيء، فعليه في هذه الحالة أن يعمل كذلك كل أنواع المال، الذى يريد الحصول عليه[٣٠].

وبقي الحلاج في بغداد رغم هزيمته. كان قد تعرف على موظف سام، هو نصر الحاجب، وتسلل إلى منصب بين موظفي القصر بوصفه رجل دعاية[٣١]. وأخيرا وقع ما كان مقدورا له. ازداد عدد أعدائه بصورة مطردة، وكان عليه أن يقضي في السجن ثماني سنوات. ولم يتخل عن أعماله السحرية حتى وهو مقيم في السجن، واستطاع أن ينال إعجاب رجال السجن ورجال القصر، وفاز بحماية نصر. وبعد سبعة أشهر من وضع الحلاج في السجن قدم أخيرا سنة ٣٠٩ هجرية إلى المحكمة. فنفى عن نفسه جميع نقاط الاتهام، وادعى أنه مسلم صحيح الدين. لكنه وجد في الوزير حامد بن العباس، وهو خصم لنصر، عدوا قويا، كان له تأثيره في القضاة[٣٢]. فحكم على الحلاج وأعدم سنة ٣٠٩ هـ. وقد ادعى أتباع الحجاج، وغالبا ما يكون مثل هذا الادعاء مألوفا في التاريخ الإسلامي، أنه لم يعدم هو وإنما أعدم شبيه له[٣٣]، وكان أبو سهل النوبختي من أولئك الذين سعوا بجد ونشاط إلى إصدار الحكم عليه[٣٤].

ويوجد في كتابي «مجالس المؤمنين»[٣٥] و«محبوب القلوب» ثناء على الحلاج وتنويه به بوصفه قديسا وشهيدا، وكان على هذين الكتابين أن يتهماه ويذكرا خروجه عن دينه، كما فعلت ذلك كتب الشيعة القديمة[٣٦].

---

(٣٠) صلة عريب، ص ٩٢ وما بعدها.
(٣١) تجارب الأمم، ج ١، ص ٧٦.
(٣٢) خنداني النوبختي، ص ١١٤، وتجارب الأمم، ج١، ص ٧٦.
(٣٣) تجارب الأمم، ج١، ص ٨٢.
(٣٤) L. Passion d ' al-Hallag, p. 148.
(٣٥) يدعى المؤلف القاضي نور الله بن شريف الحسيني.
(٣٦) منتهى المقال، ص ١١٤.

حكم الخليفة المقتدر من ٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ (٩٠٢ ـ ٩٣٢ م)، وكان ضعيف الإرادة، متقلبا، فوض أمور الدولة إلى نسائه، ورجال قصره، والشخصيات العسكرية السامية والعتقاء من العبيد. ولم يكن هناك مشروع ولا قوة آمرة موحدة تحدد سياسته، وكثيرا ما كان الوزراء يتغيرون. وانتشرت، الاضطرابات، حتى في بغداد، وعمت المجاعة. وكان الفاطميون قد بدؤوا نشاطهم في إفريقيا منذ سنة ٢٩٦ هـ، وشبت ثورات القرامطة بحمية غير عادية، وكان هناك في بغداد نفسها من يتآمر مع القرامطة[٣٧]. وبدأ الشيعي يحيى بن المهدي في منطقة القطيف نشاطه بصفته رسولا مزعوما من قبل الإمام المختفي وراح يبشر ابن المهدي بأن الإمام قد رجع في السنة نفسها، أي سنة ٢٨١ هـ، من غيبته إلى الأرض، ولكنه لا يزال مختفيا وسيظهر وشيكا للعامة، ولذلك ينبغي له هو، يحيى بن المهدي، أن يجمع الخراج والخمس للإمام. وسرعان ما أخذ يحيي بن المهدي يتعاون مع القرامطة[٣٨]، وانتشر الخوف بين جميع حجاج مكة بسبب ما كان يقوم به القرامطة من إبادة للناس، ويشكون من انعدام الأمن بشكل عام، وعجز الأجهزة الحكومية عن اتخاذ الإجراءات الضرورية، وازدادت مطالبة الناس بتحريرهم من المتاعب والمحن والنكبات. وكان الخليفة نفسه يتلهف على معرفة أخبار حركة القرامطة وعن قائدهم أبي طاهر القرمطي. وكان الناس، الذين يجمعون المال ويحاولون كسب رضا الخليفة، قد جعلوا من هذه الأخبار تجارة رابحة[٣٩]. وتطور الوضع من سيئ إلى أسوأ، فسقط الكثير من الوزراء

---

(٣٧) خنداني النوبختي، ص ٩٧ وما بعدها (توفي سنة ١٠١٩ هـ، ينظر الكنتوري، ص ٤٨٧).

(٣٨) ابن الأثير، ج ٧، ص ١٧٥ .

(٣٩) تاريخ الوزراء، ص ٣١٥.

عن مناصبهم، مع أنهم كانوا من أهل السنة، وذلك لمجرد اتهامهم بأن لهم علاقة بالقرامطة. وكان سقوط الوزير الشيعي ابن الفرات أكثر وأعظم محنة، فقد طارد حامد بن العباس، الذى تقلد الآن منصب الوزارة (٣٠٦ ـ ٣١١) كل أتباع أسرة الفرات. وأخذ يطارد كذلك ابن روح، السفير الثالث، لأنه كان قد اختلف معه، فكان على السفير أن يمتنع عن الظهور أمام الناس من أتباعه وأشياعه وغيرهم[٤٠]، ولم يعد في وسعه حتى ممارسة وظيفته دون خطر، لذلك كان عليه أن يعين من ينوب عنه، وأسند هذه المهمة إلى محمد بن علي الشلمغاني[٤١].

وأخذ أبو جعفر محمد بن علي الشلمغاني يتوسط، باتفاق مع السفير، بين السفير وبين من كانوا يريدون الذهاب إليه. كان السفير قد ذهب يوم تقلده لمنصبه إلى مسكن الشلمغاني. وكانت هذه الزيارة تدل على مكانة الشلمغاني الكبيرة في الطائفة وعلى منزلته الرفيعة عند السفير. وسير الشلمغاني أمور الطائفة الشيعية بصورة مرضية لرئيسه، فأثنى عليه السفير ومنحه ثقته الكاملة، ومن ثم كانت للشلمغاني مكانة كبيرة في نفوس الشيعة وقادتهم[٤٢].

ولكن الفساد الفكري، الذى ساد هذا الفترة، أدرك الشلمغاني أيضا. فقد كافأ ثقة سيده بالخيانة. كان أمرا مغريا بالنسبة إلى الشلمغاني أن يستغل القوة لنفسه، فوجد عند بعض الأسر آذانا صاغية له، فذكر أشياء ونسبها الى السفير، والسفير لم يفعلها أبدا[٤٣].

كان السر والغموض من علامات المذهب، الذى دعا إليه الشلمغاني: لا يجوز الحديث عنه، فلا يقدر على حمل قوة سره سوى

---

(٤٠) الذهبي، تاريخ الإسلام، ص ١٣٣، و خنداني النوبختي، ص ٢١٧.
(٤١) الغيبة، ص ٢١٨.
(٤٢) نفسه، ص ٢٦٣.
(٤٣) نفسه.

ملاك قريب من السيد أو نبي مرسل من الله[٤٤]، على أن سره لم يحفظ: فقد أصبح أوائل أتباع الشلمغاني بشكل غير مقصود من أوائل المخبرين به. فكانوا بذلك سببا فيما صار إليه أمره: لقد فقد منصبه. زارت أم كلثوم، ابنة السفير الثاني، ذات مرة أم أبي جعفر بن بسطام، فاستقبلتها أم جعفر بحفاوة كبيرة واحترام غير عاديين: لقد قبلت يديها ورجليها. وعندما سألت أم كلثوم السيدة العجوز عن السبب في ذلك، صاحت العجوز وهي تذرف دموعا غزيرة، أم كلثوم هي «سيدتها فاطمة»، وهي جديرة بمثل هذا الاستقبال. هزت أم كلثوم رأسها مندهشة وأجابت إن اسمها ليس فاطمة، وأنه لمن الذنب النطق بمثل هذا الكلام. غير أن أم بسطام شرحت لها الأمر قائلة، إن هذا سر وأنها تريد أن تبوح لها به شريطة ألا تحدث شخصا آخر عنه. فأقسمت لها أم كلثوم على ما أرادت، لكنها تحفظت في دخيلة نفسها لصالح السفير الثالث. وعندما قالت لها أم أبي جعفر بن بسطام إن أبا جعفر محمد بن علي قد أوحى للأسرة أن روح النبي قد حلت في السفير الثاني، والد أم كلثوم، وأن روح أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قد حلت في جسد السفير الثالث، أما روح فاطمة، فقد حلت في جسد أم كلثوم. فتركت أم كلثوم هذه المرأة غاضبة لما سمعته منها من كفر بالله، ومضت مباشرة إلى السفير الثالث، وروت له ما حدث، فمنعها من الاتصال بهذه الأسرة فيما بعد بأية طريقة كانت[٤٥].

لقد بدأ الشلمغاني، مثل الحلاج وغيره، يصف نفسه بأنه وكيل الإمام، وتنقل مثل الآخرين بين المراتب إلى أن وصل إلى تناسخ الأرواح والتأليه الذاتي[٤٦]. ويبدو أن الطموح والحسد كانا الباعثين على مثل هذا النوع من التفكير والعمل. لم يكن ابن روح، الذى حاول بجميع الطرق

---

(٤٤) الغيبة، ص ٢٦٣.

(٤٥) نفسه، ص ٢٦٣ وما بعدها.

(٤٦) نفسه، ص ٢٥٨ و٢٦٥.

والوسائل المحافظة على وحدة الشيعة، يعرف سوى مخرج واحد، وهو أن يمنع الاتصال بالزنديق وأن يلعنه. كان هذا قد حدث في أيام وزارة حامد بن العباس الأولى[٤٧].

في سنة ٣١٣ هجرية كان أبو القاسم الخاقاني وزيرا، ولم يختلف مصيره عن مصير سابقيه، الذين سقطوا بسبب الوشايات والافتراءات الكاذبة. أشيع في بغداد أن هذا الوزير ينتمي إلى القرامطة، ولمعرفة أصل هذه الإشاعة ومدى صحتها أرسل الخاقاني عيونه إلى أماكن مختلفة، فتوصلوا إلى أن هناك رجلا يعيث فسادا بجانب الكرخ يدعى الكعكي، وهو رجل دعاية ومبعوث للثائر قرمط. وعندما علم الوزير بكل ذلك، أرسل حاجبه ورئيس شرطته للقيام بتفتيش منزل الكعكي والقبض عليه. فتم القبض على نائبه و«شبانه»، أما هو نفسه فقد هرب من فوق سور منزله. وجلد المعتقلون ٣٠٠ جلدة لكل واحد منهم، ووضع الأعوان الوكيل فوق جمل وطافوا به في المدينة والشتائم تنهال على رأسه: هذا عقاب كل من يلعن أبا بكر وعمر[٤٨].

كان مسجد براثا مكانا لاجتماع الشيعة، فكانوا يضعون فيه مشاريعهم ضد الخليفة، ويعبرون عن معارضتهم له، ويلعنون أبا بكر وعمر، صاحبي النبي. ولما سمع الخليفة بذلك، عزم على توجيه ضربة قوية إلى الشيعة بواسطة نازوك. فدخل رجاله المسجد فجأة في يوم جمعة، ولكنهم لم يجدوا فيه سوى حوالي ٣٠ شخصا، ففتشوهم بحثا عن السلاح أو عما يمكن أن يدانوا به، فوجدوا عندهم قطعا طينية بيضاء، كتب فوقها: «محمد بن إسماعيل الإمام المهدي ولي الله». فألقي بالمعتقلين في السجن، وطلب الخاقاني من قضاة بغداد أن يقدموا له فتوى بأن هذا الفساد قد دنس حرمة مسجد براثا، ولذلك يجب هدمه.

---

(٤٧) ابن الأثير، ج ٨، ص ١٠٠، حوادث سنة ٣٢٥، والغيبة، ص ٢٦٥.
(٤٨) المنتظم، ج٢، ص ٢٩ب.

فتم تهديم المسجد، ولم يعد بناؤه إلا في سنة ٣٢٨ هجرية في أيام الخليفة الراضي(٤٩).

ساء ت أوضاع الشيعة في كل مكان، لأن الحكومة أخذت تحارب بوسائل بالغة الشدة كل الثورات، التي كانت تشب في جميع المناطق. ووضع السفير، الذى كان قد تخلى عن نشاطه، في السجن ببغداد بسبب الوسائل المالية المثيرة للشبهات، زيادة على الاتهامات العادية المتمثلة في التآمر مع القرامطة، ومع أنه دافع عن نفسه وقدم حججا دامغة على براءته، فقد ظل في السجن خمس سنوات(٥٠)، لكنه لم يقطع علاقته بطائفته حتى وهو في سجنه بقصر المقتدر. فكانت أخبار الشلمغاني تصله فيه بصورة منتظمة، وقد أصدر سنة ٣١٢ هـ توقيعا تبرأ فيه من الزنديق(٥١).

و بعد خمس سنوات تغير المقدور لصالح ابن روح. لقد كانت أحزاب القصر وضعف سياسة الخليفة سببا في اضطرابات كثيرة حدثت في بغداد، حيث هاجم مؤنس المظفر(٥٢)، وهو من العبيد العتقاء، كان له نفوذ كبير في القصر- هاجم القصر بقوة عسكرية وخلع الحاكم، وأطلق سراح جميع من اعتقلهم الخليفة، ومن بينهم الحسين بن روح. فعاد هذا إلى بيته وأخذ من جديد يمارس عمله القديم(٥٣).

وحتى الآن لم يهدأ حساد السفير، فعندما أعيد المقتدر إلى الخلافة من جديد، حرضوه على ابن روح متهمين إياه بأنه شارك في الثورة عليه. ولكن الخليفة أمر أن يترك ابن روح وشأنه، فقد كانت الثورة نتيجة لما

---

(٤٩) نفسه وكذلك L'Introduction Topographique de Bagdad, p. 62.

(٥٠) الذهبي، تاريخ الإسلام، ١٣٣، وصلة عريب، ص ١٤١.

(٥١) عن مؤنس، أنظر دائرة المعارف الإسلامية، مادة مؤنس المظفر.

(٥٢) الغيبة، ص ٢٦٨.

(٥٣) صلة عريب، ص ١٤١.

كان قد ارتكبه هو نفسه من أخطاء[٥٤]. فاحتفظ ابن روح بحريته ونال في الوقت الموالي تقديرا غير عادي[٥٥]، وفي أيام الراضي حاول الحساد أن يسعوا بابن روح مرة أخرى عند الخليفة، وأخافوا الحاكم بالحقيقة المعروفة، وهي أن الشيعة قد جمعوا مالا كثيرا وحملوه إلى السفير. أما من كانوا يتعاطفون مع ابن روح، فكانوا يحاولون أن يبعدوا الخليفة عن هذه الظنون. ولكن جواب الخليفة يكشف لنا عن مدى عجز سياسته كلها، فقد أعلن أنه سيكون راضيا لو وجد ألف من مثل هؤلاء الرجال، يحمل أتباع الإمامية أموالهم إليهم ليصبحوا بذلك فقراء[٥٦].

ولم تبق لحساد السفير بعد إمكانية لتوجيه ضرباتهم إليه، فقد حظي آنئذ بأعظم تقدير يمكن تصوره، وذلك عندما تولى ابن مقلة الوزارة. كانت أملاك ابن مقلة قد تمت مصادرتها على يد أمير بن رائق، وكان على ابن مقلة أن يفر. وفي محنته توجه إلى ابن روح وطلب منه مساعدته. فتكلم ابن روح مع ابن قبيلته الحسين بن علي النوبختي، كاتب ابن رائق، فرفعت عنه مصادرة أملاكه عن طريق هذا الرجل، ولذلك أظهر ابن مقلة حينها للسفير اعترافه بما له عليه من جميل[٥٧].

وهكذا كان السفير الثالث محترما محبوبا إلى أن وافته منيته سنة ٣٢٦ هـ، ودفن في مقبرة النوبختي.

---

(٥٤) الذهبي، تاريخ الإسلام، س ١٣٣.

(٥٥) نفسه.

(٥٦) الصولي، كتاب الأوراق، ورقة ١٤٧ أ (العد العربي) وص ١٠٤ في النسخة المطبوعة.

(٥٧) خنداني النوبختي، ص ٢٢٠، والصولي، الأوراق، ورقة ١٢٢ أ.

الفصل السابع

محمد بن علي الشلمغاني

نشأ الرجل ، الذى لعب دورا مهماً في أيام السفير الثالث، في شلمغان بمنطقة واسط[1]، وكان ذلك في وقت، نشطت فيه حركة المطالب الدينية الجديدة في العالم الإسلامي: الحلاج، وبايزيد، والبسطامي (توفي سنة ٢٦١ ـ ٢٦٤ هـ)، والمحاسبي (توفي سنة ٢٤٣ هـ)، والحاكم الترمذي (توفي سنة ٢٨٥ هـ/ ٨٩٨ م) وغيرهم، وكذا المذاهب الدينية الجديدة الأخرى، التي كانت تتكون من عناصر أجنبية، ولكنها كانت ترتدي ثوبا إسلاميا. كان الرجال مختلفين، وكانت أغراضهم مختلفة: غير أنهم اشتركوا جميعا في فكرة معرفة الله. ومثلما يحدث في التاريخ عادة: فإن الاتحاد المحض بالله يصبح عند بعض الدعاة ربوبية ذاتية مادية مغرضة.

لقد تأثر الشلمغاني بهذه المذاهب، التي ازدادت بشكل مطرد في القرنين الثالث والرابع للهجرة. فاستغل الأفكار الصوفية السائدة في عصره لتحقيق أغراضه الخاصة، فلم يكتف، بدافع طموحه وغروره، لا بمكانته الرفيعة ومركزه الكبير عند الشيعة، ولا بمكانته عند وزيره وسيده، وإنما أراد أن يلعب الدور الكبير، الذى تتطلبه روح عصره . لقد عادت الموهبة

---

(١) ابن الأثير، ج٨، ص . . . ، وياقوت، إرشاد الأريب، ج١، ص ٢٩٦.

الخطابية، والبلاغة الأدبية، والاطلاع الواسع على جميع الميادين العلمية في عصره ـ عادت كل هذه الصفات بالفائدة على طموحات الشلمغاني وكان يبدو أنها ستضمن له تحقيق مطامحه. كان مضمون كتبه وأسلوبه ممتازين، وكانت قوة براهين دفاعه تمتلك القدرة حتى إقناع أعدائه. ولذلك انتشرت كتبه في كل البيوت الشيعية على التقريب، وحرص الشيعة على استعمالها في أغلب الأحيان[٢].

لقد تمكن الشلمغاني من استغلال ما كان من نزاع بين السفير وبين الوزير حامد بن العباس لصالحه. وكان الوزير، كما سبق ذكره، قد منع السفير من الظهور أمام الناس. وعندئذ رأى نائب السفير وكاتبه، الشلمغاني، أن وقته قد جاء. فأصبح يوجه البلاغات والأوامر والأجوبة والأحاديث إلى الطائفة الشيعية[٣]، وكان الكاتب يخلط أشياء كثيرة لصالحه، لم يقل بها السفير على الإطلاق[٤].

كانت حركة القرامطة في جنوب العراق وما صاحبها من بشاعة متنامية، يضاف إليها تآمر رجال القصر على الوزير ابن الفرات لعدائهم له، قد حملت ابنه المحسن بن الفرات على نفس الفكرة ، التي اتبعها نصر الحاجب في ذلك الحين مع دعوة الحلاج إليه. لم يكن ليستطيع تغيير رأي رجال القصر إلا رجل ذو شخصية واحدة قوية النفوذ، قوية الكلمة في الخطابة. وكان الشلمغاني، الذى كان ظاهريا وفكريا يشبه الحلاج، هو الشخص الوحيد الملائم لهذا المنصب[٥]. كانت سياسة المحسن تتطلب أن يولي الشلمغاني على هذا المنصب، مع أن السفير كان في أيام وزارة حامد بن العباس قد أعلن في الناس أن الشلمغاني

---

(٢) الغيبة، ص ٢٥٤.
(٣) الغيبة، ص ٢٦٢.
(٤) الغيبة، ص ٢٦٣.
(٥) ياقوت، إرشاد الأريب، ج١، ص ٢٩٦.

كافر[٦]. لقد نصب المحسن الشلمغاني وأخذ يؤيده بجميع الطرق، رغم أن مُنعِمه كان شيعيا أو كان من الممكن أن يعد سندا للشيعة[٧].

لم تكن هناك في ذلك الوقت وزارة دائمة، وبسقوط الوزير ابن الفرات سقط أيضا الشلمغاني. فأعدم الوزير وابنه المحسن، وتم الإعلان الآن عن كفر ربيبهم، ولكنه هرب إلى الموصل قبل أن يتم القبض عليه.

وجاء وقت غير مناسب بالنسبة إلى الشلمغاني، فقد كانت الحكومة تبحث عنه في كل مكان. وأراد أبو القاسم الخاقاني، الذى توصل إلى القوة بتقلده الوزارة الآن، القبض عليه كيفما كان الأمر[٨]. ولما كان حامي الشلمغاني قد قتل عندئذ، فقد استطاع السفير ابن روح أن يصدر من سجنه أمرا بلعن الشلمغاني دون خوف من العقاب ومن غير أن يأخذ سجنه بعين الاعتبار. لقد أمر ابن روح أبا علي محمد بن همام البغدادي[٩] أن ينشر التوقيع، الذى أصدره الإمام في شهر ذي الحجة ٣١٢ هـ، ويذيعه بين الشيعة دون أن يخشى الحكومة، ودون أن يخاف من المطاردة[١٠].

يوجد التوقيع المذكور عند الطوسي، ص ٢٦٨ وما بعدها، وقد نقل لنا هذا التوقيع ثلاثة رجال هم: محمد بن الحسن بن جعفر بن صالح الصَّيْمَري ـ لم أستطع الحصول على معلومات دقيقة عن حياته ـ، ومحمد بن أحمد. بن داود بن علي، رئيس علماء قم، توفي فيما بعد في

---

(٦) ابن الأثير، ج٨، ص ١٠٠.

(٧) خنداني النوبختي، ص . . .

(٨) ابن الأثير، ج٨، ص ١٠٠ وما بعدها، وخانداني النوبختي، ص ٢٢٤.

(٩) هو أبو علي بن محمد بن همام الإسكافي (٢٥٨ ـ ٣٣٢ هجرية)، يقال عن أبيه أنه كتب، عندما لم يكن له ولد، لهذا السبب إلى الإمام الحادي عشر وتلقى جوابا منه بأن الله قد سمع دعوته. ـ هذه الحكاية تذكر بحكاية ابن بابويه، التي ذكرناها في أطروحتنا حسب أخبار التراجم، ينظر منهج المقال، ص ٣٢٨!

(١٠) الغيبة، ٢٦٨ ـ ٢٦٩، والطبرسي، الإحتجاج، ص ٢٤٥.

بغداد سنة ٣٦٨ هـ، وهارون بن موسى بن أحمد بن سعيد الشيباني (توفي سنة ٣٨٥ هـ)، وهو رجل متبحر في عالم العلماء، قرأ على العديد من العلماء، ولذلك قدم لنا معلومات مهمة في تحديد زمن بعضهم، وقد ذكر الطوسي جميع اختلافاتها وصيغها. على أن التوقيع ، إذا نحن أهملنا الروايات العديمة القيمة، يوجد في شكل مشابه تماما في كتاب الطبرسي «الإحتجاج»، ص ٢٤٥، وعند المجلسي، «بحار»، ج ١٣، ١٠٢ وما بعدها. وقد أخذ عباس إقبال التوقيع في كتابه «خنداني النوبختي»، ص ٢٣٤، ولكنه غير الصيغة اللفظية حسب تخميناته، دون أن يشير في الهوامش إلى الصيغة الأصلية.

وفحوى التوقيع هو ما يلي:

(ص ١٤٠) اعرف عرفك الله[١١]، أطال الله بقاءك[١٢]، وعرفك الخير[١٣] كله وختم به عملك من تثق بدينه وتسكن إلى نيته[١٤] من إخواننا أسعدكم الله[١٥] بأن محمد بن علي المعروف بالشلمغاني وهو[١٦] ممن عجل الله له النقمة ولا أمهله قد ارتد عن الإسلام وفارقه وألحد في دين الله وادعى ما كفر معه فيه بالخالق جل وتعالى وافترى كذبا وزورا وقال بهتانا وإثما عظيما[١٧] كذب العادلون بالله وضلوا ضلالا بعيدا[١٨] وخسروا خسرانا مبينا وإننا[١٩] قد برئنا إلى الله تعالى وإلى رسوله

(١١) عند الصيمَري: الخير أطل الله، اعرف عرفك الله.

(١٢) بحار: بقاءك؛ خنداني النوبختي: بقاك.

(١٣) بحار وخانداني النوبختي: عرفك الله الخير.

(١٤) ابن داود: من تسكن إلى دينه وتثق بنيته جميعا.

(١٥) الصيمري: أسعدكم الله؛ ولكن ابن داود يذكر: دام الله سعادتكم؛ في خنداني النوبختي صيغة خاصة، الغائب: أدام الله سعادتهم.

(١٦) ابن داود: وهو ممن عجل الله له النقمة؛ غير موجدة عند خنداني النوبختي.

(١٧) هارون من: فيه بالخالق جل وتعالى، إلى: وإثما عظيما، صيغة خاصة.

(١٨) الطوسي: ضلالا بعيدً.

(١٩) خنداني النوبختي صيغة خاصة: وانّا.

وآله[٢٠] صلوات الله وسلامه ورحمته وبركاته عليهم منه[٢١]. ولعناه عليه لعائن الله[٢٢] تترى في الظاهر منا والباطن في السر والجهر وفي كل وقت وعلى كل حال. وعلى من شايعه وتابعه أو بلغه هذا القول منا وأقام على توليه[٢٣] بعده واعلمهم تولاكم الله[٢٤] أننا في التوقي والمحاذرة[٢٥] منه على مثل ما كنا عليه ممن تقدمه من نظرائه[٢٦]. من الشريعي[٢٧] والنميري[٢٨] والهلالي[٢٩] والبلالي[٣٠] وغيرهم. وعادة الله جل ثناؤه قبله وبعده عندنا جميلة وبه نثق وإياه نستعين وهو حسبنا في كل أمورنا ونعم الوكيل[٣١].

---

(٢٠) هكذا في الطوسي وبحار؛ لا توجد كلمة وآله في خنداني النوبختي.

(٢١) وردت صيغة الجمع عند الطوسي وفي بحار، والمقصود هو النبي وآل البيت، كما هو الأمر عند الشيعة؛ وتوج عند خنداني النوبختي عليه بدل عليهم، لأن نعمة الله لا تنطبق إلا على النبي، ولكن هذه الصيغة لا تتفق مع ما يرد عند الشيعة في معظم الأحيان.

(٢٢) هكذا عند الطوسي وفي بحار وعند عباس إقبال.

(٢٣) هكذا عند ابن داود. عند خنداني النوبختي بطريقة تحطم المعنى.

(٢٤) هكذا عند الصيمري؛ لا توجد في خنداني النوبختي: واعلمهم؛ ابن ذكاء: أعزكم الله.

(٢٥) هكذا في هارون؛ في ابن ذكاء: أنا من التوقى؛ ابن داود: أنا من المتوقى له.

(٢٦) هكذا عند الصيمري؛ عند ابن داود وهارون: على مثل ما كنا عليه ممن تقدمه من نظرائه؛ ابن ذكاء: على ما كان عليه من نقدنا لنظرائه.

(٢٧) عن أبي محمد الحسن الأشعري ينظر الغيبة، ص ٢٥٨؛ مقالات الأشعري، ص ١٤ وما بعدها؛ الفرق بين الفِرَق، ٢٣٩؛ تبصرة العوام، ص ٤١٩؛ الإحتجاج، ص ٢٤٤؛ خنداني النوبختي، ص ٢٣٥ ومؤلفات أخرى.

(٢٨) محمد بن نصير النميري (أنظر الفصل السادس من هذا الكتاب).

(٢٩) أحمد بن هلال العَبرتائي الكرخي (الطوسي، ص ٢٦٠؛ الكشي، ص ٣٣٢ - ٣٣٣؛ رجال النجاشي، ص ٦٠ وما بعدها؛ الطوسي، الفهرست، ص ٥٠؛ الطبرسي، الاحتجاج، ص ٢٤٥).

(٣٠) محمد بن بلال (الطوسي، ٢٦٠ وما بعدها؛ الطبرسي، الاحتجاج، ص ٢٤٥؛ خنداني النوبختي، ص ٢٣٥).

(٣١) الغيبة، ص ٢٦٨ وما بعدها؛ بحار، ج١٣، ص١٠٢ وما بعدها؛ الاحتجاج، ص٢٤٥.

(ص١٤١) أقام الشلمغاني بضع سنوات في الموصل عند الأمير ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان، وسكن المَعْلُثاية، وهي قرية قرب جزيرة ابن عمر، واشتغل هناك بالتدريس، وكان من بينهم بعض الشيعة مثل أبو المفضل محمد بن عبد الله بن المطلب، أحد أساتذة كاتب التراجم المعروف النجاشي(٣٢). واحتمل الشلمغاني إقامته في الغربة في ألم وشوق، بعيدا عن الحياة المدنية في بغداد، وبعد بضع سنوات أعاده ذلك الشوق إليها، فاختفى فيها عن أنظار الحكومة(٣٣).

وفي سنة ٣١٩ هـ أصبح الحسين بن القاسم وزيرا، وهو رجل كان يسعى إلى الوزارة بكل الوسائل. فكان يظهر نفسه لرجال القصر من المسيحيين، الذين كان يريد أن يقدم لهم الحماية عند الخليفة حتى يساعدوه، على أنه مسيحي. ويقال إن جده كان رئيسا عند المسيحيين وعرض عليهم مساعدتهم والشفاعة لهم عند الخليفة. وهكذا كانت كل وسيلة مناسبة له، حتى النفاق الدنيء، من أجل الوصول إلى غرضه(٣٤).

لم تدم وزارة الحسين طويلا (من رمضان ٣١٩ إلى الربيع الأخير ٣٢٠ هـ). فقد عاجله المقدور بعد حين بسبب ضعف سياسته، فكان عليه أن يختفي، وقد كان صديقا وتابعا متحمسا للشلمغاني(٣٥)، فكانت علاقته بذلك الرجل سببا في هلاكه.

لقد أصبح أخو الحسين وزيرا، فظن الحسين أن أخاه سيساعده، وعمل الأخ على تغذية هذا الأمل في نفسه. ولكن ما أن تجرأ الحسين على طلب وظيفة من أخيه، حتى قبض أخوه عليه ونفاه إلى الرقة. ونطق

---

(٣٢) خنداني النوبختي، ص ٢٢٤.
(٣٣) ابن الأثير، ج٨، ص ١٠٠ وما بعدها.
(٣٤) عريب، صلة، ص ٣١٤.
(٣٥) ابن الأثير، ج٨، ص ١٠٠، وأبو الفداء، ج ٢، ص ٣٨٢، وتجارب الأمم، ج١، ص ٢٦٦.

بكلمات كبيرة أمام الخليفة: ففحواها أنه لم يقدم هذه التضحية ويقوم بنفي أخيه، الذى هو من أتباع الشلمغاني، إلا لحماية الخلافة من الخطر الشلمغاني، فثار الخليفة بسبب هذا الحديث، وأمر بمراقبة أسرة بسطام، التي تعتبر من أتباع الشلمغاني[٣٦].

كانت أسرة بسطام، وقد تبعت الشلمغاني منذ البداية، تحظى باحترام شيعة بغداد وتقديرهم. وقد تقلد العديد من أفرادها مناصب سامية، وكانت لهم صلة متينة بأسرة الفرات. وكان من بينهم على الخصوص أبو جعفر وأبو علي، ابنا بسطام، اللذان أصبحا من خلصاء الشلمغاني تماما. ورغم عقيدتهم الشيعية أو على الأقل ميلهم إلى الشيعة، فإنهم لم يقبلوا السفير ولا توقيعه، وإنما بقوا دائما بجانب الشلمغاني. ولذلك أمر الخليفة القاهر سنة ٣٢١ هـ بمراقبة مسكنهم ومراقبة جميع اتصالاتهم يالشلمغاني وأتباعه[٣٧].

تزايد اضطراب الشلمغاني وخوفه منذ سقوط صاحب نعمته وخضوعه للرقابة المشددة المفروضة عليه وعلى أتباعه وخلصائه، فأصبح الخوف على حياته يلازمه بصورة مطردة. فحتى متى يجب عليه أن يبقى صامتا ويعيش متخفيا، والحال أن طبيعته كلها تجنح به إلى النشاط والتأثير في الرأي العام؟ في سنة ٣٢٢ هـ خطر بباله أن يظهر من جديد أمام الناس، وبذلك هيأ بنفسه الهلاك لنفسه[٣٨].

بعد ظهور الشلمغاني أمام الناس من جديد، أخذت الحكومة تطارده مطاردة رسمية، انتهت بإلقاء القبض عليه وعلى بعض أتباعه من أمثال إبراهيم بن محمد بن أبي عون، وابن شبيب الزيات، وأحمد بن محمد بن عبدوس، وهم رجال، كانت لهم في بغداد مكانة متميزة بوصفهم أدباء.

---

(٣٦) تجارب الأمم، ج١، ص ٢٦٦، وخانداني النوبختي، ٢٣٢.
(٣٧) نفسه، الغيبة، ص٢٦٥.
(٣٨) ابن الأثير، ج٨، ص ١٠٠، وأبو الفداء، ج٢، ص ٣٨٢.

وعثر عند تفتيش بيت الشلمغاني على مواد الإدانة، فحولت إلى المحكمة[٣٩].

حدث هذا في عهد الوزير بن مقلة. فقد أمر الوزير نفسه باعتقال الشلمغاني بعد تفتيش بيته، وأمر بنقل مواد الإدانة إلى محكمة خاصة. واجتمع عدد كبير من الشخصيات الشيعية في بيت الوزير ليستمعوا إلى كلمات الشلمغاني وأقواله أمام الوزير. وعندما وصل الحديث إلى مسألة لعنة الشلمغاني، طلب الشلمغاني، حسب ما رواه الطوسي، أن يحضروا له السفير ليمس يده، فإذا لم تسقط النار من السماء على السفير، فإن ما قاله السفير فيه سيكون عندئذ صحيحا.

وقدم الشلمغاني مع أتباعه ابن أبي عون وابن عبدوس إلى المحكمة، وعندما وضعت أمامه الوثائق، التي عثر عليها عنده، أكد أنها رسائل وجهها إليه أناس معينون، أما مضمون الرسائل فيؤكد أنه مسلم وأنه لا علاقة له بمضمون هذه الرسائل بأي حال من الأحوال. وفيما عدا القضاة كان الخليفة نفسه موجودا، وتدخل في مجرى المحاكمة، وهذه الواقعة تدل على مدى أهمية هذه المحاكمة. وكانت الرسالتان، اللتان كانتا أكثر إدانة للشلمغاني، هما الأولى رسالة من الحسين بن القاسم، الوزير السابق المذكور، والأخرى رسالة ابن شبيب الزيات، وكان الوسيط ابن عون. ومؤدى رسالة الحسين هو:

إلى سيدي بُشرى من خادمه مرزوق الثلاج، الفقير البئيس، الذى سيلقاه بفضل الله الرحيم في صحة وعافية... وقد أنعم علي سيدي ورحم ضعفي، وآمل ألا يتأخر كثيرا في إظهار نعمته علي، بل يستجيب لما كان قد بشرني به!

كانت هذه الرسائل وغيرها شهادات حاسمة ضد الشلمغاني. وعندما

---

(٣٩) ابن الأثير، ج ٨، ص ١٠٠، المنتظم، ج٢، ص ٥٣، تاريخ اليافعي، ص ٤٩، حوادث سنة ٣٢١، أبو الفداء، ج٢، ص ٣٨٢.

سأل الخليفة كيف تتطابق هذه الأحاديث مع إنكارات الشلمغاني، أجاب ابن عبدوس: «لم يقل الشلمغاني إنه إله على الإطلاق، وإنما قال إنه باب إلى الإمام المختفي عوض ابن روح. أما أنا فقلت إن هذا من حيث الظاهر لا غير.»

وبعدئذ طلب الخليفة من ابن عبدوس وابن عون أن يصفعا معلمهما. ففعل ابن عبدوس ذلك، ولكن ابن عون كان خائفا نوعا ما، وكانت يده ترتجف. وعوض أن يضرب الشلمغاني قبل لحيته ورأسه وصاح: «إلهي وسيدي ورازقي» فاندهش الخليفة وسأل الشلمغاني رأيه في سلوك ابن عون. فأجاب الشلمغاني: «وما علي من قول هذا الرجل؟ الله يعلم أني ما قلت أنني إله» [٤٠].

بعد ذلك انسحبت المحكمة والخليفة للمشاورة، فوصل الخليفة والقاضي إلى نتيجة أن الشلمغاني مذنب، فأُعدم الشلمغاني وابن أبي عون، وأُحرقت جثتاهما بالنار وذر رمادهما في نهر دجلة. ولكن ابن عبدوس بُرِّئت ساحته.

وقع هذا في ٢٢ ذي القعدة سنة ٣٢٢ هـ[٤١]. وفي نهاية الشهر نفسه أعدم الحسين بن القاسم في مدينة الرقة، التي كان قد طرده إليها أخوه، وحُمِل رأسه إلى بغداد[٤٢].

ونهض البصري خلفا للشلمغاني، وقال إن روحه قد حلت فيه[٤٣]، وجمع مالا كثيرا. وقد قدم لنا على أنه جبار متعطش للدماء، وقد تولى

---

(٤٠) ابن الأثير ،ج٨ ، ص ١٠٠ وما بعدها.

(٤١) نفسه وياقوت، ج١، ص٢٩٦، والفرق بين الفرق، ٢٤٩؛ وجاء في خنداني النوبختي، ص ٢٣٧: في ذي القعدة ٣٢٢. ولكن هذا يقوم على سوء الفهم، وذلك بسبب كلمة «خلت»، التي تعني في العربية «مضت» ولا تعني «بقيت» كما فهم عباس إقبال.

(٤٢) ابن الأثير ج٨، ص ١٠٠ وما بعدها.

(٤٣) ابن الأثير، ج ٨: ص ١٠٠ وما بعدها، أحداث ٣٤٠ هجرية.

بنفسه قتل أغلب أعداء محسن بن الفرات بأمر من الشلمغاني. وكان الخصوم قد أرسلوا إلى البصري بسبب مالهم المزعوم، الذى كان عليهم أن يكشفوا له عن المكان المخبأ فيه، ولكنهم لم يعودوا، فقد قتلهم في صمت وسرية تامة(٤٤).

وتوفي البصري الغني الجبار، الذى كان يسكن في بغداد، سنة ٣٤٠ هـ. وكان الوزير المهلبي، كما تمت الإشارة إلى ذلك سابقا، قد سمع بالأموال، إذ قيل إن البصري قد خلف مبالغ كبيرة من تلك الأموال، التي كان يأخذها جبايةً من طائفته،، فأمر المهلبي بالختم على تركة البصري. على أنه لم يجد في الحقيقة إلا مالا يسيرا، وصودرت مع الأموال دفاتر فيها أشياء تتعلق بمذهب هذه الطائفة. وقد عثر هناك أيضا على أناس، ادعوا أن روح هذا القديس أو ذاك قد حلت فيهم، واعتقد أحد الشبان أن روح علي بن أبي طالب قد حلت فيه، وادعت امرأة يقال لها فاطمة أن روح فاطمة ابنة النبي قد حلت فيها. وكان هناك خادم لبني بسطام ادعى أنه الملك ميكائيل، فأمر بهم المهلبي فضربوا جميعا بسبب هذه الأحاديث، ونالهم مكروه كبير، ولكنهم أرسلوا إلى معز الدولة، الذى كان الشيعة كلهم تحت حمايته، من أخبره بأنهم كلهم من الشيعة. فأمر معز الدولة عقب ذلك بإطلاق سراحهم، فخاف المهلبي أن يعتبره معز الدولة معاديا للشيعة، وأطلق سراحهم(٤٥).

مذهب الشلمغاني

من المستحيل الآن تقديم عرض لمذهب الشلمغاني بناء على كتب أتباعه العزاقرية، لأننا لا نملك كتبا من هذا النوع. ثم إن أتباع الشلمغاني قد تشتتوا بعد موته مباشرة في كل مكان. وكانت الأخبار التي وصلتنا،

---

(٤٤) تجارب الأمم، ج١، ص ١٢٣.

(٤٥) ابن الأثير، ج ٨، تحت أحداث سنة ٣٤٠ هجرية، يذكر المؤلف هنا العزاقرية باسم القراقيرية، والشلمغاني بلقب ابن أبي القراقر.

سواء كانت شيعية أم سنية، معادية لهم. ولهذا فإن علينا أن نفترض أن هذه الأخبار محرفة، وأن هذا الفرض يجب أن يظل نصب أعيننا.

لقد تدرج الشلمغاني في تطوير نظامه، فكما بدأ الحلاج، والنميري، وابن بلال وغيرهم اعتمادا على سابقيهم، بدأ الشلمغاني كذلك بالادعاء بأنه سفير(٤٦)، ثم ادعى أنه يشعر روح الإمام فيه، في النهاية انتقل إلى تناسخ الأرواح وأعلن أنه إله الآلهة(٤٧). هكذا تقدم لنا المصادر الثانوية الشلمغاني.

كان الشلمغاني يقول فيما نقل عنه إن الله مجرد فكرة، فكما يختلف الناس وتختلف مواهبهم الإدراكية، كذلك يختلفون من حيث فكرة الله فيهم: كل إنسان يحمل مفهوم الله في قلبه كما لو أنه يشاهده حقيقة. والله اسم لفكرة عن كائن قادر من هذا النوع، وتبعا لذلك فكل إنسان، يحتاج إلى مساعدة قادر أو هو يتوقف على مساعدته، فلذلك يعد هذا الإنسان المتفوق عليه إلها بالنسبة إليه(٤٨).

وحقيقة قدرة الله تتمثل في خلقه، فالله في ذاته هو الحقيقة، ولكن أشكال الحقيقة متنوعة ومختلفة، فمرة تظهر مثلا في اللون الأحمر، ومرة أخرى في اللون الأبيض، ومرة ثالثة في اللون الأزرق، ومع ذلك فليس هناك سوى حقيقة واحدة. عندما يحل الله في جسد أرضي، فإن الإنسان يعرف قوة الله وعظمته في آثار هذه القوى في جسمه وتأثيراتها.

الله يسكن في جميع الأشياء، ولكن بما أن الأشياء مختلفة، فإن مقياس إلوهيتها يتغير. ولذلك يشترك البشر في الله بمقياس مختلف،

(٤٦) الغيبة، ص ٢٥٨، وابن الأثير، ج٨، ص ١٠٠.
(٤٧) الغيبة، ص ٢٦٥ وما بعدها والمصادر المعروفة.
(٤٨) هذا المذهب عن نعم الله وظهوره في الإنسان له شبه معين بمذهب الروحيات في الفلسفة اليونانية، ينظر أسفل W. Windelband, Lehrbuch der Philosophie, S. 189 unten.

ويقفون فوق درجات متفاوتة، من البسيط إلى الكامل فالأكمل، وقد احتفظ الشلمغاني بالدرجة الأخيرة لنفسه.

ومقياس قيمة الدرجة المفردة هو الفضيلة، أي مقياس روح الله، التي حلت في الإنسان. وكل درجة عالية، هي دائما أكمل من الدرجة السابقة، ثم إن الدرجة العليا ضرورية ضرورة مطلقة بالنسبة إلى الدرجة السفلى، ذلك أن هذه تدين بوجودها لها وهي متوقفة عليها، إذ هي تعني الله بالنسبة إليها. ولكن بما أن الدرجة العليا تتكون من أناس كثيرين، فإن السفلى يمكن أن تكون لها آلهة كثيرة في الوقت نفسه. وهذه بدورها ليست إلها بالنسبة إلى الدرجة التابعة لها إلى آخره. والهرم كله يتجه إلى قمة، هي الشلمغاني نفسه، «إله الآلهة». عندما خلق الله العالم، حلت روحه بجسد آدم، وكذلك في «شيطان» آدم[٤٩].

عندما توفي آدم، قسمت روحه الإلهية إلى خمسة أقسام، توزعت مفردة على خمسة أجساد أرضية؛ وكذلك قسم شيطان آدم إلى خمسة أقسام، انضم كل منها إلى الجسد الأرضي المناسب. واجتمعت أجزاء روح الله الخمسة من جديد في الجسد الأرضي للنبي إدريس واجتمعت الشياطين الخمسة كذلك في شيطان النبي. وحدث الأمر نفسه بعد موت كل نبي كما كان بعد نهاية آدم. ونجدها قد اجتمعت بعد إدريس في نوح وشيطانه، وفي هود وشيطانه، وبعده في صالح وشيطانه، الذى عقر ناقته، ثم في إبراهيم وشيطانه نمرود، وبعده في هارون وشيطانه فرعون، وبعده في المسيح وشيطانه، وبعده في محمد[٥٠] وشيطانه، وبعده في علي بن أبي طالب وشيطانه. وبعد هذا الأخير تنقلت روح الله المتحدة من جديد في عقبه حتى الحسن بن علي العسكري، وبعد موته حلت بجسم الشلمغاني[٥١]، وبعده في البصري.

---

(٤٩) أنظر تفاصيل عن مفهوم الشيطان فيما يتبع تحت.

(٥٠) الغيبة، ص ٢٦٦.

(٥١) ياقوت، ج ١، ص ٢٩٧، وابن الأثير، ج٨، ص ٥١ وما بعدها.

ولكل نبي حسب الشلمغاني عدوه، أي شيطانه. وفي القرآن نفسه توجد فكرة أن لكل نبي شيطانا[٥٢]. ولكن الشلمغاني يمضي أبعد من ذلك بكثير: العالم كله يتكون من أضداد، وهذه الأضداد تستلزمها بعضها بعضا على التناوب؛ فكما لا يعرف الإنسان النور بدون ظلام ولا يميزه، فليس هناك كذلك فضيلة بدون شيطان. فالشيطان خلقه الله لتنكشف به الفضيلة للقديسين والأنبياء. والشر طريق إلى معرفة الخير. والطريق إلى الخير بواسطة الشر أكثر قيمة من الهدف، من الخير نفسه. فالضد، وليس القرابة، هو الذى يجعلنا نعرف القيمة الحقيقية للشيء: كل القيم تحدد بناء على علاقتها بالضد. والأضداد أقرب إلى الأشياء من أشباهها[٥٣].

توجد في الطوسي أبيات تعالج فكرة المضادة في مثال عمر وعلي:

يا لاعنًا للضِّد من عدِيّ   ما الضد إلا ظاهر الوليّ

والحمد للمُهيمن الوفيّ   لست على جال كحمّاميّ

ولا خَجامي ولا جُغديّ   قد فُقت من قولي على الفهديّ

نعم وجاوزتُ مدى العِيديّ   فوق عظيم ليس بالمجوسيّ

لأنه الفرد بلا كيفيّ   متحدٌ بكُل أوحديّ

مخالط النوريِ والظُلميّ   وطالبًا من بيت هاشميّ

وجاحدًا من بيت كِسرويّ   قد غاب في نسبة أعجميّ

في الفارسي الحسب الرضيّ   كما التوى في العرب من لويّ

(٥٢) القرآن، سورة ٢٥، آية ٣١ (في النسخة المصرية قران)

(٥٣) ابن الأثير، ج٨، ص ١٠٠، إرشاد الأريب، ج١، ص ٢٩٦ وما بعدها، أبو الفداء، ج٢، ص ٣٨٢، الذهبي، تاريخ الإسلام، ص ١٠٥ و١١٩، المنتظم، ج٢، ص ٥، وتاريخ اليافعي، ص ٤٩، روض المناظر، ص ١١١ ، ٣٢٨ وغيرها.

وردت هذه الأبيات الواضحة، التي لا يتطرق إليها الشك، في الغيبة، ص ٢٦٦، ويبدو أنها تعود إلى جو كانت فيه بعض المهن الوضيعة كما ذكرت في الأبيات محتقرة مثل الحجام، كما يجد المرء ذلك في نهاية العصر الوسيط بألمانيا على سبيل المثال، أو المروض أو الحمّامي أو غير ذلك. وفي الحالات المفردة هناك كلمات غامضة، ولكن معنى الكل يتكشف بسهولة: فهو يتصل، كما تمت الإشارة إلى ذلك، بمذهب الأضداد، ويمكن أن يوصف كما يلي على التقريب: «أنت يا من تلعن الضد من عدي، وما الضد سوى المظهر الخارجي للولي». والمقصود بالضد من عدي هو عمر، والولي هو علي.

في مسألة الأضداد هناك بين أتباع الشلمغاني رأيان، فبعض الناس يقولون إن الأضداد أو الصور المضادة قد قدرها الله منذ الأزل، ولكن أصحاب الظاهر ينكرون هذه الرأي ويدعون أن القديس نفسه هو الذى حدد شيطانه لهذه الغاية، لتتضح عن طريقه قداسته وفضيلته أمام الناس. فقد قلد علي بن أبي طالب مثلا أبا بكر، منافسه، منصب الخلافة حتى تكون فضيلته أكثر إشعاعا[٥٤].

ويرى ابن الأثير أن الشلمغاني وأتباعه لا ينسبون الحسن والحسين إلى علي، لأن علياً إله، والإله لا ولد له. ولذلك طالب العزاقرية، أتباع الشلمغاني، بتنحية الطالبيين والعباسيين[٥٥].

ويعتبر محمد وموسى عند العزاقرية محتالين، ذلك أن هارون أرسل موسى وعليا أرسل محمدا، ولكن الحواريين أساؤوا استغلال ثقة من كلفهم بالأمر، وجعلوا محمدا عندما ارتمى على مكان علي ليكون نبيا. فقد أمهل علي محمدا وأعطاه لدينه ٣٥٠ عدة سني نوم أصحاب الكهف تماما، وبعد هذا الوقت كان ينبغي أن يتغير دينه. والمكان الزماني بين

(٥٤) الغيبة، ص ٢٦٦.

(٥٥) ابن الأثير الكامل، ج٨، ١٠١ و١٠٢ وأبو الفداء، نفسه، ج٢، ص ٣٨٦.

النبي والشلمغاني يبلغ على التقريب ٣٥٠ سنة، وقد أراد بذلك الإشارة إلى أن وقت دينه هو قد جاء[٥٦]. ويبدو أن المؤلف، الذى ندين له بهذه الرواية، قد أخطأ. وما أكثر مؤرخي الديانات، الذين لا تخلو كتبهم من أخطاء، مثل ابن الأثير، مع أنه من الممكن أن يكون ابن الأثير قد غاب عن ذهنه أن يفرق بين الغلاة (المؤلهين لعلي) وبين العزاقرية (أتباع الشلمغاني).

وللملاك، والجنة، والنار، عند الشلمغاني معان أخرى تماما غير معانيها عند بقية المسلمين. فالملاك ما هو إلا إنسان يملك القدرة على معرفة الجيد ورفض الرديء. من كان على صلة بمثل هؤلاء «الملائكة»، فهو في الجنة، أما من يعيش على العكس من ذلك بعيدا في ظلام الكفر، فهو في الحقيقة في النار الحامية[٥٧].

لا يكاد يوجد في الكتب التاريخية الدينية خبر واحد يتهم الشلمغاني وأتباعه فحسب، وإنما يتهم جميع العقائد الأخرى أيضا، بأن هذه الطوائف، التي تعلن الحرب عليها، لا تعترف لا بالصلاة ولا بالصوم ولا بالوضوء[٥٨]. وقد بررت الطوائف سلوكها بأن النبي كان قد عمل في زمن كانت تسوده ظروف أخرى، لذلك يجب أن تتغير الآن الأشكال العقائدية[٥٩].

ويبدو أن الفلسفة والدين قد امتزجا في مذهب الشلمغاني، ويلاحظ المرء فوق ذلك أن المؤرخين قدموا أفكار فرق أجنبية عن قصد أو عن غير قصد بوصفها آراء العزاقرية، حتى إنها تتوافق أحيانا مع آراء

---

(٥٦) خنداني النوبختي، ص ٢٢٦.

(٥٧) ابن الأثير، ج٨، ص ١٠١، وأبو الفداء، ج٢، ص ٤٨٦، ثم روض المناظر، ص ١١١ في هامش الجزء الثامن لابن الأثير.

(٥٨) الغيبة، ص ٢٦٦.

(٥٩) ابن الأثير، ج ٨، ص ١٠٠ وما بعدها.

الشلمغاني، على أنها تتناقض معها في بعض الأحيان أيضا، ومن الواضح أن المقارنة بين آراء المعتقدات المختلفة يمكن أن تصبح موضوعا لدراسة علمية مثمرة.

يقول الطوسي إن أتباع الشلمغاني يمثلون رأي القائم، الذى لا يعدو أن يكون عند الإثني عشرية وصفا إلى جانب أوصاف أخرى تتصل بالإمام الثاني عشر، وما هو إلا رمز إلى ثورة الشيطان، كما قدم لنا في القرآن بعد أن عرضت الملائكة عبادة الله، ولكنه رفض السجود، فحقت عليه لعنة الله وإجابته، ووضعه على طريق المؤمنين الضالين ليكون غاويا لهم، وذلك ما تم الإعلان عنه بالنسبة إلى زمن قادم[٦٠].

مؤلفات الشلمغاني

كان الشلمغاني ذا مواهب فكرية عظيمة، حتى إن كتبه، التي كتبت بأسلوب رائع، انتشرت في كل البيوت الشيعية واشتهرت بعد انفصاله عن الشيعة وبعد اللعنة الكبرى التي حلت به. وكانت تجد طريقها إلى كل مكان، حتى إن السفير رأى أيام أزمة الشلمغاني أن منعها لا فائدة منه واكتفى بأن طلب من طائفته اختيار ما يتناسب من آراء الشلمغاني مع عقيدة الشيعة[٦١]، فأصبح الشيعة في وقت متأخر يرجعون أيضا إلى نصوص من كتبه لاستعمالاتهم الخاصة. ومن المؤسف أن كتبه لم تصلنا، وقد عاشت بعده أكثر من قرن، فقد قرأها المفيد والطوسي حسب شهادتهم واستفادوا منها[٦٢]، وبعد الطوسي لم نعد نسمع شيئا عن كتبه ولا عن أتباعه.

---

(٦٠) الطوسي، الغيبة، ص ٢٦٦؛ عن تاريخ عناد إبليس تنظر سورة (ص)، أي سورة ٣٨، آية ٧١ إلى نهايتها.

(٦١) الغيبة، ص ٢٥٤.

(٦٢) منهج المقال، ص ٣٠٨، وخلاصة المقال في معرفة الرجال، مادة محمد بن علي الشلمغاني.

والكتب التالية هي، حسب ما تشهد به التراجم، كتب الشلمغاني:

١)كتاب الأوصياء؛ والكتاب كما يفهم من عنوانه يعالج الأئمة؛ ويبدو أنه كتب قبل أن يتم الفراق بين الشلمغاني والسفير. ويقتبس الطوسي من الكتاب فقرتين، إحداهما تتحدث عن موت الإمام الحادي عشر[٦٣]، والثانية عن ميلاد الإمام الثاني عشر[٦٤].

٢) كتاب الغيبة، والعنوان يدل على أن موضوع الكتاب هو غيبة الإمام الثاني عشر ، وقد بقي حتى زمن الطوسي، الذى استعمله. ويبدو أن الكتاب قد كتب في الزمن الأول بعد سقوط الشلمغاني، فنحن نجد في الغيبة للطوسي اقتباسا من كتاب الشلمغاني، يقول فيه: «إن الذى تسبب في الخلاف بيني وبين الرجل المذكور ـ كثَّر الله من سعادته ـ هو ذنبي أنا حقا، ولكنه أغواني.»[٦٥] نستخلص من هذه الجملة أن الشلمغاني قد حاول مرة أخرى أن يخفف من حدة كلامه.

٣) كتاب التكليف؛ والكتاب يعالج الشريعة في الإسلام. وقد قرأ الكتاب المفيد وابن بابويه أو عبد الله الحسين بن علي وقالا إنه لا تظهر فيه سوى فقرة واحدة، يقول فيها الشلمغاني ما لم يقله الإمام: إذا كان لأخيك في الدين حق ضد شخص ثالث ورفض هذا الشخص أن يعطيه حقه، ولكن أخاك في الدين كان له شاهد، فإنك تستطيع، إذا كان للشاهد سمعة طيبة، أن تذهب إليه ليقدم لك شهادته وتقف بها أمام القاضي حتى لا يضيع حق أخيك في الدين[٦٦]. ويقال إن هذا الكتاب ألف عندما لم يكن هناك نزاع بين الشلمغاني وبين السفير الثالث. وقد

---

(٦٣) الغيبة، ص ٢٢١.
(٦٤) نفسه، ص ١٥٨، بحار، ج ١٣، ص ١٥٢.
(٦٥) نفسه، ص ٢٥٥، وبحار ج١٣، ص ١٥٢.
(٦٦) الغيبة، ص ٢٦٧. وبحار، ج ١٣، ص ١٥٢، وخلاصة الحلي تحت مادة محمد بن علي الشلمغاني، ثم منهج المقال، ص ٣٠٨.

تعود الشلمغاني أن يقرأ على السفير كل فصل، وبعد أن يصححه إلى نهايته يقرأ الكتاب على المستمعين ليكتبوه، وبذلك يكون التأليف للسفير نفسه[٦٧].

على أنه يبدو لي أن هذا العرض الذى قدمه الطوسي ليس صحيحا: لقد ألف الكتاب بعد انفصال الشلمغاني عن السفير، وليس قبل ذلك، فالطوسي يقول في موضع آخر إن السفير الحسين بن روح قد طلب كتاب الشلمغاني عندما سمع به، لينظر فيه، فقرأه كله وحكم عليه بأنه على ما يرام، «باستثناء فقرتين أثنتين أو ثلاث فقرات، يكذب فيها الشلمغاني على الأئمة ـ عليه لعنة الله لهذا»[٦٨]. ومن هنا فإن الكتاب قد كتب بعد سقوط الشلمغاني، ويصبح دليلنا أكثر وضوحا عندما نعلم أن هذا الخبر المذكور كان قد رواه روح بن أبي القاسم، أي إلى ولد السفير[٦٩]. ويؤيد ظنّنا أكثر شهادةُ الرجلين المذكورين، وهما المفيد وابن بابويه. فلو كان الكتاب قد كتب قبل إلحاد الشلمغاني، فإن الرجلين ما كانا ليتحدثا عن الكذب، لأن السفير كان قد صحح الكتاب وقام بتسجيله في الوقت نفسه عدد من رجاله.

٤) كتاب الحاسة السادسة. وقد وضع الكتاب، فيما يراه المؤرخون، لشرح مذهبه الديني الجديد، وكان بالنسبة لأتباعه إنجيلا على نحو ما، لكننا ـ للأسف ـ لا نعرف منه سوى العنوان، ولا نجد في المؤلفات الأخرى أي اقتباس منه[٧٠].

زيادة على هذه الكتب الأربعة الأساسية نعرف له ١٤ عنوانا آخر، ولكن العناوين لا تنم عن شيء من مضامين هذه الكتب، وفي وسع المرء

---

(٦٧) الغيبة، ص ٢٥٤، بحار، ج ١٣، ١٥٢.
(٦٨) الغيبة، ص ٢٦٧، بحار، ج١٣، ١٥٢.
(٦٩) الغيبة، ص ٢٦٧، وبحار ، ج١٣، ص ١٥٢.
(٧٠) أنظر الآثار الباقية، ص ٢١٤، وخانداني النوبختي، ص ٢٢٨.

قراءة عناوينها في ترجمة الشلمغاني[٧١]. وتتضمن الكتب التالية أخبارا عن الشلمغاني: منتهى المقال، ص ٢٨٣، منهج المقال، ص ٣٠٨، خلاصة المقال في معرفة الرجال، مادة محمد بن علي الشلمغاني، ثم الفرق بين الفرق، ص ٢١٥، ٢٤١، ٢٤٩ (وسيعثر المرء في كثير من الحالات على أخطاء تاريخية)، الآثار الباقية، ص٢١٤، تجارب الأمم، ج٥، ص ١٢٣، فهرست الطوسي، ص ٣٠٦، تاريخ اليافعي، ص ٤٩، تاريخ الإسلام للذهبي، ص ١٠٥، وكتاب المنتظم لابن الجوزي، ص ٥٣، أحداث سنة ٣٢٢ هـ وص ١١٩ في خلاصة، يذكر فيها الشلمغاني بوصفه مؤسسا لمذهب شيعي جديد. وهناك دراسة بالروسية، ذكرها في Islamica، كتبه A. Fischer, ed. Brünlich, Lipsiae MCMXXII, وكذلك محاضرات ي. غولدتسيهر J. Goldziher عن الإسلام، Heidelberg, s. 175, 357, 382.

(٧١) النجاشي، الرجال، ص ٢٦٨، وخانداني النوبختي، ص ٢٣١.

الفصل الثامن

تطور علم التوحيد عند الشيعة بشكل عام
قبل الغيبة الصغرى وخلالها

وضع في عصر الغيبة الصغرى أولا الأساس لعلم التوحيد الشيعي الموحد. صحيح أنه كان هناك قبل هذا الوقت عدد كبير من الكتب والآلاف من طلاب العلم، الذين درسوا على الأئمة[1]. فقد روي أن أربعمائة كتاب من الأحاديث الشفوية كانت جمعت من الإمام السادس وحده أو من الإمام الأول إلى الإمام الحادي عشر، وعرفت المجموعة باسم الأصول الأربعمائة[2]. وقد أجرى العلماء وطلاب العلم مجادلات كثيرة مع طوائف أخرى. ونحن نعرف أسماء كثير من الكتب، التي عالجت في ذلك الحين مشاكل توحيدية حيوية مِثل الإمامة، والاختيار وصفات الله وغير ذلك. ولكن أساسا إجماليا ثابتا للمذهب الشيعي، يقوم على مبادئ علمائهم المشتركة مثل مُسلَّمات المعتزلة لم يكن موجودا

---

(١) الشيعة وفنون الإسلام، ص ٣٢، ٤٣، وانظر فهرست الطوسي ورجال النجاشي وكذلك كتب التراجم الشيعية، التي توضح كل هذه الوفرة من الكتب، خصوصا عن الإمامة.

(٢) الشيعة وفنون الإسلام، ص ٣٢، ٤٣، و خنداني النوبختي، ص ٧١، وكتاب أعيان الشيعة، ج١، ص ١٦٩؛ وكلمة الأصل تعني «النص»، الذى يعود إلى الإمام، أي دون تدخل أجنبي أو حتى بشكل مباشر، ينظر عن ذلك رجال أبي علي، ص ١١.

في ذلك الحين. ولم تظهر عند العلماء ضرورة صياغة إقامة مبادئ لعلم التوحيد مصاغة بشكل واضح إلا في عصر الغيبة الصغرى، ولذلك تستحق هذه الفترة اهتماما خاصا.

يختلف الشيعة السنة أساسا في الحديث: فالشيعة يقولون إن ما نطق به الإمام له نفس القيمة التي لأحاديث الرسول. والإمامة يحددها الله، ولذلك يجب على الشيعة أن يطلبوا لفعلهم وتركهم الإذن من الإمام. ويتواصل صف الأئمة حتى الغيبة الصغرى، وهكذا كان تطور علم التوحيد مرتبطا بذلك النسق أيضا. وكانت للحديث عند الشيعة حدود زمنية أخرى على خلاف ما هو عليه الأمر عند السنة. يجب عند أهل السنة أن ينسب كل حديث إلى النبي نفسه، بينما ينسب عند الشيعة إلى واحد من الأئمة فقط، ولم يمت الإمام الحادي عشر إلا في سنة ٢٦٠هـ.

عندما نتأمل التطور الذى حدث في العلم الشيعي، فإننا نجد أن الإمامين الخامس والسادس، محمد الباقر وجعفر الصادق، قد تدخلا في أيامهما بنفسيهما في الجدل مع طوائف أخرى. ومعظم الأحاديث، التي نملكها، تنسب إلى هذين الاثنين، خصوصا الأخير منهما. كان جدلهما نموذجيا بالنسبة إلى الشيعة، حتى إنهم قلدوهما[٣]، وقد وصلتنا أمثلة من هذا الجدال[٤].

لم يكن في استطاعة الإمام أن يقوم بهذا الجدل الكلامي بنفسه، فقد كان العالم الإسلامي كبيرا، وكانت الطوائف الشيعية موزعة على مسافات بعيدة. كان لابد أن يتصدى شخص ما للدفاع عن المصالح الشيعية أمام الأعداء وأن يناقشهم ويجيبهم جوابا مفحما عند ظهور أي أمر من الأمور غير المتوقعة. فكما أخذ المعتزلة على عاتقهم الكشف عن الملحدين والمنافقين وأعداء الإسلام، كذلك نشأ رجال نشيطون شجعان متحمسون

---

(٣) خنداني النوبختي، ص ٦٩.

(٤) ينظر الشهراستاني ، ص ١١٦، ١١٧، ١٢١، و خنداني نوبختي، ٧٠ وما بعدها.

من بين صفوف طلاب العلم وأخذوا على عاتقهم الدفاع عن نقاوة المذهب الشيعي، وأخذوا يناضلون ضد أعدائه من غير الشيعة.

كان لابد في هذا الكفاح من وجود أساس عقائدي مشترك. كان الأساس الوحيد في الأصل آنئذ هو فكرة الإمامة، وكانت نظرية الإمامة باعثا أساسيا على الجدل بين الشيعة والشيعة وبين الشيعة وغير الشيعة. حدث ذلك بين الشيعة والشيعة، لأنهم لم يكونوا في أغلب الأحيان متفقين في الداخل على شخصية الإمام، وفي الخارج على عقيدة الأئمة على الإطلاق. ولم يكن يصلح للدفاع عن هذا المذهب سوى رجل يعرف كيف يستخدم السلاح نفسه مثل أعدائه، ويستطيع أن يستعمل أنواعا مختلفة من وسائل الكفاح: كانت أحاديث الأئمة كافية عند الجدل بالنسبة إلى الشيعة أنفسهم، لكن الكفاح ضد الطوائف الأجنبية كان يتطلب براهين وأدلة أخرى. لم يكن في يد المعتزلة غير سلاحهم الجديد، وهو علم الكلام. على أن ذلك لم يكن ممكنا بالنسبة إلى جميع المدافعين عن مذهبهم أن يراجعوا الإمام في كل مرة باعتباره رئيس الطائفة والعالم بكل أمر من أمور الناس. كانوا يسكنون بعيدا عن الإمام، وكانت المجادلات تنشب في بعض الأحيان فجأة، فكان عليهم أن يعينوا من يمثلهم فيها، وأن يعملوا كل ما في وسعهم. فكما يصحح المعلم لتلاميذه، كان الإمام ينتقد دفاع العلماء، الذين يقدمونه له بعد الجدل شفويا أو كتابيا. ولكن تصحيح الإمام كان في بعض الأحوال يصل متأخرا بسبب البعد وسوء المواصلات، فتنتفي بذلك إمكانية الاستفادة منه.

كانت الآراء والدرجات العلمية، زيادة على اختلاف الناس وعجزهم، مختلفة جدا عند من كانوا يتصدون للدفاع عن المذهب الشيعي. كان المنافقون يتصرفون تصرف الشيعة، ويصوغون أفكارهم في أثواب شيعية لينشروا إلحادهم محتمين باسم الشيعة[٥]. وكان المولعون

(٥) خنداني النوبختي، ص ٦١ وما بعدها، وفهرست الطوسي، ص ٣.

بالتجارة يبحثون عن الاستفادة من أحاديث الإمام الصحيحة وغير الصحيحة، وإنه لمن الممكن إلى حد ما تفسير كثرة الأحاديث على أساس ما كان لدى هذه العناصر من رغبة في الربح[٦]. فكان العلماء يقومون بكثير من الغيرة والطموح على حراسة هذه الأحاديث ، التي كانوا يحصلون عليها، ليظهروا لجميع الناس مكانتهم عند الإمام[٧]. ونتج عن هذه الغيرة الشخصية أن الرجل نفسه كان كثيرا ما يشيع أقوالا من المدح والذم منسوبة إلى الأئمة، فتسبب هذا التمزق في وضع أحاديث كثيرة حتى إن الطوائف الصغيرة نالت من ذلك الشيء الوفير[٨]. ولما كانت هذه الأحاديث لا تنقل إلا عن طريق الرواية الشفوية وكان التزوير سهلا ميسورا، فقد لعنت أهل السنة بخيرهم وشرهم[٩]. لذلك كان الإمام يريد أن تأخذ الأحاديث عن شخصه بحذر ولعن كل من يشيعون الكذب عنه[١٠]. وأمر علماءه ألا يبعدوا عند المجادلات عن أمرهم وعن علمهم، وألا يرضوا غرورهم حتى لا يساء استعمال اسم الشيعة[١١].

كان الإمام الصادق، الذى عاش في زمنه معظم العلماء، قد طلب من كل واحد منهم أن يتخصص في ميدان معين، فأوكل علم الفقه إلى زُرارة بن أعيُن[١٢]، وعلم الكلام إلى مُؤمن الطاق، ومسألة الاختيار إلى الطيار، ومسألة التوحيد إلى هِشام بن سالم الجواليقي، ومسألة الإمامة إلى هِشام بن الحكم[١٣]. ولم يكن لهذا التقسيم معنى طبعا إلا في حالة

---

(٦) بحار، ج١، ص ١٩٥، والكافي ، ص . . .
(٧) خنداني نوبخت، ص ٧٢.
(٨) خنداني النوبختي، ص ٧١/٧٢.
(٩) خنداني النوبختي، ص٧٢، وكتاب الانتصار، ص ١٣٤، وتبليس إبليس، ص ١٠١.
(١٠) خنداني النوبختي، ص ٧٢.
(١١) كشي، ص ١٢٦ .
(١٢) ينظر Der Islam, XIX، ص ٢٢١
(١٣) منهج المقال، س ٣٦٥، وانظر Der Islam, Strothmann

واحدة، عندما يأتي شخص إلى الإمام للمناظرة. وعندئذ كان الإمام يرسله إلى واحد من نوابه، أما في الخارج وبعيدا عن الإمام فكان على العالم أن يكون قادرا على الدفاع في جميع الميادين.

ليست الإمامة وحدها، وإنما كانت هناك أيضا مسائل أخرى تشغل الألباب، وتخالج النفوس، خصوصا مسألة التوحيد، والاختيار، والتشبيه وصفات الله. وهذه الأسئلة المجردة الصعبة تتصل بعلم التوحيد مثلما تتصل بالفلسفة، ولم يكونا في ذلك الحين منفصلين، وإنما كان ينظر إليهما على أنهما معا « العقيدة ». لم يكن في وسع العلماء أن يسافروا إلى الإمام كلما أخذ الجدل اتجاها آخر، فكان على كل واحد منهم أن يحاول تلقائيا قدر استطاعته التغلب على هذه المصاعب بشكل مستقل دون مساعدة زملائه، لأن عزة نفوسهم لم تكن بها حاجة إلى البحث عن النصيحة عند أولئك الزملاء.

لم تكن هناك في مثل هذا المشاكل حلول مقنعة بطبيعة الحال، فقد كان لكل واحد منهم رأيه الخاص، ودامت هذه الحالة من البلبلة حتى الغيبة الصغرى. كان كل واحد منهم يتهم الآخر ويلعنه، فواحد يؤمن بالاختيار، والآخر يؤمن بالجبر. لكن الإمام أوضح لهم مرة أن هذه الاختلافات في الرأي ليست جوهرية، فالمسألة الرئيسة هي أنهم كلهم يؤمنون بالإمام ويتوجهون إليه بالسؤال[١٤]. وهكذا فإن الشيعة كانوا أحرارا في أفكارهم جميعها، على أنه لا يحق لآرائهم هذه أن تكون مناهضة للإمامة، التي تعد المقوم المكمل للمذهب الشيعي.

الواقع أننا نجد الحديث، الذى يمكن الاعتماد عليه فيما يتصل برأي الشيعة في طبيعة الإرادة الإنسانية وجوهر الله، في كتاب الكافي وكتب الحديث الأخرى. ولكن أحاديث الشيعة اختلفت كما اختلفت أحاديث غير الشيعة، وكان ذلك حدث بشكل مفاجئ بحيث كثيرا ما تكون كذلك

---

(١٤) الكافي، ص ٢١٠ و٢٣٩.

مع الاختيار وضده[١٥]. على أن هذا الاتجاه قد ظل فيما يبدو قائما حتى زمن الإمام الثاني عشر: ليس الاختيار ولا هو الجبر، وإنما هو منزلة بين المنزلتين. كان هذا رأي الأئمة، خصوصا جعفر الصادق فيما يتصل بهذه المسألة[١٦]. على أن آراء الشيعة مختلفة هنا أيضا، ولا يمكن العثور على خط موحد. ودام هذا الجدل حتى ما بعد زمن جعفر الصادق، فقال بعضهم بالاختيار وبعضهم الآخر بالجبر[١٧]. والواقع أن الشيعة لم يختلفوا في هذه المسألة فقط، وإنما اختلفوا أيضا في كثير من المشاكل الفقهية والكلامية. كان !الانقسام سمة علم التوحيد الشيعي في ذلك الحين واستمر حتى الغيبة الصغرى، التي اقتضت الظروف فيها إيجاد أساس مشترك من العقائد.

كما لم نجد بعد موت النبي مباشرة اتجاها سائدا في علم التوحيد، فإننا لم نجد كذلك في عصر الأئمة حتى بداية الغيبة الكبرى صورة من الوضوح العقائدي. فصحابة النبي والعلماء المسلمون الأوائل في أيام النبي وبعده بقليل لم يتفقوا على كل مسائل التوحيد: كان لكل واحد منهم رأيه الخاص، وإن هم اتفقوا على أساس الإسلام، وكان الشيعة في الوضع نفسه. فلا يكاد يكون من الممكن كتابة علم توحيد شيعي، لأن الأمر لا يتعلق بنظام متطور بشكل منطقي، وإنما كان يتعلق بأنظمة العلماء المختلفين في الرأي. وكتاب التراجم وحدهم هم الذين كانوا يظهرون آراء العلماء، ولكننا لا نستطيع أن نوضح أنظمتهم على أساس عصرهم أو نستنبطه منه. فدراسة العلماء ومذاهبهم على انفراد هي التي سمحت لنا بمعرفة الوضع العلمي في ذلك الحين. ولكن ميزة عصرهم لا توضح لنا،

---

(١٥) عن اختلافات الشيعة في مثل هذه لمسائل ينظر الشافي، ص ٧٦، ٢١٠، ٢٣٩ وفي عدد كبير من الفقر.

(١٦) الكافي، ص ٧٦، و٥٥، والشهرستاني، ص ١٢٥، ثم مجمع البحرين، ص ٣٧٢.

(١٧) الكافي، ص ٧٦.

على النقيض من ذلك، اتجاهاتهم العلمية. والرجال الموالون يظهرون لنا الحركات العلمية قبل الغيبة الصغرى.

زُرارَة بن أعيُن

(توفي سنة ١٥٠ هـ)

كان زرارة بن أعين عتيقا من أصل يوناني، وأتقن اللغة العربية حتى إنه أصبح فيما بعد شاعرا وفقيها في الوقت نفسه ومن الأتباع الكبار لجعفر الصادق. ويقال إنه تلقى الثناء الكثير من الإمام، ولكنه ذكره بسوء أيضا، ويبدو أن هذا القول يرتكز على وشاية. فالمآخذ تنسب إلى محمد بن عيسى العبيدي، الذى لم تبرأ ساحته هو الآخر[١٨]. كان لزرارة أعداء، رووا للإمام عنه أشياء غير صحيحة، فانخدع الإمام، ووجه اللوم، فيما يقال، إلى زرارة[١٩]، وقد زعم البعض أنه قال إن الله جسم صلب[٢٠].

يقدم هـ. ريتر H. Ritter في كتابه «التعاليم العقائدية لأتباع الإسلام» Die dogmatischen Lehren der Anhänger des Islams, s 22 المصادر التالية عن زرارة بن أعين: الفهرست، ص ٢٠٢، أصول الدين، ص ٩٣، ٩٥، السمعاني، الأنساب، ص ٢٧٢، فهرست الطوسي، ص ١٤١، خلاصة الأقوال، ص ٣٨، منهج المقال، ص ١٤٢، منتهى المقال، ص ١٣٥، مجالس المؤمنين، ص ١٤٣، نام - ي - دانشوران شروان، ٦، ص ٧٧ - ٨٤، ميزان الاعتدال، ص ٣٠٩، Der Islam, 19, 224-6.

وينبغي إضافة المصادر التالية: الكشي، ص ٨٨ - ١٠٧، تبصرة العوام، ص ٤٢٢، الخلاصة، ص ١٠٩، وانظر أيضا شتروتمان، الإسلام Der Islam, XIX, s. 225 ff.

---

(١٨) منهج المقال، ص ١٤٢، ١٤٨.
(١٩) الكشي، ص ٩٧.
(٢٠) تبصرة العوام، ص ٤٢٢.

أبو جعفر مؤمن الطاق

(توفي في منتصف القرن الثاني للهجرة)

نشأ أبو جعفر مؤمن الطاق في مدينة الكوفة، وهي المركز القديم للشيعة، وكان يعمل في مكتب صرافة في طاق المحامیل[٢١]. وكان يكرس أوقات فراغه للدفاع عن المذهب الشيعي، فصار غير الشيعة يطلقون عليه اسم شيطان الطاق[٢٢]، وكذلك فعل أعداؤه داخل المذهب الشيعي حسب شتروتمان، الإسلام، ص ٢٢٣. لقد اشترك أبو جعفر في كثير من المجادلات مع غير الشيعة، منها مثلا مجادلته مع أبي حنيفة. ويجد المرء بين مناهجه في النضال فن قلب معاني الكلمات والميل إلى النكتة، التي يسخر بها من خصومه بشكل مضحك، وبذلك ينحاز الضاحكون إلى جانبه.

ولما لم يكن هناك أساس مشترك للشيعة في ذلك الحين، وكانت ضرورة الدفاع عن مذهبهم تظهر فجأة، فإن بعض الكلمات كانت لذلك تخرج من فم مؤمن الطاق، يرفض قبولها الشيعة، ولكنه لم يكن قد تعود على سحب كلمة قالها[٢٣]. ولذلك كانت لخصومه فرص عديدة لمؤاخذته على هذه الكلمة أو تلك ولإطلاق اسم شيطان الطاق عليه.

بعد موت جعفر الصادق نشأ نزاع كبير بين الشيعة حول من يخلفه. فقد أيد مؤمن الطاق ابن جعفر الصادق، موسى، بوصفه الإمام الشرعي، ودعا له وأرسل الشيعة إليه. ولما كان عبد الله، أخو موسى[٢٤]، يطالب بالخلافة لنفسه، فقد ألب خصومُه أيضا الناسَ على معارضة أبي جعفر

---

(٢١) منهج المقال، ص ٣١٠، الشيعة وفنون الإسلام، ص ١٢، وخانداني النوبختي، ص ٧٧؛ جاء في ضحى الإسلام خطأ أن الطاق حي من أحياء بغداد (ينظر ضحى الإسلام، ج٣، ٢٧٠.)

(٢٢) منهج المقال، ص ٢١٠، شتروتمان، نفسه، ص ٢٢٣.

(٢٣) نفسه، ص ١١١.

(٢٤) منهج المقال، ص ٣٦٦ (خبر تام عن كل الأشياء المذكورة).

مؤمن الطاق والافتراء عليه. فاتهموه بتشبيه الله أو حمّلوه القول بأن الله نور، ولكنه في صورة الإنسان. على أنه لم يكن هناك في ذلك الحين مذهب مجمل ثابت عن صفات الله، ولذلك اتخذ خصوم أبي جعفر من هذا نقطة للهجوم عليه(٢٥).

والظاهر أنه لم تكن بينه وبين الفقيه الكبير هشام بن الحكم صداقة متينة، لذلك كتب هشام في الرد عليه مثل الآخرين. وقد كتب أبو جعفر مؤمن الطاق نفسه كتبا كثيرة، معظمها عن الإمامة.

عن مؤمن الطاق، ينظر ريتر، المرجع المذكور: فرق الشيعة، ص ٦٦، الفهرست، ص ١٧٦، رجال الكشي، ص ١٢٢ ـ ١٢٦، نضد الإيضاح، ص ٣٠٨، منهج المقال، ص ٣١٠، منتهى المقال، ص ٢٨٤، مجالس المؤمنين، ص ١٤٧، بحار، ج ١١، ص ٣٠٨، ٢٢٤ ـ ٢٢٥ و٢٢٨، الوافي للصفدي، عيون الأخبار، ج٢، ص ٢٠٣، أخبار الظراف والمتمجنين لابن الجوزي، ص ٣٤ ـ٣٥.

ويذكر خنداني نوبختي المصادر التالية: رجال النجاشي، ص ٢٢٨، فهرست الطوسي، ص ٣٢٣، ابن أبي الحديد، ج١، ص ٢٩٤، وكثيرا ما يذكر اسم مؤمن الطاق في المصادر التالية: الشهرستاني، الفرق بين الفرَق، مقالات الأشعري، الانتصار، وابن حزم الفصل. لا يذكر كل من ريتر وعباس إقبال: ضحى الإسلام، ص ٢٦٩ ـ ٧١، معالم العلماء، ص ١٢، خنداني النوبختي، ص ٧٧، ٢٥٨، وأنساب السمعاني، ورقة ٣٤٦ أ.

هشام بن سالم الجواليقي

(توفي في منتصف القرن الثاني للهجرة)

كان هشام بن سالم الجواليقي صديقا ومعاصرا لمؤمن الطاق،

---

(٢٥) خنداني النوبختي، ص ٧٨، الانتصار، ص ٥٨؛ يذكر الطوسي، الفهرست، ص ١٧٦، أن هشام بن الحكم قد وضع كتابا في الرد عليه.

وكانت له علاقة متينة بالإمام موسى بن جعفر. وقد أقام مع مؤمن الطاق فترة طويلة في المدينة وبحثا عن الإمام الجديد. ولما لم يقدم له عبد الله بن جعفر علامة معجزة برهانا على إمامته، ذهب إلى موسى بن جعفر، فنجح هناك، ولذلك اعترف به بوصفه إماما شرعيا[٢٦]. فنشر عبد الله بن جعفر افتراءات كاذبة عن هشام بن سالم الجواليقي مثلما فعل مع مؤمن الطاق، وكان هذا من الأسباب، التي جعلت بعض الناس يوجهون التهم إلى هشام بن سالم دون التأكد من صحة ما قيل عنه[٢٧]. وقد اختلف هشام بن الحكم (أنظر تحت) مع هشام بن سالم حول مسألة التوحيد ومشكل الصفات الإلهية[٢٨]. وقد نشر هشام بن الحكم أيضا كتبا رد فيها على مؤمن الطاق وهشام بن سالم.

تحدثنا الكتب التاريخية الدينية أن هشام بن سالم كان يقول بالتشبيه وله رأي خاص في إرادة الله وإرادة الإنسان. على أنه لم يعبر عن هذا الرأي عندما تقدمت به السن وتجنب الحديث عن ذلك حتى يوم وفاته[٢٩]. عن الجواليقي نقرأ عند ريتر، ص ٥٢، المصادر المذكورة على النحو الآتي: الوافي للصفدي والإسلام ١٩، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣.

يضاف إلى ذلك حسب خنداني نوبختي، ٧٨: رجال الكشي، ص ١٨١ ـ ١٨٤، رجال النجاشي، ص ٣٠٥، فهرست الطوسي، ٣٥٦، فرق الشيعة، ص ٦٦، أصول الكافي، ٣٧، ابن أبي الحديد، ج١، ص ٢٩٤، بحار، ج٢، ص ١٤٣ ـ ١٤٥، الانتصار، ص ٦ و٥٧، ثم مواضع متفرقة في الشهرستاني، ابن حزم، وفي الفرق بين الفرق.

ولم يذكر في الاثنين منهج المقال، ص ٣٦٦، ومجالس المؤمنين،

---

(٢٦) مجالس المؤمنين، ص ٧٣.
(٢٧) نفسه.
(٢٨) منهج المقال، ص ٣٦٦.
(٢٩) الشهرستاني، صج٢، ص ٣٤.

ص ٧٣. الفهرست، ص ١٧٦، الخلاصة، مقالة هشام بن سالم، وتبصرة العوام، ص ٤٢٢.

هشام بن الحكم

(توفي سنة ١٧٩، ١٩٩ هـ أو بعد سنوات قليلة)

ولد في الكوفة أيضا ونشأ في واسط، ومارس أعماله التجارية بجانب الكرخ في بغداد، واستقر في النهاية في بغداد. انتمى في بداية أمره إلى الجهمية، أي أتباع جَهم بن صفوان[٣٠]. ولكنه انتقل على يد ابن أخيه إلى المذهب الشيعي وأصبح من أوائل المناضلين من أجل الإمامة. وكان لهشام بن الحكم تجارة مع عبد الله بن يزيد الكوفي، وهو رجل من الخوارج. وكان الرجلان معروفين ومحترمين جدا عند أخوان كل منهما في الدين، وكان الاثنان دائما متلازمين رغم اختلافهما الكبير في المذهب، لم يحدث نزاع بينهما أبدا إلى أن جاء عبد الله بن زيد ذات يوم إلى زميله يخطب ابنته. فعندئذ قال له هشام بن الحكم، إن ابنته مؤمنة، ومنذ ذلك اليوم انقطعت الصلة بين الرجلين[٣١].

بعد موت جعفر الصادق اعترف هشام بموسى بن جعفر إماما، وتولى منصبا ساميا لديه. وكانت له علاقة أيضا بأسرة البرامكة وعن طريق هذه الحماية أصبح معروفا عند هارون الرشيد أيضا. على أننا نقرأ من جهة أخرى أن يحيى بن خالد البرمكي قد حاول أن يبعد ربيبه السابق هشاما خوفا من أن يقصيه عن منصبه عند الخليفة، ولكن هشاما هرب من بغداد إلى الكوفة ومات بعد فترة قصيرة (لم تذكر سنة وفاته)[٣٢]. وهناك

(٣٠) خنداني النوبختي، ص ٧٩، منهج المقال، ص ٣٦٠؛ وجهم بن صفوان إباحي من خراسان، أنكر اختيار الإنسان تماما، وقد أطلق على أتباعه اسم الجهمية نسبة إليه، وقد قتل بسبب آرائه سنة ١٢٨ هـ، ينظر ريتر، المرجع السابق، ص ١٤.

(٣١) مروج الذهب، ج٢، ص ١٣٧ (الطبعة المصرية)، و خنداني النوبختي، ص ٧٩.

(٣٢) منهج المقال، ص ٣٦١ وما بعدها.

أخبار تقول إنه لم يمت إلا في سنة ١٩٩ هـ أو بعدها[٣٣]. ويعد هشام شخصية معروفة بين الكتاب والعلماء، الذين عالجوا مسائل العقيدة. ومع ذلك لا توجد حتى اليوم دراسة علمية تزيل الظلام، الذي يخيم على حياته وعمله. والكتاب، الذين كتبوا عن هشام، يناقضون أنفسهم بأنفسهم بين الحين والآخر[٣٤]. ويصعب علينا استخلاص الحقيقة، لأن كتاب سيرته ينقسمون إلى قسمين: قسم السنة، وهم أعداؤه الألداء، وقسم الشيعة، وهم من أصدقائه الذين لا يقلون عن أولئك نشاطا، ومن بين الأخيرين الشريف المرتضى ومن جاء بعده من العلماء[٣٥].

ولهشام مساجلات مختلفة مع غير الشيعة، وكانت له خصوصا مع المعتزلة مناظرات حادة. فقد تساجل مع أبي الهذيل العلاف حول حكمة الله. كان أبو الهذيل العلاف[٣٦] يقول مثل بقية المعتزلة، الله يعلم كل الأشياء، ولكن علمه ليس كجميع العلماء الآخرين، والله شيء، ولكنه ليس شيئا كالأشياء المعتادة. فرد عليه هشام، إذا كان المعتزلة يتكلمون هكذا، فيجب عليهم أن يعترفوا بأن الله جسد، ولكنه ليس كبقية الأجساد. وقد أوضح الشريف المرتضى أن هشاماً لم يسع إلى الوصول إلى هذه النتيجة، لأنه يؤمن بها، وإنما لأن منطق خصومه يتطلب ذلك، أي يرغمه على الجواب حتى يقودهم إلى المستحيل. لكن الخصوم اعتبروا هذا رأي هشام فعلا، ليكون لهم مغمز فيه[٣٧].

---

(٣٣) نفسه، ص ٣٦٠.

(٣٤) الشهرستاني، ج٢، ص ٢٢.

(٣٥) الفرق بين الفرق، ص ٣٤

(٣٦) كان أبو الهذيل محمد بن الهذيل بن عبد الله بن مكحول العلاف، الذى توفي سنة ٢٣٥ أو ٢٢٧ هـ، يقال إنه ولد سنة ١٣١ أو ١٣٤ هـ، معتزليا عظيما، انظر عنه الخياط في الانتصار، ص ١٧٩، وهـ. ريتر، (المرجع السابق) ص ٥٠.

(٣٧) منتهى المقال، ص ٣٢٢ و٣٢٣، والصافي، ص ١٣ (Die dogmatischen Lahren der Anh?nger des Islam)

يرد المرتضى بن الداعي الحسيني[٣٨] بشكل قاطع على أولئك الذين يتهمون هشاما اتهامات زائفة، ويدافع عنه بحدة: كل الافتراءات الموجهة إلى هشام إنما بثها أعداؤه قصد التشهير به. والغاية من هجمات النواصب(أهل السنة) عليه هي تقديم الدليل على أن لعلماء الشيعة كلهم هذه الآراء غير الإسلامية، وهذا للإساءة إلى الشيعة بهذه الطريقة[٣٩]. غير أنه كان هناك أيضا عند قدماء الشيعة قبل عصر المرتضى أناس مثل أبي محمد الحسن بن موسى النوبختي، الذين رووا أن هشاما كانت له فعلا آراء من هذا القبيل[٤٠].

وكان هناك في الطوائف الشيعية رجال افتروا أيضا شيئا من هذا النوع على هشام بدافع الحسد، فتلقف الأعداء هذه الافتراءات بطبيعة الحال من أوساط إخوان هشام في الدين واستغلوها استغلالا كبيرا في تأليب الناس عليه[٤١]. وأتباع هشام بن الحكم معروفون باسم «الهشامية»[٤٢]، ويجب التفريق بينها وبين الهشامية الأخرى، التي سميت باسم هشام الجواليقي.

يقدم هـ. ريتر، ص ٥١، عن هشام المصادر التالية: فهرست فرق الشيعة، مروج الذهب، ج٢، ص ٢٧٠، مختلف الحديث، ص ٩٩،

---

(٣٨) كان المرتضى بن الداعي الحسيني معاصرا للشيخ منتجع الدين وعاش في القرن السادس الهجري، وهو مؤلف كتاب تبصرة العوام بالفارسية. د.م. دونالدسن، مذهب الشيعة D.M. Donaldson, The Sh'it Relegion, p. 377، يخلط بينه وبين الشريف المرتضى، الذى توفي سنة ٤٣٦ هـ. ولا يلاحظ دونالدسن أن هناك أسماء كثيرة ذكرت في تبصرة العوام مثل الشهرستاني، والغزالي (توفي ١١١١م)، عاشوا متأخرين كثيرا بعد المرتضى بن الداعي الحسيني، ينظر، روضة الجنات، ج٣، ص ٥٦٥.

(٣٩) تبصرة العوام، ص ٤٢١.

(٤٠) خنداني النوبختي، ص ٨٠، وابن أبي الحديد، ج١، ص ٢٩٥.

(٤١) منهج المقال، ص ٣٦٣.

(٤٢) خنداني النوبختي، ص ٨٠ وص ٢٦٧، والأنساب، ص ٥٩٠، ثم الخطط، ج٤، ص ١٦٩.

الشهرستاني، بحار، ج١٥، ص ٣ و١٣، الانتصار، ص ١٧٧، ٢٤٧، الإسلام، ١٩، ص ٢٢١ ـ ٢؛ ويذكر خنداني النوبختي، ص ٨٠، المصادر التالية: رجال الكشي، ص ١٦٥ـ١٨٧، رجال النجاشي، ص ٣٠٥/٣٠٦، فهرست الطوسي، ص ٣٥٥ـ٦، الفهرست، ص ١٧٥ ـ ١٧٦، منتهى المقال، ص ٣٢٢/ ٣٢٣، أصول الكافي، ص ٣٧، كمال الدين، ص ٢٠٦ـ ٢٠٩، تبصرة العوام، ص ٤٢٠ـ ٤٢١، (يوجد في خنداني النوبختي خطأ مطبعي، ص ٤١٩ ـ ٤٢٠)، ابن أبي الحديد، ج١، ص ٢٩٤ـ ٢٩٥، مروج الذهب، ج٢، ص ١٣٧ (الطبعة المصرية)، بحار، ج٢ ص ١٤٣ ـ ١٤٥؛ يعاد ذكره في الكتب التالية: الفرق بين الفرق، الفصل لابن حزم، مقالات الأشعري، وفرق الشيعة.

ولم يذكر في الفهرسين: منهج المقال، ص ٣٦٤، منتهى المقال، ص ٣٢٢ـ٣٢٣، مجالس المؤمنين، مقال هشام بن الحكم، الشافعي، ص ١٣، الخلاصة، مقالة هشام، روضات الجنات، مقالة هشام، ضحى الإسلام، ج٣، ص٢٦٨/ ٢٦٩، دائرة المعارف الإسلامية مقال هشام، قاموس الأعلام، مقال هشام، هورتن، الأنظمة الفلسفية Horten, Die philosophischen Systeme, S. 170، وكذلك Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes, IV - 226، كذلك الألوسي، مختصر التحفة، ص ٤٧ وغيرها، منهج السنة النبوية في أماكن مختلفة، خطط، ج٤، ص ١٦٩.

أبو الحسن علي بن مَيثال التمار

(توفي في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة)

ينتمي أبو الحسن إلى عتقاء الكوفة، كانت له مناظرات مع المعتزلة وعلماء عصره، ومساجلات في مدينة البصرة، التي كان يقيم فيها، مع أبي الهذيل العلاف (توفي بين سنتي ٢٢١ و٢٣١) وأبى إسحاق إبراهيم النظام. ويعتبر التمار العالم الشيعي الأول، الذى دافع عن الإمامة ببراهين

عقلية فقهية، وكتب أيضا كتبا مختلفة، منها «كتاب الكامل في الأئمة» و«مجالس هشام بن الحكم»[٤٣]. كانت مشاكله الرئيسة تتمثل في إرادة الله والعقيدة[٤٤]، ويعتبر التمار أيضا أول من استعمل منهج علم الكلام في كتبه[٤٥].

ويقدم هـ. ريتر عن التمار في مقالات الأشعري المصادر التالية: فهرست فرق الشيعة، خلاصة الأقوال، ص ٤٥؛ ويذكر خنداني النوبختي، ص ٨١، المؤلفين والمؤلفات الموالية: الفهرست، ص ١٧٥، رجال النجاشي، ص ١٧٦، فهرست الطوسي، ص ٢١٢، الانتصار، ص ٦، ٩٩، ١٤٢، ١٧٧، فصول المرتضى (مخطوط) ابن أبي الحديد، ج١، ص ٢٩٤. ولم يذكر: منهج المقال، ص ٢٢٦، الشيعة وفنون الإسلام، ص ٤٤، منتهى المقال، ص ٢٠٧ والخلاصة، مقال عن ابن ميتال التمار.

أبو جعفر السكاك

(توفي في النصف الأول من القرن الثالث)

كان محمد بن خليل، ويعرف بالسكاك، كما يعرف أحيانا من باب الخطأ بالشكال أو السكال، تلميذا لهشام بن الحكم، وأصبح هو نفسه فقيها له شهرة كبيرة. ورغم أن هشام بن الحكم كان أستاذه وأخذ عنه عدته الفقهية للكفاح، فإنه لم يترك فيما بعد اعتبارا لأي رأي من آراء أستاذه باستثناء رأيه في الإمامة[٤٦]. وكتب السكاك نفسه كتبا مختلفة، تظهر لنا عناوينها المشاكل الرئيسة لعلم التوحيد:

كتاب في باب الاستطاعة، كتاب المعرفة، كتاب في الإمامة، كتاب

(٤٣) خنداني النوبختي، ص ٨١، منهج المقال، ص ٢٢٦، منتهى المقال، ٢٠٧.
(٤٤) هـ. ريتر، ص ٣٥.
(٤٥) الشيعة وفنون الإسلام، ص ٤٤، منتهى المقال، ص ٢٠٧.
(٤٦) منتهى المقال، ص ٢٧٢، ومنهج المقال، ص ٢٩٥.

التوحيد (وبه هنا حديث عن تشبيه الله بناء على ما ورد في مصادر أخرى)[٤٧].

وكان من بين معاصريه الجاحظ (١٦٠ ـ ٢٥٥ هـ)، أبو جعفر محمد بن عبد الله الإسكافي (توفي سنة ٢٤٠ هـ) ، وأبو الفضل جعفر بن حرب (توفي سنة ٢٣٦ هـ)، وكانت له مساجلات مع هذين الأخيرين.

يذكر المصادر كل من هـ. ريتر وخانداني النوبختي. ريتر، ص ٢٤ : الفهرست، ص ١٧٦ ، فهرست الطوسي، ٢٩٢ ، منهج المقال، ص ٢٩٥ ، منتهى المقال، ٢٧٢ . ـ خنداني النوبختي، ص ٨١/ ٨٢ : مروج الذهب، ص،ج٦، ص ٣٦٤ (الطبعة الأوربية)، ثم في أماكن مختلفة من كتاب الانتصار، وابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة.

يونس بن عبد الرحمن القمي

(توفي سنة ٢٠٢ هـ)

رجل اشتهر في ميدان الفقه وعلم الكلام على السواء، وكان له بوصفه عالما دور في حاشية علي بن موسى الرضا (سنة ١٤٨ ـ ٢٠٣ هـ). وينتمي يونس إلى تلك الشخصيات وأولئك العلماء المذكورين، الذين اكتالوا من الثناء واللوم نفس المقدار. فنحن نجد ثناء غامرا من جهة، حتى إنهم ساووه بسلمان الفارسي، ثم نجدهم ينهالون عليه بالشتائم من جهة أخرى.

كان يونس يسكن البصرة، وكان فيها وكيلا للإمام الرضا. وكان شيعة البصرة يناوئون يونس، لأنه كان يقسو عليهم حتى إنهم شكوا أمره إلى الإمام، وهذا هو مصدر تلك الأخبار، التي تنكر على يونس بعض أفعاله.

لقد عاش يونس في الوقت، الذى كان فيه الانقسام بين الشيعة حول

---

(٤٧) نفسه.

مسألة خلافة الإمام موسى بن جعفر يثير العواطف، ويوغر الأمزجة. كان يونس قد اعترف بابن الإمام الراحل بصفته خليفة وناضل إلى جانبه. وعرض عليه الواقفون، خصوم علي بن موسى، مبالغ ضخمة لينضم إليهم، ولكنه رفض الرشوة، وبقي وفيا لعلي بن موسى، لذلك أكد له هذا ثلاث مرات على شيء من الأبهة أنه سيذهب إلى الجنة[٤٨].

قام يونس بخمس وخمسين حجة إلى مكة[٤٩]، ويقال إنه ألف ثلاثين كتابا، ومعظم هذه الكتب، التي لا نعرف منها غير عناوينها، تتخذ من الأحكام الشرعية موضوعا لها. ومن كتبه المعروفة، التي يكثر ذكرها في كتب التراجم، «كتاب يوم وليلة»، وهناك آراء كثيرة عن الكتاب تنسب إلى الأئمة، يتعادل فيها الثناء واللوم إلى حد ما.

عندما نتأمل أحاديث الأئمة، التي تؤاخذ يونس، نجد أنها جاءت كلها على لسان أحمد بن محمد بن عيسى وعلي بن حديد. وكان أحمد بن محمد بن عيسى عدوا ليونس، وُصف حديثه هو نفسه بأنه ضعيف. وكان علي بن حديد صديقا لأحمد، ولذلك شارك في هذا الجدل، فنسب كلاهما أقوالا إلى يونس وإلى الإمام. ومن أجل ذلك يجب أن تعتبر جميع الأقوال، التي نسبها هذان الرجلان إلى يونس، عديمة القيمة[٥٠].

المصادر: ريتر، مقالات الأشعري، ص ٣٥، ٥٤: فهرست فرق الشيعة، رجال الكشي، ص ١٨٤، رجال النجاشي، ص ٣١١.ـ خنداني النوبختي: رجال الكشي، ص ٣٠١ ـ ٣١١، فهرست الطوسي، ص ٣٦٦ ـ ٣٦٧، الفرق بين الفرق، ص ٥٢ ـ ٥٣، ابن أبي الحديد، ج١، ص ٢٩٥؛ لم يذكر: منهج المقال، ص ٣٧٦ وما بعدها، ومنتهى المقال، ص ٣٣٦.

---

(٤٨) منهج المقال، ص ٣٧٧ ـ ٣٧٨.
(٤٩) نفسه، ص ٣٧٨: غالبا ما نلاحظ في كتب التراجم عدد ٥٤ حجة!
(٥٠) منهج المقال، ص ٣٧٨.

علي بن منصور

(توفي في النصف الأول من القرن الثالث الهجري)

كان علي بن منصور، وهو من تلاميذ هشام بن الحكم، متكلما مشهورا، لخص آراء أستاذه في الإمامة في كتاب جعل عنوانه كتاب التدبير.

المصادر: هـ. ريتر، مقالات الأشعري، ص ٣٥: مروج الذهب، ج٦، ص ٣٧٣، منهج المقال، ص ٢٣٩، منتهى المقال، ص ٢٢٥. - خنداني النوبختي، ص ٥٣: رجال النجاشي، ص ١٧٦، ثم في مواضع مختلفة من ابن أبي الحديد، والشهرستاني، والانتصار.

أبو الأحوص البصري

(توفي في منتصف القرن الثالث للهجرة)

يذكر أبو الأحوص مع الرجال الذين درسوا أصول الشرعة، وكتب كذلك عن الإمامة، وكان أبو الحسن بن موسى النوبختي قد التقى بالأحوص.

المصادر: كتب هـ. ريتر في مقالات الأشعري، ص ٢٠-: النجاشي ص ١١٣، فهرس الطوسي، ص ٣٦٩، نضد الإيضاح، ص ١٢٧، نقد الرجال للتفريشي، ص ١٢٧، منهج المقال، ص ١٣٤، و٣٨١، منتهى المقال، ص ١٢٨ و٣٣٨. - خنداني النوبختي، ص ٨٤: الشافي، ص ١٤، مقلات الإسلاميين، ص ٦٣.

أبو عيسى الوراق

(توفي سنة ٢٤٧ هـ)

تقدم لنا المصادر الوضع كما لو أن أبا موسى بن عيسى كان قد وقع تحت تأثير الأفكار اليونانية والكتب المانوية، التي كانت قد بدأت تنتشر بين المسلمين وحكموا عليها بأنها إلحادية. ويروى عن أبي عيسى أنه لم

يبق في طائفة واحدة، وإنما كان ينتقل من طائفة إلى أخرى. أما في أعماقه، فكان فيما يروى عنه يدين بالمانوية وكتب عدة كتب عن الثنوية المانوية[٥١].

ولكن أبا عيسى ألف كتبا للشيعة أيضا، دافع فيها عن الأفكار الشيعية حول الإمامة. وهاجم في بعض كتبه الجاحظ المذكور والمعتزلة، ويعود السبب في ذلك إن أن المعتزلة كانوا قد ردوا عليه وعلى الشيعة بصورة حادة، ووصفوه فيها بالزنديق والمنافق، الذى يتظاهر بأنه شيعي، ولكنه في أعماقه يكره عليا، وقد أرادوا بذلك إبعاده عن الشيعة.

لقد دافع المرتضى عن أبي عيسى في كتابه الشافي، وأوضح أن الاتهامات الموجه إليه لا مبرر لها وأنها كتبت بدافع البغض والحسد نكاية بالشيعة. والكتابان ، كتاب الأشراف والنوح على البهائم، اللذان كتبا حسب الفكر الثنوي المانوي، لم يكتبهما هو، وإنما كتبها الناس الذين يدينون هم أنفسهم بالمانوية ويستغلون اسمه بدافع العداوة له[٥٢] . وقد قدر المرتضى محتوى كتب أبي عيسى تقديرا كبيرا واقتبس الكثير منها لنفسه[٥٣] . كانت مقدرة أبي عيسى الأدبية وطريقته في الكتابة جيدتين جدا، وقد ساعدتا على انتشار مؤلفاته. وأشهر كتبه هي:

١) كتاب السقيفة؛

٢) كتاب الإمامة؛

وهذان الكتابان يعالجان مسألة الإمامة من وجهة نظر الشيعة، ولذلك يهاجم المعتزلة وأهل السنة هجوما لا شيء فيه من الرفق واللين.

ويقول إن إمامة علي بن أبي طالب قد قامت فعلا بالنص الجلي ، ولذلك قال أهل السنة إن مسألة النص الجلي إنما طرحها هشام بن الحكم

---

(٥١) خنداني النوبختي، ص ٨٤ وما بعدها.

(٥٢) كتاب الشافي، ص ١٣، و خنداني النوبختي، ص ٨٥.

(٥٣) منتهى المقال، ص ٢٩٦.

وأبو عيسى الوراق، والراوندي، تلميذ الأخير. وقد استفاد المفيد وعلماء شيعيون آخرون من كتب أبي عيسى[٥٤].

٣) كتاب اختلاف الشيعة: يتضح من العنوان أن الكتاب يعالج آراء ومعتقدات مختلفة للشيعة.

٤) كتاب الحكم على سورة لم يكن، وهو شرع للسورة رقم ٩٨ في القرآن، وتسمى أيضا سورة البينة.

٥) كتاب المجالس[٥٥].

٦) كتاب المقالات: وهو كتاب تاريخي ديني، تحدث فيه أبو عيسى عن الثنوية المانوية، وقد اتخذه أعداؤه وسيلة للهجوم عليه؛ ولم ينكر المرتضى تأييده لأبي عيسى عندما كتب الكثير عن هذا المذهب[٥٦].

٧) كتاب في الرد على الفرق الثلاثة من النصارى: كتاب في الرد على الفيلسوف المسيحي يحيى بن عدي (٢٨٣ ـ ٣٦٤ بعد الهجرة) وضد المسيحيين على العموم[٥٧].

٨) كتاب المشرقي.

٩) كتاب النوح على البهائم: هذان الكتابان، اللذان ذكرنا أعلاه أنهما منسوبان إليه زورا، يعالجان موضوع الثنوية المانوية.

المصادر عن الأشعري يذكر ريتر، ٣٧: الإسلام ١٥، ص ٣٥، ١٩، ص ١٠، منهج المقال، ص ٣٢٨، منتهى المقال، ص ٢٩٦، و٣٤٩، رجال النجاشي، ص ٢٦٣، مجالس المؤمنين، ص ١٧٧ . ـ خنداني النوبختي، ص ٨٤ وما بعدها: الفهرست، ص ٣٣٨، الشافي،

---

(٥٤) خنداني النوبختي، ص ٨٦.

(٥٥) نفسه، ومروج الذهب، ج٧، ص ٢٣٦ (الطبعة الأوربية.)

(٥٦) خنداني النوبختي، ٨٦.

(٥٧) خنداني النوبختي، ص ٨٧، ماسينيون، نفسه، ص ١٨٢ ـ ١٨٣.

ص ١٣، مروج الذهب، ج١، ص١٥٧ ـ ١٥٨ (الطبعة المصرية)، ابن أبي الحديد، جح٤، ص ١٥٩، مروج الذهب، ج٧، ض٢٣٦ (الطبعة الأوربية)، فهرست الطوسي، ص ٩٩، Louis Massignon, Receuil des textes, p. 182-183.

(ص ١٨١) كل هؤلاء الرجال، الذين تحدثنا عنهم وعاشوا قبل الغيبة الصغرى، لم يأمن أي واحد منهم من الوشاية. فكانت الرواية تتم حسب الموقف الشخصي من الرأي، الذى كان للأئمة من كل شخص من الشخصيات المذكورة، أو ما قالوه من ذلك عنهم. ليس من واجبي هنا فحص مضمون الحقيقة في هذه الأحكام، وعلي أن أترك هذا الميدان الخاص، الذى لم يدرس حتى الآن بما فيه الكفاية، على ما له من أهمية وخصوبة، لدراسة أخرى يقوم بها غيري. ومما يجعل دراسة هذا الموضوع صعبة، هو فقدان مؤلفات أولئك الرجال، فلنكتف هنا بالإشارة إلى هذا المشكل لتطور علم التوحيد كله.

في أيام الأئمة لم يكن هذا النوع من الانقسام ذا خطورة كبيرة، لأن الناس كانوا يسألون الإمام مباشرة. غير أن هذا الوضع أصبح بعد موت الإمام الحادي عشر، أي في وقت السفير، دقيقا دقة بالغة بالنسبة إلى الشيعة، لأن أهم الشهود على علم الشيعة أنفسهم لم يكونوا يمثلون اتجاها موحدا. فكان من الضروري العثور على مخرج من هذه الفوضى وإقامة نظام واضح لعلم الكلام، لأن الأحاديث ذات الأصول المبهمة كانت قد أصبحت كثيرة جدا.

يعتبر زمن الغيبة الصغرى، من وجهة نظري، بداية للتطور المنطقي لعلم الكلام الشيعي، ليصبح نظاما متكاملا متميزا، يجمع فيه من كل النظم الشيعية القديمة المنعزلة تلك الخصائص المتميزة لعلم الكلام الشيعي الموحد. وبدأ المفهوم القديم للمذهب الشيعي يتضاءل بشكل مطرد في المبدأ السياسي الديني، وانتقلت بدل ذلك السمة الدينية مركز الصدارة. لقد جهدوا في إقامة صرح تعليمي متكامل وتأسيس علم

الكلام، الذى يرتبط ارتباطا وثيقا بحديث النبي وحديث آل البيت.

ولا ينبغي لنا أن ندعي عموما، لانعدام ما يكفي من الشهادات، أن السفراء قد قاموا هم أنفسهم بإنشاء نظام ملزم، رغم أنه وصلنا عن السفير الثاني أنه وضع كتابا بهذا المعنى(٥٨) ورغم وجود عدد كبير من توقيعات السفير الثالث(٥٩). ولعل السفراء قد تجنبوا وضع الكتب(٦٠)، سَيْرًا على نهج الإمام لأسباب معينة، لأنهم، فيما أفترض، قد شعروا بالترفع عن ضرورة تأليف الكتب بصفتهم معلمين وأساتذة مهمتهم تحديد الاتجاه. والأكثر من ذلك أن علماء الغيبة الصغرى من الشيعة هم الذين بدؤوا بوضع قانون، يجب على كل شخص أن يخضع له في ميدانه، فأصبح بذلك مقوما جوهريا من مقومات علم الكلام عند الشيعة.

قبل أن أتحدث عن هذا التطور، أحب أن أذكر الصعوبات الخارجية، التي أعاقت علماء الشيعة عن نشر أفكارهم. لما كان من الممكن ألا تصل كتبهم إلى أيدي حسادهم فقط، وإنما كان من الممكن أن تقع أيضا تحت نظر الحكومة، التي تجد كل الجد في مراقبة العلماء والبحث عن إلصاق التهم بهم، فقد قرر هؤلاء الاقتصار على نشر آرائهم ونتائجهم عن طريقة الرواية الشفوية. فنحن نشاهد أن نشر كتب الشيعة

---

(٥٨) الغيبة، ص ٢٣٦.

(٥٩) نفسه، ص ٢٤٢.

(٦٠) حقا إنه ليذكر أن الإمام الخامس محمد الباقر قد كتب تفسيرا للقرآن (أنظر فهرست ابن النديم ، ص ٣٢)، كذلك يذكر أن الإمام الحادي عشر الحسن العسكري قد كتب تفسيرا للقرآن، يعرف اليوم بتفسير العسكري (أنظر شتروتمان، مصادر الشيعة، ص ١٢، رقم ١٢ أ). على أنه ينبغي لنا أن نتذكر هنا أنه لا وجود إطلاقا لأخبار، تقول إن الإمامين قد وضعا كتابيهما للرأي العام الشيعي. ثم إنه لا يوجد الكتاب المذكور أولا، والثاني لم يصدر إلا بـ«اسم الإمام». الكافي، ص ١١٨ ، يروي عن قناعة عن ورقة «جامعة»، بمعنى موجز ، طولها سبعون ذراعا للنبي، كتب عليها طبيعة ونوع العالم كله من البداية إلى النهاية.

يزداد، كلما كان لهم نفوذ في الحكومة، ، ولكنه ينعدم في حالة عجزهم عن ذلك، ومن ثم لا نسمع عنها عن كتبهم شيئا(٦١).

إن كثرة عدد الرجال والمؤلفات يجعل من الحديث عنها حديثا شاملا مستفيضا غير ممكن. لذلك لم نختر غير الشخصيات المتميزة، التي تعد أعمالها من مقومات صرح علم التوحيد الشيعي وتمثل اتجاهاته. وكان علينا كذلك أن نقتصر على المؤلفات الكلامية المحضة، التي تتصل بموضوع الغيبة الصغرى.

علم الكلام

يتضح من كتب التراجم الشيعية أن هناك بصورة دائمة إشارة إلى علي بن إسماعيل بن ميتال التمار بوصفه الأول، الذى تكلم عن مذهب الإمامية الشيعية(٦٢). ولكن الكتاب الأول عن الإمامة ألفه فيما يقال عيسى بن رَوضة، الذى كان يعيش في بلاط الخليفة المنصور (توفي سنة ١٥٨هـ)(٦٣). وعلى العموم فإن علم الكلام لم يجد لا عند الشيعة ولا عند السنة(٦٤) قبولا واحدا، بل إن بعض علماء الشيعة رفضوه. فقد كانوا يخشون أن ينزلقوا من الدين إلى بحر الفلسفة، الذى لا ساحل له.(٦٥). أما أولئك الذين كانوا يميلون إلى علم الكلام، فكانوا يدافعون عنه بقولهم بأن تحذير الأئمة من هذه الدراسة يخص الضعفاء، الذين يمكن أن تزل

---

(٦١) الدرجات الرفيعة، ص ٣.

(٦٢) عن علي بن إسماعيل بن ميتال ينظر كتابنا هذا ص ١٢٠.

(٦٣) منهج المقال، ص ٢٥٥، الشيعة وفنون الإسلام، ص ٤٤، وخانداني النوبختي، ص ٧٥.

(٦٤) تلبيس إبليس، ص ٨٧ و٤٠١، كان هارون الرشيد قد منع الجدل في الكلام فترة معينة، لأنه كان يخشى أن يكون انتشار هذا العلم سببا في الخروج عن الدين (طبقات المعتزلة، ص ٣١).

(٦٥) الكشي، ص ١٧٢، الاحتجاج، ص ١، الانتصار، ص ٤، خنداني النوبختي، ص ٧٢.

بهم القدم، ولا يشمل العلماء ممن لهم تجربة في هذا الميدان. فكان أن نشأ هذا العلم في الغيبة الصغرى رغم ما كان هناك من مناهضة له . وتكون عن التناقض بين الموقفين معسكران: معسكر الأخباريين ومعسكر الأصوليين. وكان لهذا التناقض أثرحاد في الميادين الثلاثة الحديث والفقه وعلم الكلام.

عرف علم الكلام في الإسلام عن طريق المعتزلة، فتحديده ومنهجه من اختراعهم، وكان بعض المعتزلة قريبين جدا من الشيعة: كانوا يحترمون عليا احتراما كبيرا، حتى إنه ليصعب أحيانا التفريق بين هؤلاء الناس وبين الشيعة(٦٦) . ولما كانت هناك في الأوساط الشيعية آراء مشابهة لآراء المعتزلة وبدؤوا يتبعون نفس الاتجاهات والميول، فقد كانت آراء الشيعة في ميدان علم الكلام تزداد اقترابا بصورة مستمرة من آراء المعتزلة إلى أن أصبحت معظم تعاليم الشيعة المتصلة بعلم الكلام في عصر النوبختي والمفيد والمرتضى مشابهة تماما لآراء المعتزلة. لذلك يمكننا القول بأن المذهب المعتزلي كان يعيش في المذهب الشيعي(٦٧) . على أنه من المهم أن نلاحظ أن التناقضات الحادة قد ظهرت رغم التشابه بين آراء الشيعة وآراء المعتزلة منذ البداية، كما نرى في المساجلات الموجودة(٦٨) .

التشابه في الآراء المتصلة بعلم الكلام جعلت الشقة تضيق بين علم الكلام عند الشيعة وعلم الكلام عند المعتزلة . ويرى مؤلف منهج السنة أن الشيعة قد أدرجوا في نهاية القرن الثالث للهجرة عن طريق ابن

---

(٦٦) خنداني النوبختي، ص ٧٤؛ أبو الهذيل العلاف وبشر بن المعتمد، وكلاهما معتزلي، كانا يريان أن عليا أفضل من الخلفاء الثلاثة الآخرين، ولذلك سجنوا فترة من الزمن باعتبارهم شيعة (ينظر طبقات المعتزلة، ص ٣٠ و٣٨).

(٦٧) منهاج السنة، ص ١٦.

(٦٨) كتاب الانتصار لا بن الخياط، الذى يجد المرء عنده في كل صفحة تقريبا براهين تتصل بملاحظتنا هذه.

النوبختي وعن طريق المفيد فيما بعد تعاليم المعتزلة في المذهب الشيعي، ولكن رأيه هذا لا يطابق الحقيقة، فقد لاحظنا أن الشيعة قد عرفوا بعض التقاليد الفكرية في نفس الوقت مع المعتزلة، ولكن بصورة مستقلة عنهم، تمثلت في بعض النقاط، منها مثلا مسألة الاختيار أو جوهر الله هل شيء يمكن إدراكه أو هو مجرد اسم وخلود الله وغير ذلك،[٦٩].

وإذا زعم البعض أن الشيعة قد توحدوا عن طريق انتصار اتجاه داخل اتجاههم، وأن الشيعة الإثني عشرية قد أقر أغلبهم منذ عصر ابن النوبختي بالاختيار وأنهوا بذلك الجدل القائم حول هذه المشكلة أو تلك وجعلوا تعاليمهم مشابهة لتعاليم المعتزلة، فإن هذه الادعاءات في رأيي صحيحة. ولهذا لا يحق لنا أن ننسب الفضل في تطور علم الكلام الشيعي لا إلى لمعتزلة ولا إلى الشيعة بصورة أحادية. ولا ينبغي أن ننسى أن ابن النوبختي وغيره من العلماء قد عملوا في ميدان الفلسفة وانهم تلقوا آراء نقلت إليهم، تتطابق مع آراء المعتزلة تماما. ولكن نشاط رجال الشيعة ومجادلاتهم المستمرة مع المعتزلة في المناظرات العامة قد أفرزت توضيحات للآراء الشيعية. ذلك أنهم تعرفوا على مناهج الخصم، فتحتم عليهم صياغة نظريات معينة لتكوين نظامهم ، وهكذا نشأ نظام علم الكلام الشيعي.

والمشكلة الرئيسة، التي اهتم بها علم الكلام الشيعي، هي الإمامة. فقدمت لها العُدَّة الكاملة من المفاهيم والمناهج وفن الجدل مشافهة وكتابة. كل الرجال، الذين تكلمنا عنهم هنا، يكرسون مؤلفاتهم الرئيسة للإمامة ويحاولون عن طريق الحديث والمنطق مساندة مواقفهم.

والحديث بوصفه شهادة يشكل قضية حساسة، ذلك أن كل ما يحتاج إليه الخصوم هو إنكارها، وحينئذ يعتبر كل دليل لاغيا. إذا ما تخلى

(٦٩) منهاج السنة، ص ١٦؛ عن آراء الشيعة أنظر الكافي، ص،١٤، ٤٢، ٥١، ٥٢، ٧٣، ٧٥، ٧٦، ٢١٠، ٢٣٩ وأماكن أخرى !

الشيعة عن مأثوراتهم وأخذوا بحديث أهل السنة عن علي وآل البيت، فإن السؤال الذي يطرح هو: هل هذا الحديث صحيح أو مزيف(٧٠).

والآن جاء رجل يذلل كل هذه الصعوبات: أبو سهل إسماعيل بن على النوبختي (٢٥٥ـ ٣١١ هـ). لقد اكتسب معرفة واسعة بأعمال الشيعة السابقين وآرائهم، واستخلص من خلال مجادلاته حول مسألتي النبوة والإمامة، أن الاثنتين تنتميان إلى بعضهما البعض وأن الإمامة نتيجة للنبوة. وقد تبنى هذا الموقف من جاؤوا بعد أبي سهل وعالجوا دائما النبوة والإمامة إحداهما بعد الأخرى(٧١)، ومنذ ذلك الحين أصبحت الإمامة مقوما مندمجا في العقيدة الشيعية.

يرى الشيعة أن النبي محمد قد عين عليا خليفة له بوحي من الله وأنه قد أعلن هذا «النص الجلي» في الناس. واعتمادا على هذا «النص الجلي» بدا للشيعة أن مطالبتهم بالإمامة أمر مؤكد. لكن مسألة «النص الجلي» بالذات كانت سببا في النزاع بين الشيعة وغيرهم(٧٢).

يقول غير الشيعة إن تعيين علي إنما هو من اختراع هشام بن الحكم، وأبي عيسى الوراق، وابن الراوندي. فالشيعة الذين سبقوا أولئك الرجال لم يعرفوا شيئا عن هذا التعيين ولكن الشيعة أرادوا أن يجعلوا هذا «النص الجلي» من أركان علم الكلام الشيعي القديم. إن غير الشيعة لم يسمعوا بذلك من قبل قط ولم يقرؤوا عنه إلا في كتب الرجال الثلاثة، ولهذا ادعوا خطأ أن الثلاثة هم الذين ابتدعوه(٧٣).

على أننا نسمع من غير الشيعة أيضا أن بعضهم قد توصل إلى فكرة

---

(٧٠) ولنتذكر هنا المواضع المختلفة عند السني كنجي (توفي سنة ٦٥٨ هـ) وعند نور الدين بن الصباغ المالكي (توفي ٨٥٥/١٤٥١م) بروكلمان، (رقم ١١، ص ١٧٦ والتكملة، ص ٢٩٤ رقم ١١).

(٧١) خنداني النوبختي، ص ٧٧.

(٧٢) خنداني النوبختي، ص ٧٧.

(٧٣) نفسه، ص ٧٦، والشافي، ص ٩٨.

النص، أي تعيين خليفة من قبل النبي نفسه[٧٤]، فقال إن النبي قد عين أبا بكر خليفة له.

لقد ساهم في تطوير تعاليم الإمام عند الشيعة، إلى جانب النص، مفهومان آخران، ولعبا فيه دورا مهما، هما التقية والبَدَاء. قيل إن عمر بن رياح جاء مرة إلى الإمام محمد الباقر وسأله، فأجابه الإمام. بعدها ذهب الرجل إلى بيته وعاد بعد سنة إلى الإمام ثانية، وطرح عليه السؤال نفسه. ولكن الجواب كان في هذه المرة مغايرا فاندهش السائل واعترف له بأنه لا يستطيع أن يوفق بين هذا الجواب وجواب السنة الماضية، فأوضح له الإمام أن الجواب الأول قد صدر عن التقية، ومنذ تلك اللحظة بدأ الرجل يرتاب في الإمام. وعند رجوعه التقى في طريقه برجل يدعى محمد بن قيس، فروى له الحادثة، فوقع في ظن الرجل أن الأمر يتعلق بالتقية. ولكن عمر رد عليه بأنه كان قد ذهب إلى الإمام في المرة الأولى بوصفه شيعيا متدينا، ولم يكن بينهما أحد، فلا هو ارتاب في أمر الإمام ولا الإمام ارتاب في أمره. إنه لم يعد الآن يؤمن بالإمام، فالإمام الذى يتكلم هكذا ويظهر الخوف في بيته ليس إماما. الإمام عليه أن يتكلم بشجاعة ومن غير خوف[٧٥].

كان جعفر الصادق قد أعلن في حياته أن ابنه إسماعيل سيكون خليفته، ولكن الابن مات قبل أبيه. فأوضح الإمام أن البداء (مراجعة الله مشيئته لفائدة البشر) هو السبب في عدم تحقق النبوءة. على أن البداء لم يعترف به الشيعة كلهم[٧٦].

لقد أصبح المفهومان التقية والبداء، اللذان أوضحناهما من خلال

---

(٧٤) الشهرستاني (الطبعة المصرية)ج ٢، ص ٤٥٥، والأشعري، مقالات ص ، ٤٨، ومنهاج السنة، ج ١، ص ١٣٤.
(٧٥) فرق الشيعة، ص ٥٢.
(٧٦) نفسه، ص ٥٥.

الأمثلة، من المشاكل العويصة في علم الكلام الشيعي، ومسألتي نزاع دائم بين الشيعة وغيرهم.

والتقية والبداء، فيما يقول الشيعة، ليسا شيئا خاصا، ولا هما علامة مميزة عندهم، وإنما هما موجودان في الطبيعة العامة للإنسان. فغريزة المحافظة على الحياة تدفع الناس في أوقات الخطر وحالات الخوف إلى التصرف تصرفا آخر يختلف عن تصرفهم في حالاتهم العادية. وفي إمكاننا العثور على أمثلة كثيرة لذلك في الإسلام عند بدايته. والسبب الوحيد في التقية هو خوف الأتباع من بطش الحكومة في ذلك الحين، والذنب في مثل هذا التستر لم يكن في الحقيقة ذنب الشيعة، وإنما ذنب من كان يرغمهم عليه[٧٧].

وتوجد التقية، فيما نقرؤه عنها، عند أهل السنة أيضا. فعندما تكون حياة السني في خطر، يتحتم عليه أن يلجأ إلى التقية أيضا. الفرق الوحيد إذن هو أن التقية تلعب عند الشيعة دورا أكبر[٧٨]، أما من حيث الجوهر فليس هناك من فرق أساسي بينهما.

ومعظم الأحاديث المتصلة بالتقية تعود إلى الإمام السادس، جعفر الصادق، في عهد الخليفة المنصور، الذى اضطهد الشيعة وطاردهم. فأجبر ذلك الإمام على التقية حتى لا يعرض أتباعه للخطر. ولم تصلنا من هذه الفترة أحاديث كثيرة عن التقية. وكان الشيعة وآل البيت قد قاموا في أيام الإمام الخامس، محمد الباقر، بثورات ضد الخلفاء وماتوا شهداء، إذ أنهم لم يكونوا يذهبون إلى بيوتهم من باب التقية[٧٩]. لكنهم لجؤوا إليها

---

(٧٧) أصل الشيعة: في هذا الكتاب فصل متميز عن التقية في المذهب الشيعي، يقدم الدليل على أن التقية ليست مقوما من مقومات المذهب الشيعي، وإنما هي نوع من السلوك الإنساني عند الخطر، ينظر أصل الشيعة، ص ١٨٩ وما بعدها.

(٧٨) الألوسي، مختار التحفة، ص ١٨٨.

(٧٩) أصل الشيعة، ص ١٩٣/ ٩٤.

بعد محمد الباقر، كما تظهر لنا ذلك قصة زيد بن علي مع أخيه الإمام[٨٠].

فهل التقية جائزة عند الشيعة في أيامنا هذه أم لا؟ إن التقية تعني، كما رأينا، التستر عن العدو وهي مطلوبة منهم على الدوام. لكنها تتغير بتغير الوقت طبعا. في الماضي كانت التقية تتمثل في ألا يظهر الشيعة أمام الناس عند أداء الصلاة وألا يظهروا أبدا أنهم شيعة. أما في أيامنا هذه، التي تسود فيها الحرية في المسائل الدينية، فإن الإنسان ليس في حاجة إلى التمسك بالمفهوم القديم للتقية، فمن حقه أن ينتمي إلى المذهب الشيعي بكل حرية. التقية لا تتطلبْ من الشيعي اليوم سوى أن يصادق ويقيم علاقة مع غير الشيعة وأن يحترم مشاعر الآخرين الدينية[٨١].

وعلى هذا فالتقية عند الشيعة موضوع تربوي أخلاقي سياسي أكثر مما هو موضوع ديني محض. ومن الغريب أن للكتاب المحدثين في أوربا وفي الشرق مزاعم عن التقية ونشأتها، فبعضهم يزعم أنها عقيدة في المذهب الشيعي[٨٢] وآخرون يحاولون عبثا الربط بينها وبين الأفكار الدينية والفلسفية الغربية[٨٣].

---

(٨٠) ابن خلدون (الطبعة الفرنسية ١٨٥٨، باريس) ج١، ص ٣٥٧، وانظر عن التقية الكافي، ص ٢١٩، ٢٢٤، ٤١٧ و٤١٨.

(٨١) كاشف الغطاء، رسالة خاصة بتاريخ ٢٢ رمضان ١٣٥٥ بعد الهجرة.

(٨٢) ضحى الإسلام، ج ٣، ص ٢٤٧.

(٨٣) غولدتسيهر، محاضرات عن الإسلام، Goldziher, Vorl. über d. Islam, p. 203, 239, 281, 355، يعود غولدتسيهر في مسألة علاقة الشيعة بغيرهم من المؤمنين (القسوة ، عدم مساعدة أصحاب الأديان الأخرى) ص ٢٣٩ الموازاة بمذهب أتباع زرادشت، هذا الرأي، الذى جاء في الفصل نفسه، وهو فصل «مبدأ الطائف»، ويقدمه جولدتسيهر مع آراء عن الشيعة والأحاديث القديمة تنسب إلى هذا العصر أو إلى القرن الماضي، مثل مسألة النجاسة، ويستخلص نتائج مثل السابقة، لا أستطيع أن أوافق عليها.عن التقية، أنظر أيضا جولدتسيهر في المجلة الألمانية للدراسات الشرقية .ZDMG, LX, 213 ff وكذلك Josef Horovitz, Der Islam, III, 1912, p. 63-67، ثم السبكي، ٢٠٧/١، ١٢

وتسير قصة البداء بموازاة التقية أو ترتبط بها، فيقال إن أئمة الشيعة يقدمون أنفسهم إلى طوائفهم على أساس أنهم أنبياء، ومن عادتهم، إذا ما تحققت نبوءتهم، أن يشيروا إلى النبوءة، أما إذا لم يتحقق منها شيء، فإن المسؤولية لا تقع عليهم، بل تقع على بداء الله[٨٤].

ويروى أن المختار هو أول من عبر عن هذه الفكرة من بين الشيعة، فلكي يقنع أتباعه بنفسه وبوحيه، كان يلجأ إلى البَداء لتبرير سياسته عند فشل مشروع من مشاريعه[٨٥].

لقد اتجه الشيعة، جوابا على اعتراضات غيرهم ممن لا يريدون الاعتراف بالبداء، إلى وضع هذا المبدأ في نفس الدرجة وجعلوا مفهومه بالطريقة نفسها في حديث في «النسخ»، فما قيل عن «النسخ» في القرآن، يجب أن يقال أيضا عن «البداء»، لأن الاثنين يقومان على أساس واحد.

إن البداء، الذي كرهه أعداء الشيعة وحاربوه، ليس شيئا آخر غير النسخ، الذى يعترف به جميع المسلمين. ذلك أن النسخ إنما هو تعويض الله آيات قرآنية بآيات أخرى، والفكرة نفسها تكمن في البداء، الذى لا يتعدى أن يكون تمديد النسخ إلى الأئمة. فالفرق إذن ظاهري ولا يتصل إلا بالإمام[٨٦]. وقد قدم المختار الدليل بشكل منطقي: إذا كان النسخ مسموحا به في الأحكام فينبغي أن يكون البداء في الأخبار جائزا أيضا[٨٧].

لقد انتشر البداء كما انتشرت التقية انتشارا كبيرا في علم الكلام الشيعي ، لكن الشيعة، عندما اتصلوا بالمعتزلة، أهملوا البداء نوعا ما كما يذكر المعتزلي ابن الخياط في كتاب الانتصار[٨٨]. على أنه لا يجوز لنا

(٨٤) فرق الشيعة، ص ٥٥.
(٨٥) الشهرستاني (الطبعة المصرية) ج ١، ص ١٩٧.
(٨٦) أصل الشيعة، ص ١٨٩، وكتاب الانتصار، ص ١٢٧.
(٨٧) الشهرستاني (الطبعة المصرية)، ج ١، ص ١٩٧.
(٨٨) كتاب الانتصار، ص ١٢٧.

أن ننسى أن فكرة البداء قد اختفت بموت الأئمة، لأنه كان مرتبطا ارتباطا لا انفصام له بشخصية الأئمة ، الذين جعلهم الله لإظهار كلمته.

البداء إذن غير موجود من الناحية العملية ولا يوجد إلا في الكتب الكلامية بوصفه حقيقة تاريخية ونظرية تتصل بمرحلة قديمة.

وكما ارتبطت فكرتا التقية والبداء بالأئمة ارتباطا وثيقا، ارتبطت بهم كذلك فكرتا الرجعة والغيبة ، ويغلب على الظن أنهما أقدم منهما. وقد ذكرنا أن عمر خطب بعد موت النبي في المسجد وقال إن محمدا لم يمت ميتة أبدية، وإنما ستكون له رجعة[٨٩]. وقد ذكرنا كذلك أن عبد الله بن سبأ قال إن عليا لم يمت، وإنما قتل في مكانه شبيه له[٩٠]. وشاع بين أتباع محمد بن الحنفية أن سيدهم لم يمت، وإنما هو مقيم بجبل رضوى وعنده عسل وماء، وسيظهر في يوم آخر[٩١]، وهكذا تتكاثر الأمثلة. إذن فعودة شخص معين كانت تفهم في الأصل من اسم «الرجعة»، ومع مضي الزمن، تطور مفهوم كلمة «الرجعة» وابتعد عن معناها الأصلي.

وعليه فإن الرجعة لا تعني عند معظم الشيعة رجعة شخص واحد بعد موته، وإنما تعني رجعة الأئمة الإثني عشر والنبي ومعهم أعداؤهم ليثأروا منهم. ويمثل هذا الرأي قسم من الشيعة، ومنهم العلامة الشريف المرتضى، الذى عاش في عصر البويهيين، أي في الوقت، الذى تطورت فيه سلطة المذهب الشيعي وظهرت أمام الناس جميعا، فلم يعد الشيعة يتسترون في إظهار تقاليدهم واحتفالاتهم الدينية أمام أي إنسان، وكان العلماء يظهرون كراهيتهم للخليفة دون خوف من مطاردته لهم، وكانوا يتوقعون أن محاسبتهم لأعداء المذهب الشيعي لم تعد بعيدة.[٩٢]

---

(٨٩) ينظر مقدمة الكتاب.
(٩٠) نفسه.
(٩١) نفسه.
(٩٢) بحار، ج ١٣، ص ٢٣٥.

وكانت فكرة الرجعة عند القسم الآخر من الشيعة قد جردت عن الشخصية تماما وأصبحت فكرة تتصل بإقامة دولة شيعية دون التفكير في عودة شخص معين لحما ودما. وقد اعترض الشريف المرتضى على هذا الرأي بحدة[٩٣]. وتطورت الرجعة في اتجاه آخر إلى الغيبة، وهو تعبير اتخذ موضوعا لدراسات كثيرة استمرت حتى أيامنا هذه، ويعني هذا التعبير أن الإمام الثاني عشر اختفى وأنه سيرجع. وقد حرص المتكلمون على تناول هذه «الفرضية» منذ سنة ٢٦٠ هـ شفويا أولا ثم كتابيا أيضا منذ نهاية الغيبة الصغرى. وتراجعت فكرة الرجعة، وأصبحت منذ ذلك الحين موضوعا ثانويا، حتى إن معظم شيعة اليوم يعرفون الغيبة، ولكنهم لا يعرفون شيئا عن الرجعة، لأن الباعث المحرك لها، وهو أخذ الثأر، قد سقط اليوم.

ومع أن الرجعة كانت في القديم عقيدة وعالجها العلماء على هذا الأساس، فلا يمكن اعتبارها عقيدة، خصوصا عند الشيعة في أيامنا هذه. فهي مجرد تأمل نظري، يستطيع المؤمن أن يؤمن به أولا يؤمن[٩٤].

كثيرا ما يلاحظ المرء انصهار المفهومين معا الرجعة والغيبة، حتى إن المرء ليتحدث عن الرجعة عندما يتناول موضوع الغيبة، فأصبحت الرجعة ملحقة بالغيبة. والرجعة والغيبة مرتبطتان زمنيا[٩٥] وقد سبق أن لاحظنا عند حديثنا عن المصادر أن الكثير من الكتب، التي تحمل عنوان الرجعة تعني الغيبة.

نتناول الآن الممثلين الرئيسين للفقه الشيعي، الذى تطور أيام الغيبة الصغرى.

---

(٩٣) نفسه.

(٩٤) أصل الشيعة، ص ٦٦.

(٩٥) ينظر بحار، ج ١٣، ص ٢١٥-٢٣٦، حيث تقدم نظرة شاملة متميزة عن جميع آراء العلماء حتى عصر المؤلف.

ابن الراوندي

(توفي حوالي سنة ٢٤٥ أو ٢٩٨ هـ)[٩٦]

ينتمي أحمد بن يحيى بن أبي الحسين إلى الشخصيات، التي لا يعرف المرء عنها على وجه اليقين هل هي ملحدة أو مؤمنة، وإذا كانت مؤمنة هل هي من الشيعة أو من غير الشيعة، وهو من مدينة مرو الروذ في مقاطعة خراسان، ويعرف بابن الراوندي. والشي الوحيد، الذي يمكن قوله عنه بكل تأكيد، أنه كان كاتبا ممتازا[٩٧] وأن كتبه كانت لها مكانة متميزة في عصره.

ذهب ابن الراوندي إلى بغداد، التي كانت قبلة الطموحين والمتطلعين إلى المناصب المغرية، ووجد له مكانا بين المعتزلة، وكان أخوه وأقرباؤه ينتمون إلى الطائفة أيضا. وما كان رجل طموح ذي طبيعة مضطربة مثل ابن الراوندي ليستطيع طبعا البقاء فترة طويلة في أوساط المعتزلة. لقد انفصل في النهاية عن المعتزلة وانتقل إلى الشيعة، ووضع عن مذهبهم كتبا وردودا على المعتزلة، وقد أدت كتبه إلى حدوث انشقاق كبير بين المعتزلة، حتى إنهم هاجموه بكلمات لاذعة. ولم يكفهم أنهم سخروا منه بصفته ملحدا ومنافقا، فاتهموه بأنه كتب كتبا لليهود للتهجم على المسلمين، وقالوا عنه إنه مات في بيت يهودي يلقب بأبي عيسى، إن أمكن وجود هذا الاسم على الإطلاق[٩٨]. واختلفت آراء الشيعة في ابن الراوندي أيضا. فكان العلامة الشيعي الكبير المرتضى علم الهدى كثير الثناء عليه، فهو يرى أن ابن الراوندي لا يعرض آراءه الخاصة في كتبه، وإنما أن يظهر أنه من الصعب على المعتزلة أن يتصدوا لمعارضته[٩٩].

---

(٩٦) خنداني النوبختي، ص ٨٧.

(٩٧) ابن خلكان، ج ١، ص ٣٣؛ مروج الذهب، ج ٧، ص ٢٣٧ (الطبعة الأوربية)؛ نخبة المقال، ص ١٥٧، وشرح نهج البلاغة، ج ١، ص ٢٩٩.

(٩٨) الانتصار، ص ٢٥ و٣٠.

(٩٩) راجع ص ١٨٥.

وقد استطاع بكتبه تأليف عمل فني شبيه بكتب المعتزلي الجاحظ (توفي سنة (٢٥٥/ ٨٦٩)، الذى تجرأ فيها على كتابة رسالة هجائية ضد المعتقدات الإسلامية المختلفة حتى يظهر بذلك علمه ونصاحة أسلوبه، ولكن تنوع معارف ابن الراوندي وتبحره في العلم قد عادت عليه بالضرر الكبير، لأن أتباع ماني وأعداءه قد وضعوا كتبا إلحادية باسمه حتى إنه انتهى في الأخير بوصفه زنديقا[١٠٠]، على أن أبا سهل النوبختي ينفي ذلك عن كتبه تماما. ومن عناوين كتبه يمكننا أن نعرف رأيه[١٠١] في ابن الراوندي، في مسألة الاجتهاد مثلا.

وأخيرا قطع أعداء ابن الراوندي شوطا بعيدا، حتى إنهم ادعوا أن أباه، وهو يهودي فيما يزعمون، أفسد الديانة اليهودية في الكتب المقدسة وزورها، كما أراد ابنه أن يفعل في الإسلام في وقت متأخر. والابن ينتمي إلى الزنادقة الثلاثة في الإسلام، الذين تستروا بالدين الإسلامي[١٠٢].

نذكر من عناوين كتبه الضائعة ما يلي:

١) الأسماء والأحكام،

٢) الابتداء والإعادة،

٣) خلق القرآن،

٤) البقاء والفناء،

٥) لا شيء إلا الموجود،

٦) الطبائع،

٧) اللؤلؤة في تناهي البركات.

---

(١٠٠) الشافي، ص ١٣، ومنتهى المقال، ص ٣٥٧.

(١٠١) خنداني النوبختي، ص ٨٩/ ٩٠ و١٢٠.

(١٠٢) خنداني النوبختي، ص ٨٩/ ٩٠.

وقد وضع ابن الراوندي الكتب التالية حسب التعاليم الشيعية:

٨) كتاب الإمامة. ـ كان قد ألف هذا الكتاب للشيعة بعد انفصاله عن فرقة المعتزلة بفترة قصيرة، واستلم على ذلك فيما يقوله المعتزلة ٣٠ دينارا هي «مكافأة الخونة»[١٠٣].

٩) كتاب العروس: ـ وضع هذا الكتاب أيضا حسب تعالم الشيعة، وعالج فيه موضوع الإمامة أيضا، ويعتبره الشيعة من بين كتبه «الجيدة»[١٠٤].

١٠) كتاب فضيحة المعتزلة: هذا الكتاب في الرد على المعتزلة، وكان قد كتبه بعد انفصاله عنهم وانتقاله إلى الشيعة. يدافع فيه عن الأئمة وتعاليمهم بأسلوب فصيح رائق. والكتاب لم يعد اليوم موجودا، إلا أن الخياط المعتزلي يقتبس، لحسن الحظ، في كتابه الانتصار حرفيا من كتاب ابن الراوندي.

وتحتوي الكتب التالية على مضامين إلحادية، رفضها السنة والشيعة على السواء؛ ويرى المرتضى أن هذه الكتب قد تكون من وضع أعداء ابن الراوندي أو أنها لا تحتوي في كل مكان على قناعة مؤلفها[١٠٥]:

١١) كتاب التاج في صدام العالم والأجسام: أراد المؤلف هنا أن يؤكد فلسفيا خلود العالم والمادة[١٠٦].

١٢) الدامغ في الرد على القرآن: ورد في الأثر أنه كتبه لليهود ضد القرآن، ولذلك هاجم بعض العلماء المؤلف، وورد في الأثر كذلك أنه لعن كتابه فيما بعد[١٠٧].

---

(١٠٣) المجموع والأوضاع يمكن مقارنتها بقصة يهوذا في العهد الجديد.
(١٠٤) روضة الجنات، ج١، ص ٥٤، ونخبة المقال، ص ١٥٧.
(١٠٥) الشافي، ص ١٣.
(١٠٦) الانتصار، ص ١٧٢/١٧٣ وشرح نهج البلاغة، ج١، ص ٢٩٩.
(١٠٧) خنداني النوبختي، ص ٩٣.

١٣) كتاب التوحيد: يقال إنه كتبه خوفا من المسلمين، وفيه يعترف بالدين الإسلامي.

١٤) كتاب الفرند على الطعن على ما بالإسلام.

١٥) كتب الزمرد في إبطال الرسالات ورد معجزات الأنبياء: ضد الوحي وضد الأنبياء[١٠٩]. ينكر المؤلف معجزة أسلوب القرآن، ويعترف أن الشعراء العرب القدماء قد كتبوا بصورة أحسن أو هي لا تقل جودة عنه[١١٠]، ويذكر المعتزلة هذا الكتاب ليبرهنوا على أنهم كانوا قد طردوه هم أنفسهم[١١١].

١٦) كتاب القضيب في إثبات حدوث علم الله؛

١٧) كتاب المرجان: عن تاريخ الفرق الإسلامية.

١٨) كتاب في إثبات اجتهاد الرأي: الكتاب يتطلب أن يكون للعالم ـ على العكس من معظم شيعة عصره ـ رأيه الخاص في الفقه، وقد رد عليه فيما بعد أبو سهل النوبختي.

عن ابن الراوندي ينظر المصادر التالية: يذكر هـ ريتر في مقالات الأشعري، ص ٢١: الانتصار، JRAS 1902, p. 355، والإسلام، عدد ١٨، ص ٣٧، ؛ ١٩، ص ٢٠٠، ٢٨١؛ Comptes -Rendus de l'Académie des Sciences de l'URSS 1926, 71، فرق الشيعة، ص . . .، تاريخ العيني (من مكتبة ولي الدين، رقم ٢٣٨٥، ص ٢٠٧)، مجالس المؤمنين. ـ ويذكر النوبختى، ص ٩٤، المصادر التالية: الاختصار في أماكن متفرقة، الفهرست (الطبعة المصرية)، ص ٤-٥، مروج الذهب، ج ٧، ص ٢٣٧، ابن خلكان، ج ١، ص ٢٨ (الطبعة المصرية)، البداية والنهاية (مخطوط)، المنتظم لابن الجوزي (مخطوط

---

(١٠٩) ابن الجوزي، المنتظم، ص ١٨٢، وأبو الفداء، ص ٢٩٤، ٢٩٨ (مخطوط برلين).

(١١٠) أبو الفداء، ص ٢٩٤، ٢٩٨ (مخطوط برلين).

(١١١) خنداني النوبختي، ص ٩٣، والانتصار، ص ١٧٣.

برلين)، لا يذكر خنداني النوبختي الصفحات، ص ١٨٢، تلبيس إبليس، ص ٧٢، و١١٨، تبصرة العوام، ص ٣٩٨ و٤٤٠، الشافي، ص ١٣، روضات الجنات، ص ٥٤، رسالة ابن القارح (مجمع رسائل البلغاء (الطبعة المصرية)، كنز الفوائد، ص ٥١، وفي أماكن مختلفة من كتاب ابن أبي الحديد شرح نهج البلاغة، الفرق بين الفرق للشهرستاني، وابن حزم.

أبو سهل النوبختي[١١٢]

(٢٣٧ ـ ٣١١ هـ)

أبو سهل إسماعيل بن علي النوبختي سليل أسرة النوبخت العريقة، التي تردد اسمها كثيرا، والتي قدمت للدولة وللعلم رجالا عظماء، وهو شاعر وكاتب وعالم ورجل دولة. كان متكلما وكانت له مدرسة خاصة، يؤمها طلاب العلم من الناس ويستمعون إلى دروسه[١١٣]. ولم يكن أقل مهارة في أداء الوظائف الحكومية، فقد كان من العادة، عندما يسقط وزير من الوزراء، أن يرسل إلى المكان المحدد ليحصي إلى أي مدى وصل الضرر، الذى ألحقه الوزير بخزانة الدولة. فقربه الوزير ابن الفرات منه، وحين اختلس الوزير المعزول حامد ابن العباس أموال الدولة وصودرت أمواله، كان على النوبختي في ذلك الحين أن يذهب إلى واسط، حيث يقيم حامد ابن العباس[١١٤].

بدأ أبو سهل، مثل بقية أفراد الأسرة، مساره العلمي بدراسة علم الفلك، وحقق فيه أيضا إنجازات كبيرة[١١٥]. وتولى وظائف حكومية مثل

(١١٢) خنداني النوبختي، ص ٩٦.
(١١٣) ابن النديم الفهرست، ص ١٧٦،
(١١٤) تاريخ الوزراء، ص ٣٤ ـ ٣٥، و خنداني النوبختي، ص ١٠٠.
(١١٥) ديوان بن الرومي، ج ١، ص ١٢٢/ ١٢٣ (الطبعة المصرية)، و خنداني النوبختي، س ١٠٤.

معظم زملائه في التخصص، وها نحن نسمع أنه كان يعمل في مجال المالية بمنطقة الأهواز. ولقد وقف، رغم مركزه الحكومي، إلى جانب الشيعة وتصدى لأعدائهم، فكانت له مناظرات مع أبي علي الجُبّائي (٢٣٥ ـ ٣٠٣)، الذى لم يكن شيعيا، وقد ذكرنا سابقا سلوكه مع الحلاج[١١٦].

وبعد أن انتقل إلى بغداد أصبح رئيسا لعشيرته والممثل الرئيس للشيعة. وسرعان ما علت مكانته، حتى إن الناس أصبحوا ينظرون إليه نظرتهم إلى وزير، مع أنه لم يتول الوزارة أبدا[١١٧]. وأصبح منزله مركزا للحياة الفكرية، فكان شعراء من طبقة البحتري (٢٠٦ ـ٢٨٣) والشاعر الشيعي ابن الرومي (٢٢١ ـ ٢٨٣) يترددون إلى بيته ويتحدثون معه في القضايا الأدبية، وكان المتكلمون والفلاسفة يتواعدون على اللقاء في منزله.

جعل أبو سهل من نفسه محاميا للشيعة، وطلب من أعدائهم مناظرته، وأخذ على عاتقه هذه المهمة الصعبة من تلقاء نفسه وكان فخورا بذلك. أما السؤال الصعب المتعلق بالإمام المختفي، الذى شغف غير الشيعة بالحديث عنه، فقد أجاب عنه كما يلي: لقد مات الإمام الحادي عشر، ولكنه ترك ولدا هو خليفته، وبعده تواصل نسل الأئمة دون انقطاع إلى أن يرسل الله ذات يومٍ النسلَ المختفي الأخيرَ إلى الأرض[١١٨].

على أننا نسمع من جهة أخرى أن أبا سهل قد رأى بنفسه الإمام المختفي ووقف عند فراش مرض الإمام الحادي عشر، فأراه المريض ابنه وتنبأ له بأنه سيكون الإمام الحق وأنه سيختفي من العالم[١١٩]، فتعجب الناس من أبي سهل، لأنه لم يكن سفيرا، إذ كان أحد أقربائه يتقلد أعلى

(١١٦) خنداني النوبختي، ٩٧ و١٠٤.
(١١٧) منهج المقال، ص ٥٨.
(١١٨) الفهرست، ص ١٧٦.
(١١٩) الغيبة، ص ١٧٥.

منصب عند الشيعة. وقال عن علاقته بأبي القاسم الحسين بن روح بأنه هو نفسه ليس سوى مناضل من أجل قضية الشيعة؛ ولكنه لو كان سفيرا وكان يعرف أين يختفي الإمام، فلربما كان يبوح بالسر، في حين أن ابن روح ما كان ليفعل ذلك حتى لو هم عذبوه بالمقاص في ذلك الحين[(١٢٠)].

كان أبو سهل قد بدأ أيضا بتنظيم علم التوحيد الشيعي والحد من تعسف علماء الشيعة. وقد كان هو نفسه متكلما وفيلسوفا. وكان بصفته هذه قريبا من المعتزلة، فقد أخذ العناصر الجديدة لعلم الكلام من العالم الفكري للمعتزلة. ومنذ ذلك الحين دخل علم الكلام مجرى هذا النوع من التفكير[(١٢١)].

لقد ألف ما طلبه منه الشيعة عن الإمامة، خصوصا ما يتصل من ذلك بالأدلة العقلية، التي تناولها ابن الوراق والراوندي، وكان أول من أضاف مشكلة الإمامة إلى النبوة في الميدان الكلامي من خلال عرضه للنظام العقائدي[(١٢٢)].

وعمل أبو سهل في ميادين كثيرة من علم الكلام ونظمه بإزالة النظريات القديمة منه. وفي وسعنا أن نعرف من عناوين كتبه، التي وصلتنا، على وجه اليقين ما هي المشاكل، التي عالجها ومن هم الأشخاص، الذى اتجه إلى معارضتهم والرد عليهم. ولتكن العناوين الموالية مؤكدة لما قلناه:

١)كتاب الاستيفاء،

٢) كتاب التنبيه، ولا يعرف منه سوى العنوان الآن، وكان قد استفاد منه ابن بابويه والمفيد والطوسي[(١٢٣)].

---

(١٢٠) الطوسي، الغيبة، ص ٢٥٥.

(١٢١) منهاج السنة، ج١، ص ١٦.

(١٢٢) خنداني النوبختي، ص ١-٣، ونخبة المقال، ص ١٣٢.

(١٢٣) خنداني النوبختي، ص ٢٨، ١١١ و١١٦.

٣) كتاب الجمل

٤) كتاب الأنوار في تاريخ الأئمة؛

وهذه الكتب كلها تعالج ميدان الإمامة، وقد قرأها علماء الشيعة واستفادوا منه في مؤلفاتهم[(١٢٤)]. وكتب الردود هي:

٥) كتاب الرد على الواقفة: لقد توقف الواقفة عند الإمام السابع موسى بن جعفر (١٢٨ ـ ١٨٣ هـ) ـ لذلك سموا بالواقفة ـ وقالوا إنه لم يمت. ويقال أن أصل هذا الانشقاق ينسب إلى الوكيل حيان السراج في الكوفة: جمع الأشعثيون، فيما يقال، ٣٠.٠٠٠ دينار وقدموها للوكيل. فاستولى حيان السراج على المال واشترى دورا وعبيدا. وليتهرب من المسؤولية عند موت الإمام السابع، ادعى أن الإمام لم يمت. ويسمى أتباع حيان أحيانا «الممطورة»، واسم الواقفة بالمناسبة يطلق أحيان أيضا على شيعة آخرين، توقفوا عند إمام آخر[(١٢٥)].

٦) الرد على الطاطري: والطاطري هو أبو الحسن على بن الحسن الطائي[(١٢٦)]، عرف بالطاطري لأنه كان يتاجر في أقمشة، يطلق عليها اسم الثياب الطاطرية، تستعمل في صناعة القمصان. كان رئيس الواقفة المذكورين معترفا به في علم القوانين الشرعية. كان معاصرا لموسى بن جعفر وصديقا له. وكان الطاطري يدافع عن دينه ويتعصب له.

وانظر عن الطاطري منهج المقال، ص ٢٢٩-٢٣٠، الفهرست، ص ١٧٧، فهرست الطوسي، ص ٢١٦-٢١٧ ، نجاشي، ص ١٧٩.

٧) كتاب الصفات في الرد على أبي العتاهية في التوحيد في شعره: كان أبو العتاهية إسماعيل بن القاسم أبو إسحاق، الشاعر المعروف (١٣٠-٢١١ أو ٢١٣ هـ) ينتمي إلى أولئك الذين يغيرون في حياتهم

---

(١٢٤) خنداني النوبختي، ص ١١٦.

(١٢٥) تعليقات على منهج المقال، ص ٩.

(١٢٦) يذكر في خنداني النوبختي باسم جده أكثر مما يذكر باسم أبيه، أنظر ص ١١٧.

مواقفهم الدينية بشكل مطرد . وأخيرا وجد أساسه الصحيح في التصوف الإسلامي[١٢٧] . وكان هذا الشاعر قريبا في بعض آرائه من الشيعة، بينما كان يشيد بوجهات نظر أخرى متناقضة، فكان مثلا يشاطر الجبرية رأيهم في مسألة الجبر، واستغل أعداؤه ميله إلى الشيعة لإلصاق آرائه بالتشيع. فأجاب الشيعة على هذه الاتهامات بأنه لا يصح أن يصدر المرء أحكامه على أساس شاعر من هذا النوع، ثم إنه يوجد في كل دين أتباع أخيار وأشرار على حد سواء[١٢٨] . ولعل أبا سهل قد وضع كتابه ضد أبي العتاهية ليحذر الشيعة من هذا النوع من «أصدقاء» الشيعة.

عن أبي العتاهية ينظر المصادر التالية: ابن خلكان، ج١، ص ٨٩، الأعلام، ج١، ص ١١٠، الأغاني، ج٣، ص١٢٦، ج ج٦، ص ١٨٦، ج ٨، ص ٢٤، طبقات الشعراء، ص ٤٩٧، الفهرست، ١٦٠، تاريخ آداب اللغة العربية، ج٢، ٦٧، وديوانه المطبوع في بيروت سنة ١٨٨٧.

٨) كتاب الرد على محمد بن الأزهر في الإمامة: لا نعرف من المقصود بمحمد بن الأزهر. يظن مؤلف خنداني النوبختي أن المقصود هو أبو جعفر محمد بن الأزهر الكاتب (٢٠٠-٢٧٩ هـ)[١٢٩] .

٩) كتاب نقد مسألة عيسى بن إبان في الاجتهاد، يعالج اجتهاد الرأي في الفقه، وهو ضد عيسى بن إبان (توفي سنة ٢٢١ هـ)، الذى يعد من أتباع أبي حنيفة وكان قاضيا. وكان قد وضع كتابين: إثابة القياس، واجتهاد الرأي. ورد فيه أبو سهل على الكتابين معا، ويرد على القياس في:

---

(١٢٧) تاريخ آداب اللغة العربية، ج٢، ص ٦٧.

(١٢٨) خنداني النوبختي، ص ١٢١، وتبصرة العوام، ص ٤٢٢: في خنداني النوبختي ذكرت صفحة ٤٢٢: صفحة ٤٢١.

(١٢٩) خنداني النوبختي، ص ١١٧؛ هناك في كتاب ميزان الاعتدال رجلان بهذا الاسم، وكلاهما محدثان، ولكن حديثهما لا يلقى كثيرا من التقدير (ينظر ميزان الاعتدال، ج٣، ص ٢١.)

١٠) كتاب في إبطال القياس.

١١) كتاب نقد اجتهاد الرأي على ابن الراوندي:

قد يزعم البعض على العموم أن الشيعة لم يكونوا حتى الغيبة الصغرى يرضون عن اجتهاد الرأي، على انه يجب علينا أن نتذكر أن الأئمة كانوا هم الذين يحكمون في ذلك الحين، وكان عليه أن يسألهم. ولكن ابن الراوندي كان يرى أن على المرء أن تكون له آراؤه الخاصة فيما يتصل بالفقه أيضا، وكان هو الأول الذى سمعنا منه مثل هذه الآراء. وتابعه في ذلك الحسن بن عقيل العماني، كما سأتحدث عنه بتفصيل عندما أتناول الشرع القانون فيما بعد. ويبدو أبو سهل هنا ضد اجتهاد الرأي، ولذلك لم يرض عن الكتابين المذكورين آنفا.

١٢) كتاب في استحالة رجعة القادم: يعالج الكتاب الرأي الشيعي القائل بأن الله لا يرى أبدا لا في هذه الدنيا ولا في يوم الحساب؛ وهو نفس ما يعتقده المعتزلة. وهذا الرأي يتوجه ضد أولئك المؤمنين، الذى يعتقدون أنه سيرون الله في يوم الحساب[١٣٠].

١٣) كتاب مجالس أبي سهل مع ثابت بن أبي قرة أو كتاب مجالس ثابت بن أبي قرة. كان ثابت بن أبي قُرة فيلسوفا، وأصله من مدينة حران، عاش من ٢٢١ إلى ٢٨٨ هـ. وكان له اعتباره بوصفه فيلسوفا ومنطقيا ورياضيا وطبيبا. ومن خلال ما حققه في علم الفلك انتبه إليه الخليفة المعتضد (من ٢٧٩ ـ ٢٨٩)، فولاه منصبا كبيرا في قصره، وكان يدخل عليه ويخرج بحرية تامة. واستعمل مركزه لمساعدة إخوانه في الدين، الصابئة، وكانت له حوارات فكرية نشيطة مع أبي سهل، ولذلك فهي موجودة في كل كتاب من كتابي الرجلين[١٣١].

---

(١٣٠) عن رؤية الله ينظر أصول الدين، ج١، ص ٩٧-١٠٢، ابن حزم، ج٢، ص ٢-٤، تبصرة العوام، ص ٤٢٢، مقالات الأشعري، ص ٢١٣-٢١٧، خنداني نوبخت ، ص ١٢٣ و١٣١.

(١٣١) أخبار الحكماء، ص ٨٠، وخانداني النوبختي، ص ١٢٠.

١٤) كتاب الرد على أصحاب الصفات؛

١٥) كتاب الصفات: وهذان الكتابان يعالجان أيضا صفات الله، التي كانت موضوع منازعات كبيرة بين الأشعرية والفرق الأخرى ونالت الاهتمام في كل كتب المتكلمين تقريبا. ينظر تفاصيل ذلك في الشهرستاني، ٦٤/ ٦٥، مقالات الأشعري، ص ٥٨٢.

١٦) كتاب الرد على المُجَبِّرة في المخلوق والاستطاعة: لقد شغل علم الكلام أيضا مشكل هل الإنسان يعمل ويترك بإرادته أو بأمر من الله. وهنا يتجه أبو سهل ضد أتباع تعاليم الجبر(١٣٢).

هناك ٢١ عنوانا لأبي سهل معروفة لدينا، لا تقدم جديدا وتتردد باستمرار في كتب الشيعة، وهي عند خنداني النوبختي على أتم ما تكون ولها شروح كثيرة.

تلاميذ أبي سهل النوبختي

توسع عمل أبي سهل النوبختي عن طريق تلاميذه، فقد بقي صرح علم الكلام بعناصره الأساسية، كما أقامه الأستاذ، ولم يتم تزيينه من قبل تلاميذه إلا هنا وهناك. وأهم ممثلي مدرسته هم:

الناشئ الأصغر
(٢٧١-٣٦٥ هـ)(١٣٣)

كان أبو الحسن عبد الله بن واصف الناشئ الأصغر من أعظم تلاميذ أبي سهل النوبختي. لبس بصفته متكلما وفقيها فقط، وإنما نال شهرة في ميدان الشعر أيضا. ولد في منطقة باب الطاق ببغداد ونشأ بها، وفي سنة ٣٢٥ هـ انتقل إلى الكوفة وأملى أشعاره في المسجد على مجموعة كبيرة

---

(١٣٢) ينظر خنداني النوبختي، ص ١١٩.
(١٣٣) معجم الأدباء، ج٥، ص ٢٣٥، الشيعة والفنون، ص ١٠٨.

من الناس. وكان بين مستمعيه الشاب والشاعر فيما بعد المتنبي (توفي سنة ٣٥٤هـ/ ٩٦٥ م)[١٣٤].

كان الناشئ في خطبه بليغا معجبا، وكذا كان في شعره، ولذلك أثنى عليه الشيعة والسنة على السواء. أما في الفقه، فكان من الذين لا يعترفون بالاجتهاد. بناء على هذا فقد كان يفكر إذن تفكير داود الظاهري، الفقيه السني[١٣٥]. ولعل الناشئ قد استمد هذا الرأي من أستاذه أبي سهل، الذى وضع، كما رأينا، تلك الكتب في رفض الاجتهاد. على أنه لا ينبغي لنا أن ننسى أن الشيعة كانوا في ذلك الحين على العموم ضد الاجتهاد[١٣٦].

ولم يهتم الناشئ كثيرا بالخطر، الذى كان وقتئذ يهدد عقيدته من قبل رجال السلطة السياسية، وإنما كان يتغنى بعقيدته دونما خوف. وكان ذكيا، حتى إنه كان ينجح دائما في تجنب الشباك، التي كان أعداؤه ينصبونها له. لقد قدم مرة إلى الخليفة الراضي، فعرف الناشئ كيف يكسب إلى جانبه قلب الخليفة ويحول الحديث عن الأشياء الدينية[١٣٧]. وأدخل الناشئ النكتة والحنكة في نزاعه مع الأشعري عن أفعال الإنسان، عندما زعم الأشعري أن الله يتسبب في الأفعال كلها. وحين تعذر الوصول في الجدل إلى نتيجة، لجأ الناشئ إلى برهان، كان في «متناول اليد»: لقد صفع خصمه وخيره بين أن يقبل الصفعة ويظل على رأيه في أن الله هو الذى حمل الناشئ على صفعه، أو يرد له الصفعة حتى لا يخرج عن قناعته[١٣٨]، وهكذا كسب الناشئ الضاحكين إلى جانبه.

---

(١٣٤) ابن خلكان، ج١، ص ٤٤٧.
(١٣٥) منتهى المقال، ص ٢٧٧.
(١٣٦) الانتصار، ص...
(١٣٧) معجم الأدباء، ج٥، ص ٢٣٥.
(١٣٨) نفسه.

عن ترجمة الناشئ ينظر فهرست الطوسي، ص ٢٣٣، النجاشي، ص ١٩٣، تذكرة المتبحرين، ص ٤٩١ (في ملحق منهج المقال، وخانداني النوبختي، ص ١٠٥.)

أبو الجيش البلخي

(توفي ٣٦٤ أو ٣٦٧ هـ)[١٣٩]

تلميذ آخر من تلاميذ أبي سهل هو مساعده أبو الجيش مظفر بن محمد البلخي الخراساني، وكان متخصصا في علم الكلام والحديث. وكتب مثل أستاذه كتبا ضد من ليسوا شيعة ليدافع عن طائفته. فكتب ضد كتاب الجاحظ عن المسألة العثمانية، الذى يدافع فيه عن المروانية أو العثمانية، ردا تحت عنوان نقد العثمانية. وكتبه الأخرى تعالج موضوع الإمامة وتبرير الشيعة مثل:

١) مجالسة مع المخالفين في معان مختلفة،

٢) كتاب فدك: وفيه يعالج النزاع حول فدك، الأرض، التي كانت للنبي وطالبت بها فاطمة. لكن أبا بكر منعها من أخذ ميراثها، فصار هذا الحدث مع مسائل أخرى محل جدال جدير بين السنة والشيعة.

٣) كتاب الرد على من جوَّز على القديم البطلانَ؛

٤) كتاب النكت والأعراض في الإمامة.

وكان من بين من درسوا على البلخي المفيد، الذى استطاع فيما بعد أن جمع في نفسه كل علوم عصره.

ينظر عن البلخي: منهج المقال، ص ٣٣٥، منتهى المقال، ص ٣٠٢، النجاشي، ص ٢٩٩، فهرست الطوسي، ص ١٧٨، روضات الجنات، ص ٣١، خنداني النوبختي، ص ١٠٦.

---

(١٣٩) منتهى المقال، ص ٣٠٢.

محمد بن بشر السُوسَنجَردي

(توفي سنة ٢٦٦ هـ)[١٤٠]

دافع أيضا بوصفه تلميذ النوبختي عن تعاليم الشيعة، ويروى عنه أنه حج إلى مكة خمسين مرة مشيا على الأقدام، وهو من أولئك الذين يعترفون بالوعيدية[١٤١]، ولم يعرف من كتبه سوى عنوانين، يتناولان موضوع الإمامة:

١) المقنع في الإمامة.

٢) كتاب المنقذ أو الإنقاذ (الإنفاذ) في الإمامة.

المصادر: منهج المقال، ص ٢٨٦، منتهى المقال، ص ٢٦٥، النجاشي، ص ٢٦٦، الفهرست، ص ١٧٧، خنداني النوبختي، ص ١-٦.

كان هناك إضافة إلى أبي سهل، الذى جمع مدرسة حوله، علماء آخرون في ميدان علم الكلام:

أبو جعفر محمد بن قِبَّة الرازي

(توفي في بداية القرن الرابع للهجرة)

مثلما كان الأمر مع أبي عيسى الوراق وابن الراوندي، اللذين كانت لهما مكانة مرموقة عند المعتزلة، ثم أدارا ظهريهما لهم، كذلك كان الأمر مع ابن قبة، الذى بدل معتقده، ودافع عن عقيدته الجديدة شفاها وكتابة بحماسة رجل اهتدى إلى دينه الصحيح، وقد قيل عنه

---

(١٤٠) هكذا ورد في منهج المقال، س ٢٨٦؛ ويبدو لي أن هذا خطأ!

(١٤١) الوعيدية ليسوا طائفة، وإنما هم ممثلوا وجهة نظر فقهية: عندما يكون هناك وعد أو وعيد من الله ضد آثم كبير، فإن الله ينفذ ما قاله دائما بدون نقصان أو بدون رحمة. وسيخلد الآثمون في النار أبدا. ينظر خنداني النوبختي، ص ٣٦، ١٣١، و١٧٥، وكان الطوسي قد أثنى الطوسي (توفي سنة ٤٦٠ هـ) في مرحلته الأولى على هذه الصرامة؛ ينظر روضات الجنات، ج٣، ص ٥٨٠.

أيضا أنه حج خمسين حجة مشيا على الأقدام.

تتمثل العناوين الرئيسة، التي وصلتنا من كتبه في:

١) كتاب الرد على الزيدية: الزيدية يعترفون بزيد بن علي بن الحسين بوصفه إماما بدل أخيه محمد الباقر. فالزيدية يرون أنه من الممكن أن يكون الأئمة من عقب الأخوين الحسن والحسين وليس فقط من عقب الحسين، وذلك من الأب مباشرة الابن الأكبر إلى الإمام الثاني عشر. ولا يجوز عند الإثنى عشرية أن يكون الأخوان إمامين أحدهما بعد الآخر[١٤٢]. ولم يتهم الزيدية الخلفاء الثلاثة الأوائل قبل علي مثلما فعل الشيعة، فقد زعموا أن خلافة هؤلاء الخلفاء الثلاثة صحيحة، ولو أن عليا كان أفضل منهم[١٤٣].

٢) كتاب الرد على أبي علي الجُبَّائي،

٣) المسألة المفردة في الإمامة،

٤) كتاب الإنصاف: يتناول هذا الكتاب الأخير موضوع الإمامة، وقد ألفه في مدينة الري، التي كان يقيم فيها، فأخذ أحد معارفه الكتاب وحمله إلى أبى القاسم الكعبي البلخي، الذى كان شيعيا. فوضع هذا كتابا تحت عنوان «المسترشد» يرد فيه عليه. فأخذنا الصديق نفسه الكتاب، فيما قرأناه عن ذلك، ومضى به إلى ابن قبة، فألف ابن قبة أيضا كتابا في الدفاع عن نفسه والرد عليه، وهو كتاب المستثبَت، ومات بعد ذلك بقليل.

المصادر: منهج المقال، ص ٣٠٢، النجاشي، ص ٢٦٦، خنداني النوبختي، ص ٩٤/ ٩٥.

---

(١٤٢) ما عدا الحسن والحسين!

(١٤٣) عن الزيدية ينظر دائرة المعارف الإسلامية، مقالة الزيدية بقلم ر. شتروتمان، يضاف إلى ذلك ر. شتروتمان القانون العام عند الزيدية R. Strothmann, Staatsrecht der Zaiditen ويتصل هذا بالتربية عند الزيدية.

الحسن بن موسى النوبختي
(توفي سنة ٣٠٠ أو ٣١٠ هـ)[١٤٤]

يعرف الحسن على وجه خاص بأنه فيلسوف، وعمل في ميدان علم الكلام. وكان منزله ملتقى الكثير من المهتمين والمترجمين، الذين كان لهم جدال كثير مع الحسن، وكانوا قد نقلوا كتبا فلسفية من لغات أجنبية إلى العربية: كان أبو عثمان سعيد بن يعقوب الدمشقي[١٤٥]، وأبو يعقوب إسحاق بن حنين (توفي سنة ٢٩٣ هـ)[١٤٦]، وأبو الحسن بن ثابت بن أبي قُرة (٢٢١ - ٢٨٨ هـ) يترددون على بيته[١٤٧].

نقل الحسن بن موسى بخط يده كتبا فلسفية من كتب أجنبية ووسع بذلك معلوماته الخاصة. وكان يميل مثل عمه (خاله) أبي سهل إلى قضية المعتزلة، ولذلك وقع نزاع بين المعتزلة والشيعة عن انتماء هذا العالم المبجل، على أننا لا نشك في أنه كان شيعيا[١٤٨]. وصلنا ما يزيد عن الأربعين من عناوين كتبه، جمعت في كتب التراجم، خصوصا في كتاب خنداني النوبختي. ومعظم كتبه يتناول، كما نرى من العناوين، الميتافيزيقا والفيزياء. أما عن علم الكلام، فهناك ثلاثة كتب معروفة على وجه الخصوص. وقد نشر ريتر «كتاب فرق الشيعة»، والآخران «الرد على الغلاة» و«كتاب الآراء والديانات» نعرفهما مما نقله عنهما كتاب آخرون. ذكر الخطيب البغدادي أنه قرأ كتاب «الرد على الغلاة»، ونقل عنه بعض

---

(١٤٤) خنداني النوبختي، ص ١٢٥.

(١٤٥) نفسه، ص ١٢٧، ١٢٩؛ الفهرست، ص ١٧٧، ونضد الإيضاح (طبع على الصفحة نفسها مع فهرست الطوسي).

(١٤٦) كان طبيبا مسيحيا ومترجما من اليونانية والسريالية إلى العربية. توفي سنة ٢٩٨ هـ. ينظر عنه أخبار الحكماء، ص ٥٧ (الطبعة المصرية)

(١٤٧) الفهرست، ص ١٧٧.

(١٤٨) الفهرست، ص ١٧٧.

الجمل. واستعمل ابن الجوزي وابن أبي الحديد الكتاب الآخر «كتاب الآراء والديانات»[149].

ويشك خنداني النوبختي في صحة نسبة كتاب «فرق الشيعة» المنسوب إلى الحسن، ويذكر عددا من الأسباب التي جعلته يرى هذا الرأي[150].

أبو إسحاق إبراهيم

(توفي في النصف الأول من القرن الرابع للهجرة)

أبو اسحاق سليل أسرة النوبختي أيضا، ورغم أن له إسهامات مهمة في علم الكلام، فإن المصادر الشيعية والسنية على السواء لا تذكر الشيء الكثير عنه. والمعروف من كتبه كتابان «كتاب الياقوت» و«كتاب الابتهاج». ولا يزال الكتاب الأول موجودا إلى اليوم، ووضع العلامة الحلي شرحا له: «أنوار الملكوت في شرح الياقوت»[151].

الإسكافي محمد بن أبي بكر بن هُمام بن سهل

(٢٥٨-٣٣٦ هـ)

كان الإسكافي متكلما ومحدثا متعدد الجوانب، وكان أبوه من أتباع المذهب المانوي، لكن الابن تشيع وبلغ مركزا علميا مرموقا[152].

---

(١٤٩) خنداني النوبختي، ص ١٣٥-١٤٠

(١٥٠) خنداني النوبختي، ص ١٤٠ وما بعدها.

(١٥١) خنداني النوبختي، ص ١٦٦ وما بعدها، وضحى الإسلام، ج٣، ص ٢٦٧. عن أبي إسحاق ينظر أيضا: الشيعة وفنون الإسلام، ص ٤٨، ابن أبي الحديد، ج٤، ص ٥٧٥، روضات الجنات، ص ٤٢٣.

(١٥٢) الشيعة وفنون الإسلام، ص ٩٣، منتهى المقال، ص ٢٩٦، منهج المقال، ص ٢٧٤.

ساد ميدان الحديث ، كما سبق أن ذكرنا، اضطراب كبير إلى حد ما بعد موت الأئمة. كان هناك حديث في مقابل حديث، وكانت التزييفات رائجة. كان لابد من جمع المعلومات عن المحدثين، وعن عصرهم، وعن علاقتهم بالأئمة، وعن الثقة بهم وغير ذلك. فوضع أبو جعفر أحمد بن محمد بن خالد البَرْقي[١٥٣] كتبا عن حملة الحديث، وكان هو نفسه محدثا، نقل الحديث دون تمحيص. وكتب رجال آخرون مثل هذا الكتب أيضا، ولكن بما أن هذه الكتب لم تصلنا، فإننا لا نستطيع أن نقول شيئا عن مناهجهم فيها.

وأقدم كتاب وصلنا عن المحدثين يعود إلى أيام الغيبة الصغرى، وقد وضعه أبو عمر عبد العزيز، الذى عاش في القرن الخامس. يحاول في كتابه أن يفرق بين المحدثين «الأقوياء» والمحدثين «الضعفاء»، ولكنه لم يبلغ، كما نرى من كتابه ، هدفه، ولم يستطع التوفيق بين الأحاديث المتناقضة بعضها مع بعض. ويعده واصل الغضائري عمله، ولكنه لم يتناول سوى المحدثين «الضعفاء». واهتم النجاشي والطوسي كذلك بهذه المهمة العلمية. وأخيرا جاء العلامة الحِلي ونظم الأعمال، التي قام بها سابقوه، وكان النجاشي مصدره الأساسي[١٥٤].

كانت مسألة الأخبار الآحاد، أي الشكل الذى صيغت فيه جميع الأحاديث في ذلك الحين، تتطلب الحل، لأن الحديث الذى يرويه شخص واحد أو شخصان يتضمن درجة عالية من قلة اليقين. وكان ابن قبة، الذى سبق أن تحدثنا عنه، يعمل في هذا المجال[١٥٥]. وقد أوضح

(١٥٣) توفي سنة ٢٧٤. ينظر عنه الشيعة وفنون الإسلام، ص ٦٩، منتهى المقال، ص ٤٢، منهج المقال، ص ٤٣.

(١٥٤) مختصر التحفة، ص ٣٧،

(١٥٥) روضات الجنات، ج٣، ص ٥٩٨.

الحسن بن موسى النوبختي المسألة نفسها في كتابه[١٥٦]. لكن المشكلة ظلت في أيام الغيبة الصغرى بدون حل، إلى أن توصل الشريف المرتضى إلى اتخاذ قرار حاسم، تمثل في إلغاء الأخبار الآحاد تماما[١٥٧]. ولكن قدوة المرتضى من حيث السطوة قد تفوق عليها محمد بن أحمد بن إدريس الحلي (توفي سنة ٥٧٨ أو ٥٩٨ هـ)، الذى تخوف أن يكون الإسلام كله قد شوه عن طريق أخبار آحاد، ولذلك وصل إلى نتيجة، هي أن كل أحاديث الأئمة إنما هي «أخبار آحاد»، ومن ثم يجب إلغاؤها[١٥٨].

وفي الوقت، الذى كان فيه الشيعة ينتقدون الأخبار الآحاد ويضعون الكتب عن المحدثين، بدأ جامع الأحاديث المعروف محمد بن يعقوب الكُليني[١٥٩]، المدعو ثقة الإسلام الرازي، عمله.

---

(١٥٦) خنداني النوبختي، ١٣٣.

(١٥٧) روضات الجنات، ج ٣، ص ٣٨٥ و٥٩٨.

(١٥٨) نفسه

(١٥٩) نفسه. ذكر بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج١، ١٨٧، ٣، الكليني (لكن ر. شتروتمان، في مصادر الشيعة، السجل رقم ٤٠٥ عند أ. هراسوفيتس O. Harassowitz, p. 13, Nr. 14-16 al-Kulaini، الكلينى، وقد صلحت عند شتروتمان، الشيعة الاثنا عشرية، وكذلك الأمر في دائرة المعارف الإسلامية، مقالة الشيعة، دون الإشارة إلى ذلك. ولكن بروكلمان، تكملة، ١/ ٣٢٠/ ٧ أعاد نفس الرسم للكلمة مخالفا لشتروتمان، وذلك اعتمادا على أنساب ، ف ٤٨٦ للسمعاني؛ على أن المقصود هناك عالم آخر، بغض النظر عن أن التعريف في الصيغة الحاضرة غير مفهوم . المكان يقع بالري، في حين أن هامشا في الصفحة ينقله إلى العراق. وياقوت، ٤، ص ٣٠٣،٨ لا يضع علامات الشكل فوق الحروف؛ الطبعة تضع الضمة (منهج المقال، ص ٣١، و٣٢٩ والكنتوري، ص ٤١٩، يقرآن الكليني (بفتح اللام). وفي قصص العلماء، ص ٣٠٦، مؤلف القاموس كتب الكليني (بكسر اللام)، ونجد رسم الكلمة نفسه في مجالس المؤمنين (ينظر مقالة الكليني). ولكن قصص العلماء يضيف إلى ذلك أن الكتابة، التي جاءت في القاموس خاطئة. وقد يكون الحاسم في الأمر أن الاسم ينطق الكليني

ومسقط رأسه هو كولَين قرب الري، وذهب فيما بعد إلى بغداد، حيث جمع المصادر لمجموعته الكبرى «الكافي في علم الدين». وقد احتاج حتى إتمام كتابه مع نهاية الغيبة الصغرى ٢٠ سنة، وتوفي سنة ٣٢٩ أو ٣٢٨ هـ ودفن في حي باب الكوفة ببغداد[١٦٠]. وفي وقت متأخر ظهرت قصة عجيبة عن الكليني: أراد حاكم بغداد المبغض للشيعة حفر قبر الإمام موسى بن جعفر للقضاء على حماس الشيعة، الذين كانوا يأتون من بعيد لزيارة ذلك القبر، وعلى اعتقادهم بعدم تعفن الأئمة. وعندما أراد الحاكم الأمر بفتح القبر، قال له الشيعة إنهم آمنوا أيضا بعدم تعفن موتاهم، وقدموا له قبر الكليني لاختبار ذلك. ولما استخرجوا الجثة، ظهر أن الجثة لم تفسد وكأنها جسم إنسان نائم. فتشيع الحاكم وأمر بإقامة تمثال على قبر الميت.

روى أحمد بن عبدون أنه كثيرا ما زار قبر الكليني في صراط الطائي، لكنه اختفى في عصره، ومنذ ذلك الوقت لم يعد يجد له أثرا.

ويظهر الناس اليوم قبرا قرب تكية المولوية في القسم الشرقي من بغداد، يزعمون أنه للكليني، يزوره السنة والشيعة على السواء وهذا الرأي خاطئ طبعا، فهو لا يتفق في أي شيء مع شهادات كتاب التراجم. ومن

(بفتح اللام) بين الإخوة في الدين منذ القديم. ويذكر بروكلمان، المصدر السابق، بوصفه مجددا لفقه الإمامية، غير أنه مجدد للحديث، ولعل الغلط قد نشأ إلى حد ما أن بروكلمان لا يعد في الحديث إلا أهل السنة. ولا أنه لا يصح أن يستمر وقوع الدراسات الشرقية في هذا الخطأ. يجب أولا التفريق بين الحديث والفقه، وثانيا يجب علينا ألا نخلع صفة الحقيقة إلا ما تقدمه لنا المصادر عن عقيدة الشخصيات، التي نحن بصددها، وليس آراءنا الشخصية. ففي رأي الشيعة أن أحاديث الأئمة تنتمي أيضا إلى الحديث مثل حديث الرسول!

(١٦٠) منهج المقال، ص ٣٢٩، روضات الجنات، ج٣، ص ٥٥٠ وقصص العلماء، ص ٣٠٦. وقد ذكر أحمد أمين في كتابه ضحى الإسلام، ج٣ ،ص ٢٦٧ أن الكليني قد توفي في بغداد ونقل فيما بعد إلى الكوفة. وهذا من الأخطاء الجغرافية والتاريخية، التي يرتكبها أحمد أمين.

كتب الكليني الشهيرة، التي حفظت اسمه حيا إلى يومنا هذا، والتي يجب إبرازها بشكل خاص، كتاب الحديث «كتاب الكافي في علم الدين». ولعله أشهر كتب الحديث الشيعية الأربعة الكبرى. فهو يحتوي على ١٦١٩٩ حديثا، ومقسم إلى جزأين «أصول الكافي» و«فروع الكافي». وقد قسم هذان الجزآن بدورهما إلى فصول، وتظهر الأحاديث عادة في بداية الفصل أفضل منها في نهايته(١٦١).

وبين الأخباريين المتبعين للحديث ضرورة، الذين سنتحدث عنهم فيما بعد، وبين الأصوليين، ممثلي الاجتهاد، يوجد اختلاف في تقويم مضمون الكافي. فالأخباريون يعترفون بالمضمون من غير قيد ولا شرط، أما الأصوليون فقد ظهر لهم أن يخضعوا ثلثين للفحص(١٦٢).

كان الكليني يرى أن مهمته تنحصر في جمع الأحاديث المتفرقة، وكان هدف علماء علم الحديث أن يحكموا على شخصيات المحدثين ومنزلة أحاديثهم. وهكذا قسم السيد جمال الدين أحمد بن طاووس (توفي سنة ٦٧٣ هـ / ٦٧٢ م) أحاديث الشيعة كلها، سواء من الكافي أو من المجموعات الثلاث الأخرى، إلى أربع طبقات: صحيح، موثق، قوي، ضعيف(١٦٣).

وبعد ابن طاووس أخذ العلامة الحلي هذا التقسيم الرباعي، ومنذ ذلك الحين أصبحت تلك التعابير مصطلحات خاصة في علم الحديث. وبناء على هذا الترتيب تم إحصاء كل ١٦١٩٩ حديثا في ٥٠٧٢ من المجموعة الأولى، ١١١٨ من المجموعة الثانية، ٣٠٢ من المجموعة الثالثة، و٩٤٨٥ من المجموعة الأخيرة(١٦٤).

---

(١٦١) روضات الجنات، ج٣، ص ٥٥٠.
(١٦٢) نفسه، ص ٣٧ وهبة الدين، رسالة خاصة.
(١٦٣) الشيعة والفنون، ص ٣٧.
(١٦٤) روضات الجنات، ج٣، ص ٥٥٠؛ يقول أحمد أمين ضحى الإسلام، ج٣،

والكتب الثلاثة الأخرى النمطية هي «كتاب من لا يحضره الفقيه» لابن بابويه القمي، ويحتوي على ٣٩١٣ حديثا، و«كتاب التهذيب» و«كتاب الاستبصار»، وكلاهما من تأليف الشيخ الطوسي. يحتوي الاستبصار على ٥٥١١ حديثا، لكن الطوسي يلاحظ عليه في كتبه عدم الاحتراس ، خصوصا في «كتاب التهذيب»، فيما يتعلق بالأشخاص والأحاديث، فكان على العلماء أن يعيدوا القيام ببحوثه(١٦٥). على أن هناك لابن بابويه كتابا آخر، اعتبره الشيعة كتابا خامسا من كتب الحديث: مدينة العلم. وكان موجودا حتى زمن الشهيدين(١٦٦)، ولكنه ضاع منذ ذلك الحين ولم يظهر له أثر رغم بحث الشيعة عنه.

الفقه

كان الحديث والفقه شيئا واحدا عند الشيعة الإثني عشرية. كانوا من أتباع الأخبار دون أن يتعرضوا لها بالنقد. وهكذا كان الأمر بالنسبة إلى ميدان الفقه حتى عصر الكليني. وكان العماني وابن الجنيد، وهما معاصران للكليني، يناديان بمذهب جديد مستقل في الفقه مع الاستعانة بجميع الوسائل فيما يتصل باجتهاد الرأي وتصفية الأحاديث. وقد لاقى العالمان في البداية مقاومة شديدة، ولكن مذهبهما تم له النفوذ شيئا

ص ٢٦٧ بوضوح أن الكليني صاحب التقسيم الرباعي أسوة بأهل السنة، ولكن أحمد أمين لا يذكر مصدر زعمه هذا !

(١٦٥) ر. شتروتمان، مصادر الشيعة، ص ١٤ رقم ١٨.

(١٦٦) الشهيدان هما عالمان قتلهما أهل السنة، وهما محمد بن المكي العاملي، وزين الدين بن علي بن أحمد، وقد درس الأول على الشيعة والسنة، ودرس الأخير على السنة. كان العاملي متأثرا بأهل السنة وكذلك زين الدين في مصطلحاته في ميدان دراية الحديث. ينظر عن الاثنين «أمل العامل»، ص ٤٥٥ أو ٤٣٦، ور. شترومان، مصادر الشيعة، ص ١٧ رقم ٣٥ وص ١٩ رقم ٤٠-٤٢، ور. شتروتمان، مصادر . . . ، ص ١٨ رقم ٦٨ ! ، روضات الجنات، ج ١، ص ٤٤.

فشيئا، وازداد قوة باعتراف المفيد به. وفي النهاية أصبح المذهب الجديد أساسا لتطور الفقه الشيعي[١٦٧].

لم تكن هناك اختلافات في الفقه تستحق الذكر داخل الشيعة الاثنى عشرية؛ على أن فجوة الفروق بين الشيعة وغير الشيعة قد أصبحت بذلك أكثر اتساعا. مع ذلك فإن مقاس الاختلاف بين الفقه عند السنة والشيعة كان يتأرجح، إذا نحن أخذنا بعين الاعتبار تطور الاختلافات القديمة نسبيا، حسب الوضع السياسي[١٦٨].

الواقع أن ابن الراوندي، الذى تحدثنا عنه سابقا، كان دعا إلى الاجتهاد قبل العالمين المذكورين، ولكن الشيعة الإثني عشرية اعتبروا ابن الراوندي غير مأمون الجانب متهما، ومن هنا يتضح لماذا لم يحض مذهبه بالتقدم والانتشار، وقد حظي فيما بعد بمناقشة رجال عظام له مثل أبي سهل النوبختي[١٦٩].

وأصل العماني من عمان في الجنوب الشرقي من الجزيرة العربية، وكان أبوه قد توفي في المدينة سنة ١٦٧ هـ[١٧٠]، أما هو نفسه فكان معاصرا للكليني[١٧١]. منذ هذا الوقت تقريبا تأصل الاجتهاد في المذهب الشيعي. وقد انحرف العماني في بعض النقط عن أهل السنة، مثلا في مسألة نظافة الماء ونجاسته، التي أثارها مالك بن أنس[١٧٢]. ونعد من

---

(١٦٧) روضات الجنات، ج١، ص ٣٣، وج٣، ص٥٩٠: في هذا المكان يتحدث المؤلف أيضا عن تطور الفقه الشرعي.

(١٦٨) منهاج السنة، ج١، ص ١٤٦: توجد هنا اختلافات فقهية كثيرة بين السنة والشيعة، ومن المهم أن يراقب الإنسان كيف أن للسنة بعض التقاليد الشرعية، التي يشتركون فيها مع الشيعة، لا لشيء إلا لأنها كانت للشيعة أيضا؛ ينظر تلبيس إبليس، ص ١٠٥.

(١٦٩) خنداني النوبختي، ص ٩٤ و١٢٠.

(١٧٠) روضات الجنات، ج٢، ص ١٦٨.

(١٧١) قصص العلماء، ص ٣٣١، روضات الجنات، ج٣، ص٥٢٠.

(١٧٢) نفسه.

المسائل، التي كان للعماني رأي خاص فيها، مسألة الأذان وإقامة الصلاة في صلوات الصبح والمغرب.

كان هناك في هذا الوقت علماء عظام من أمثال جعفر بن محمد بن موسى بن قَوْلَوَيه (توفي سنة ٣٦٩ هـ)[١٧٣] ومحمد بن أحمد بن الجُنَيد (توفي سنة ٣٨٨ هـ) وعلي بن موسى بن بابويه القمي. وقد اشتهر القمي من هؤلاء الثلاثة في ميدان الفقه والحديث، وقيل عنه إنه كان يتراسل مع الإمام المختفي، وكان هناك تبادل المعلومات بينه بين العماني[١٧٤].

وكانت كتب العماني أكثر انتشارا في خراسان: كان حجاج خراسان قد تعودوا ، عندما يعودون من مكة عن طريق بغداد، على شراء كتب العماني وأخذها معهم إلى بيوتهم[١٧٥].

وكان الرجل، الذى واصل عمل العماني مدى الحياة، هو محمد بن أحمد بن الجُنَيد البغدادي، ويلقب أحيانا بالكاتب أو الإسكافي. ولم يبق ابن الجنيد عند الاجتهاد، كما طبقه سابقه، وإنما تجاوز ما وجده العماني: لقد استعمل منهج القياس كما استعمله الحنفية[١٧٦]. وقد يكون من الغريب أن نعرف هنا أن القياس كان ممنوعا عند الشيعة منعا باتا، لأنه يفتح الباب للتعسفات الشخصية، ثم إنه لا يجوز أن يكون هناك رأي خاص فيما يتصل بالأمور الدينية[١٧٧]. ويطلعنا الكافي وكتب أخرى على مجموعة من الأقوال، تنسب فيما يقال إلى الأئمة أنفسهم، جاء فيها أن القياس يضر بالعقيدة و«يسيء» إليها[١٧٨].

---

(١٧٣) تذكرة المتبحرين، ص ٤٦٦.
(١٧٤) قصص العلماء، ص ٣٣١.
(١٧٥) منهج المقال، ص ٩٦.
(١٧٦) روضات الجنات، ج٣، ص ٥٨١، نضد الإيضاح، ص ٢٦٧، منهج المقال، ص ٩٦
(١٧٧) أصل الشيعة، ص ١١٥، الكافي، ص ٢١.
(١٧٨) الكشي، ص ١٢٥، الكافي، ص ٢١، ضحى الإسلام، ج٣، ص ٢٦٤.

لقد عرض الجنيد نفسه بسبب رأيه في القياس لعداوة خصومه من الشيعة، فقالوا عنه إنه سمى نفسه سفيرا[١٧٩]. وحاول بعض الناس أن يجدوا له مبررا، ودافعوا عنه بأن تهمة القياس مبنية على سوء الفهم. فلم يرد ابن الجنيد سوى مقارنة رأي السنة برأي الشيعة، لكنه هو نفسه ابتعد عن القياس. على أن تأمل عناوين كتب الجنيد يرينا أن هذا الدفاع ضعيف جدا، ذلك أن ابن الجنيد قد انتقد بوضوح أولئك الذين أصدروا حكمهم على القياس[١٨٠]، ثم إن شهادة الطوسي، الذى لا يبعد عنه زمنيا، لها وزنها: لقد اعترف الطوسي أنه وضع كتب ابن الجنيد جانبا بسبب موقفه من القياس[١٨١].

وقد وقعت محاولات أخرى لإنقاذ ابن الجنيد للمذهب الشيعي: قيل إن ابن الجنيد قد عدل رأيه في القياس فيما بعد، وتنسب هذه المحاولات بطبيعة الحال إلى فترة متأخرة. يوضح كتاب روضات الجنات مسألة القياس وغيره بشكل جيد جدا على النحو التالي: هناك اليوم مسائل كثيرة، كانت في الأزمنة الماضية قد أجيب عنها بشكل واضح، أصبحت اليوم غير واضحة، ولربما تكون منها أيضا مسألة القياس. لقد أكد المرتضى في معالجته لمسألة الأخبار الآحاد أن هناك بين المحدثين من استعملوا القياس مثل الفضل بن شاذان[١٨٢] ويونس بن عبد الرحمن

---

(١٧٩) قصص العلماء، ص ٣٣١.

(١٨٠) وضع كتابين في الدفاع عن وجهة نظره، نعرف عنوانهما:
(١) كتاب كشف التمويه والالتباس على أغمار الشيعة في أمر القياس،
(٢) إظهار مابتره أهل العناد من الرواية عن الأئمة العترة في أمر الاجتهاد.
ينظر عن ذلك منهج المقال ، ص ٢٧٨.

(١٨١) فهرس الطوسي، ص ٢٦٧.

(١٨٢) الفضل بن شاذان أبو محمد الأزدي النيشابوري، كان أبوه من أتباع يونس بن عبد الرحمن القمي. وكان الفضل كثير الاطلاع على علم الكلام والتشريع أيضا، يروى أنة ألف ١٨٠ كتابا. كما رأينا عند رجال الشيعة، هناك لبعض الناس ما يؤاخذون به الفضل أيضا. يقال إنه توفي سنة ٢٦٠، ينظر عنه منهج المقال، ص ٢٦٠.

وغيرهما. وكذلك قصة الصدوق في الفقيه[١٨٣] في فصل «هل يرث الأحفاد الجدين عندما يموت الأب؟» يبدو أن القياس كان معروفا فيها. ويعتبر دليلا على زعم المرتضى ما شهد به علماء الشيعة كلهم عن ابن الجنيد من أنه قد بقي رغم أخذه بالقياس في طائفة الشيعة وكان له احترامه بوصفه عادلا قوي العقيدة ثم إنه عاش في عهد معز الدولة البويهي، وزير الخليفة الطائع (٣٦٣-٣٨١ هـ). وكان معز الدولة نفسه عالما شيعيا، يمثل قضية الشيعة أمام الناس حتى إن سكان بغداد كان يبكون يوم عاشوراء ويظهرون الحزن في الشوارع، بينما يظهرون في يوم غَدير خَمّ الفرح والسرور ويخرجون إلى الصحراء لأداء صلاة العيد هناك[١٨٤].

ويتساءل المدافعون عن ابن الجنيد كيف كان يمكنه أن يكتب عن القياس في مثل هذا الوقت، الذى كان الشيعة قد أعلنوا فيه أن إنكار القياس من الإيمان. ولم يكن لابن الجنيد أن يتخطى هذا الأمر الملزم فقط، وإنما كان عليه أيضا أن يتصدى لأعدائه ويسجل مآخذه عليهم. ومهما يكن فقد حظي ابن الجنيد بحماية الوزير الفاضل الصالح معز الدولة، الذى كان يعامله باحترام كبير ويتبادل الرسائل معه.

ذكر اليافعي في كتابه أن معز الدولة أحمد بن بويه قد توفي سنة ٣٥٦ هـ، أي بعد ٢٧ سنة من موت السفير (توفي سنة ٣٢٩ هـ) أبي الحسن علي بن محمد السَّمَّري. ونستطيع أن نستخلص من ذلك أن ابن الجنيد كان من رجال الغيبة الصغرى وكان معاصرا للسفير. ونلاحظ من ذكر النجاشي[١٨٥] والعلامة[١٨٦] للسيف والمال أن ابن الجنيد كان

---

(١٨٣) العنوان الكامل هو: من لا يحضره الفقيه، والمؤلف هو الصدوق القمي أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين. ينظر منهج المقال، ص ٣٠٨، وكذلك ر. شتروتمان مصادر الشيعة، ص ١٣ رقم ١٧؛ بروكلمان١، ١٨٧، ٤ ، ٤، وبراون، ص ٤٠٥.

(١٨٤) A. Mez, Die Renaissance des Islams, s. 65; E.I. Art. Mu'izz ad-Daula.

(١٨٥) النجاشي، مادة ابن الجنيد.

(١٨٦) الطوسي، ٢٦٧.

وكيلا، ولم يقل عنه في الناحية المقدسة، أي باسم الإمام المختفي، أي شيء مضر به أو وجه إليه مأخذ من المآخذ، ولم يناقشه السفراء الحساب أيضا. وهذا يجعلنا نظن أن أخطاء ابن الجنيد في «القياس» وأشياء أخرى قد وقعت في أشياء ثانوية، ولذلك تم العفو عنه. وعلى هذا يمكن أن يكون لأقوال الجنيد ما لأقوال العلماء والفقهاء الآخرين من اعتبار، سواء اتفق معهم أم لم يتفق. لا يعد «القياس» سببا في رفض كتب ابن الجنيد، خلافا لما يراه الطوسي (لم يكن هناك اتفاق بين الفقهاء حتى على أسس الفقه، ولهذا لا يصح أن يرفض المرء أحكام بعضهم ويقبل أحكام البعض الآخر). ذلك أن وجود اختلاف بين الفقهاء في أحكامهم لا يدعو إلى الحط من قيمة هذه الأحكام، لأن الفقهاء منذ القديم وإلى اليوم لم يتفقوا على الأساس، الذى يبنى عليه الحكم، كما هو الأمر مثلا في «الخبر الوحيد» و«الاستصحاب» و«المفاهيم» وغير ذلك من مصطلحات الشريعة.

نحن لا نجد حتى فقيهين يتفقان في مسائل الحكم الشرعي، ومع ذلك فإن العلماء لم يهملوا الآراء المختلفة، وإنما كانوا يذكرونها في كتبهم إلى جانب آرائهم، ولو أنهم لعنوها وتم التبرؤ منها لما يبدو فيها من اختلاف، لما بقي هناك كتاب واحد. ويبدو أن الشيخ الطوسي ومن وافقوه على رأيه كانوا قد بذلوا جهدهم حتى لا ينحرف الشيعة عن الطريق في ميدان الشرع[١٨٧].

ليس من السهل الوصول إلى موقف ثابت من القياس وما أشبهه من المسائل. كنت قد أوضحت في الفصل السابق كم هي كثيرة الأشياء، التي يتميز بها الشيعة اليوم، والتي كانت في العصور الماضية غير معروفة وكم هي كثيرة الأشياء، التي لا تستعمل اليوم، وقد كانت آنئذ مستعملة استعمالا واسعا. فالشيعة يستعملون بدل القياس الدليل العقلي، ولكن

---

(١٨٧) روضات الجنات، ج٣، ص ٥٢١ وما بعدها.

القياس جزء من الدليل العقلي فقط، عندما يكون القياس مقنعا واضحا، فمن حق المرء أن يستعمله دون حرج. فإذا جاء في القرآن الكريم أن كلمة «أُفٍّ» لا يجوز استعمالها مع الوالدين، فإنه لا يجوز للمرء أن يرفضها بناء على القياس. والقياس من هذا القبيل جائز عند الشيعة[١٨٨]. ولكني لا أستطيع، عندما أتفحص الأمر، أن أكتشف فرقا بين القياس والدليل العقلي، فالأمر لا يتعلق إلا باختلاف في الاسم، لأن كلا منهما يقوم على الرأي الذاتي الخاص. لذلك يرفض الأخباريون الدليل العقلي ومعه القياس أيضا.

الأخباريون والأصوليون

من بذرة قام بها العماني وابن الجنيد، اللذان بشرا بمذهبهما في نهاية الغيبة الصغرى، من عمل في حياتهما، نشأ في وقت متأخر شقاق بين الشيعة الأخباريين، الذين لا يوجهون عقيدتهم كلها إلا بناء على أخبار الأئمة المنقولة إليهم، وبين الناس الأصوليين، الذين لا يرفضون أن يقبلوا كل شيء دون نقد وتمحيص. كنا قد رأينا كيف كان الناس ينظرون إلى علم الكلام نظرة شزراء، واستقبال المذاهب الجديدة بارتياب. وكانت هناك أيضا حركة نقدية في الميادين العلمية الأخرى. كل هذه الأوضاع والحركات، التي ظهرت في الغيبة الصغرى، وازدادت قوة في نهايتها، قد أدت إلى تكوين فرقة الأصوليين، الذين رفضوا أن يأخذوا الأحاديث دون نقد، وإنما حاولوا أن يطبقوا عليها كل الوسائل العلمية المستعملة في البحث.

ووقفت قبالتهم فرقة الأخبارين، الذين بحثوا عن هدوئهم الروحي في أخبار الأئمة المنقولة، التي لا يجوز أن تمس. وكانت هناك منافسة قوية بين الخصمين من أجل السيادة على الشيعة.

---

(١٨٨) كاشف الغطاء، رسالة خاصة بتاريخ ٢٢ رمضان ١٣٥٥.

كان الحسن بن عقيل العاملي وابن الجنيد قد أقاما مذهبهما اعتمادا على مناهج المتكلمين، الذين يستعملون الأفكار أكثر من استعمالهم للأخبار وأخذوا مصطلحاتهم من علم الكلام والشريعة عند أهل السنة. وعن طريق مساندة المفيد، وخصوصا مساندة الشريف المرتضى، انتشرت تعاليم الأصوليين خلال العصور الموالية وامتدت إلى زمن الحلي، الذى أخذ معظم أسس تعاليمه من أهل السنة[١٨٩]. بعد هذا يجب علي أن أذكر الشهيد الأول والثاني والشيخ علي[١٩٠].

ويتعاقب الأخباريون والأصوليون على قيادة العلم: كان معظم علماء العراق حوالي سنة ١٢٠٠ للهجرة من الأخباريين، رغم أن الأصوليين كانوا يشكلون الأغلبية قبل ذلك بقليل[١٩١]. وكما كان نفوذ الشيعة يزداد بروزا كلما كان له مساعدون في القصر، كانت كذلك القيادة العلمية لتلك الفرقة، التي تكون لها مصادفة صلة ببيت الحاكم. والفرق الوحيد بين الأخباريين والأصوليين، حسب ما يوحي به الاسمان، هو في اختلاف آرائهم في قيمة الأخبار. فالأخباريون يرون أن إقامة الشريعة على «الأخبار» المنقولة عن أفواه الأئمة أبعث على الاطمئنان أكثر من إقامة شريعة جديدة على العقل[١٩٢].

بعدما أغلق السنيون «منفذ» الاجتهاد ووثقوا من غير روية بمدارسهم الأربع، فتح الشيعيون في نهاية الغيبة الصغرى أبوابهم للاجتهاد، ونمت الفرقة الصغيرة من أتباع الاجتهاد على مهل إلى أن تحولت إلى عظمة، انتصرت في النهاية على الأخباريين وجلبت الأغلبية إلى جانبها.

---

(١٨٩) روضات الجنات، ج٣، ص ٥٩٠: الإمام الحلي هو جمال الدين أبو منصور الحسين ين سديد الدين بن يوسف بن علي بن المُطهّر (٦٨٤/ ١٢٥٠ ـ ٧٢٦/ ١٣٢٥).

(١٩٠) أمل الآمل، ص ٤٤٣، وروضات الجنات، ج١، ص ٣٣.

(١٩١) روضات الجنات، ص ١٣٣.

(١٩٢) نفسه، ج٣، ص ٥٩٠.

والنقاط الأساسية في الفرق بين الأخباريين والأصوليين هي:

١) يمنع الأخباريون الاجتهاد ولا يقيمون اعتبارا إلا لأخبار الأئمة بوصفها القاعدة؛ ويعمل الأصوليون بمبدأ الاجتهاد، ويعطون للمجتهد الحق في إصدار حكمه على الأخبار.

٢) المصادر الشرعية عند الأصوليين هي الكتب الأربعة وأحيانا الخمسة: الكتاب؛ السنة[١٩٣]، أي أحاديث وأفعال الرسول والأئمة؛ والإجماع، والدليل العقلي؛ والكتاب الخامس أحيانا الاستصحاب، بمعنى البحث عن الاتصال. أما الأخباريون فلا يقبلون سوى المصدرين الأولين كأساس حقيقي للشرع، والغلاة منهم يهتمون بالسنة أكثر من اهتمامهم بالقرآن.

٣) العلم الواضح عند الأصوليين يساوي القناعة الشخصية وهي أمر مسموح به. وليس مهما في النهاية أن يكون المجتهد على حق أو على باطل عندهم. فالله على أية حال هو الذى سيثيبه على بذله قصارى جهده من أجل الوصول إلى الحقيقة. ولكن الأخباريين يرون أنه لا مجال للظن في الدين، ففيه العلم الواضح. وسيعاقب المجتهد في رأيهم إذا لم يقم حكمه على أخبار الأئمة بناء على علمه الواضح.

٤) والأحاديث المأثورة تقسم، كما سبق أن رأينا، إلى أربعة أقسام: صحيح وضعيف، ويمثل الصحيح الأخبار، التي يستطيع المرء أن يبرهن على أنها صادرة عن الأئمة. ثم إن هناك عند الأصوليين طائفتين من المؤمنين: المجتهدون، أي الفقهاء المتكلمون، ومجموع العوام. أما الأخباريون فلا يوجد عندهم هذا النوع من التقسيم، لأن الأخبار عندهم كلها منقولة عن الأئمة وعليهم أن يتقيدوا بها بصرامة كبيرة. على أن هذا لا يعني أن علماء الأخباريين أقل منزلة من علماء الأصوليين، فهم

---

(١٩٣) يختلف السنة والشيعة في مفهوم السنة، فهذه الكلمة تتصل عند السنة بأقوال الرسول وأفعاله، ولكنها تتصل عند الشيعة بالأئمة.

متساوون تماما، كل ما في الأمر أنهم لا يحق لهم التعبير عن آرائهم. وإنه لمن الصعب في بعض الأحيان التفريق بين عالم الأخباريين ومجتهد الأصوليين.

٥) يسمح الأصوليون للمجتهد أن ينوب عن الإمام في الغيبة الصغرى ويبشر بآرائه، ما عدا الحالة، التي يكون فيها الإمام لا يزال يقيم بين البشر، فلا بد عندها أن يؤخذ عنه أساس الشريعة مباشرة. وعلى العكس من ذلك يرى الأخباريون أن على المرء أن يعود إلى أقوال الأئمة بشكل مباشر أو غير مباشر، سواء أكان بين الأحياء أم لا.

٦) من حق المجتهد وحده أن يصدر فتوى، لكن الأخباريين يرون أن لجميع الرواة الحق في ذلك.

٧) المجتهد عند الأصوليين خبير في أمور الشرع، غير أن الأخباريين لا يعترفون بهذا الصفة إلا للإمام. فالراوية لا يمكن أن يكون مجتهدا إذا هو لم يكن متمكنا من أصول الفقه ويسيطر على علم الكلام سيطرة تامة. والعالم عند الأخباريين رجل، يعرف الحديث جيدا ويستطيع أن يختار الأحسن بين حديثين أو خبرين متناقضين. وتعد أصول الفقه وجميع المصطلحات ، التي أخذها الأصوليو ن من السنة، غير مهمة بالنسبة إلى العالم. من حق المجتهد أن يختار واحدا من الخبرين المتناقضين بناء على ظنه الشخصي، ولكن العالم ليس تحت تصرفه مثل هذه السلطة، وإنما يجب عليه أن يجد أولا أسبابا مقنعة تبرر القرار الذى اتخذه.

٨) الأصوليون يفضلون آية من القرآن على خبر أو حديث للأئمة، لكن الأخباريين يطالبون بأن لا يتم تأويل أية آية إلا إذا كان هناك توضيح من الأئمة. وعلى هذا لا يجوز للمرء أن يستعمل آية في وضع الشريعة إذا لم يساندها شرح ما للأئمة.

٩) عندما يموت مجتهد تغوص معه في قبره كل أعماله العلمية

المتصلة بالشريعة، إذا لم يكن زميل له قد تبنى فتواه الشرعية، لكن الأخباريين يرون أن عمل العالم تبقى له قيمته الدائمة.

١٠) كما يجب على كل شيعي أن يبايع إمامه، كذلك يجب على الأصولي أن يظهر احترامه وتقديره للمجتهد. ، أما الأخباريون، فلا يبايعون إلا الإمام وحده.

١١) يترك الأصوليون مجالا واسعا للآراء في الفتوى الشرعية، بحيث إنه من الممكن أن تكون آراء المجتهدين متناقضة دون حرج ومن غير أن يحاسب المجتهد المفرد عليها، لكنه لا يجوز له أن يسيء إلى الدين. أما الأخباريون فيرفضون أي انحراف عن الأخبار، سواء أمثل المجتهد رأيه أم لا، فهو في رأيهم دائما على باطل.

١٢) يرى الأخباريون أنه ليس من المهم أن يكون راوية حديث الأئمة شيعيا أو غير شيعي، لكن الأصوليين يطالبون بأن يكون شيعيا. على راوية الحديث عند الأخباريين أن يكون مستحقا للثقة، بينما يزيد الأصوليون على ذلك أن يكون شيعيا.

١٣) وإذا افترضنا أن حديثا ما يكون معروفا بشكل عام، ولكن شخصية الراوية غامضة أو مجهولة تماما: في هذه الحالة لا يعير الأصوليون وزنا للخبر، لكن الأخباريين لا يسألون عن الشخصية وإنما يسألون عن الحديث.

١٤) كل ما لم يمنع بصفة قاطعة وما لم يوصف عن طريق حديث بأنه ممنوع، فهو جائز عند الأصوليين، أما الأخباريون، فيتصرفون فيه بحذر.

١٥) الأصوليون يجعلون من الإجماع مقياسا للأمانة في نقل الخبر، حتى ولو تم الإجماع في وقت متأخر، ولكن الأخباريين يرفضونه رفضا باتا.

١٦) لا ينظر الأصوليون إلى المضمون الكامل لكتب الحديث

الشيعية الأربعة على أنه حقيقة ثابتة، لكن الأخباريين يؤمنون بالمضمون كله دون استثناء[١٩٤].

في هذه النقاط الست عشرة يفترق الأصوليون والأخباريون عن بعضهم البعض. ولا تقوم هذه الفروق، كما نستنتج من ذلك، على مفهوم آخر مختلف أساسا في المذهب الشيعي، وإنما تتصل بمناهج البحث ووضع القوانين في ميدان الشريعة. ولا يصح بأية حال أن نعتبر اختلافهما المنهجي المحض بمثابة «طائفة»[١٩٥].

أما المدن، التي ازدهر فيها العلم الشيعي، فيجب أن نذكر إلى جانب بغداد، التي لعبت بوصفها مقر السفراء ومركز التنظيم الشيعي دورا متميزا، مدينة قم، مركز الشيعة الفرس والمدينة الفارسية الأولى التي تشيعت، بحيث لم يكن بها سني واحد[١٩٦]. كانت أول بذرة للشيعة قد غرست في قم على الأراضي الفارسية، ومن هنا انتشر الزرع في بلاد فارس كلها وحملت الغرائس إلى مدن فارسية أخرى. فعبد الله بن سعد بن مالك بن عامر، الذى كان من بقايا عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث[١٩٧] كان مسكنه قم ونشأ في الكوفة، وتعرف فيها على التعاليم الشيعية. وعندما عاد إلى أبيه في قم، نشر الشيعة فيها، فكانت لعقبه

---

(١٩٤) وصفت كل هذه المسائل من ١ ـ ١٢ في روضات الجنات، ج١، ص ٣٦؛ وتبدو لي تلك الفروق في ضوء البحوث الحديثة غير ذات أهمية كبيرة. ولا أستطيع أن أجد بين الأخباريين والأصوليين فرقا آخر سوى أن الأولين أكثر ارتباطا بالأحاديث المنقولة والأخيرين أحرار في آرائهم. ولم أذكر الاختلافات المفردة إلا لأوضح اختلاف الاتجاهات العامة ولجعل الحياة العلمية أكثر وضوحا. فالأمر يتعلق في تلك النقاط إلى حد كبير بالآراء، التي يمثلها مؤلف روضات الجنات.

(١٩٥) تحدث ماكس هورتون في كتابه عن فلسفة الإسلام Max Horten, Die Philosophie des Islams, s. 143 «طائفة الإخباريين».

(١٩٦) ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص ١٧٦، وميتس، الحضارة الإسلامية، ص ٥٧.

(١٩٧) تاريخ قم (طبع في طهران سنة ١٣٥٣ للهجرة)، ص ٢٣، ٣٧، ٢٤٠، ٢٤٤ وغيرها، ثم معجم البلدان ، ج٤، ص ١٧٦.

القيادة الدنيوية والروحية في المدينة الشيعية[198]. وتطورت قم لتكون مركزا فكريا من الدرجة الأولى، وأجلها الشيعة إجلالا كبيرا. فما من عالم إلا وله سمعة طيبة منذ البداية، لأن أصله من قم. وكانت والأحكام، التي كان يصدرها علماء قم على علماء آخرين، أحكاما حاسمة. وما أكثر ما نجد في كتب التراجم ملاحظة، تفيد أن أهل قم قد حكموا بكذا وكذا على شخص ما[199]. كانت لقم القيادة في ميدان الحديث، وكانت أسرة الأشعري من المتحدثين المتميزين.

كانت ابنة موسى الكاظم قد ماتت أثناء سفرها إلى بلاد فارس في قم، فدفنت فيها. وازداد المركز الشيعي الأول في فارس عن طريق هذه الشخصية السامية ارتفاعا، فكان آلاف الحجيج يحجون سنويا إلى القبر المقدس، الذى أصبح يأتي اليوم من حيث اعتباره عند الشيعة الإيرانيين بعد مشهد، ضريح الإمام الرضى، في المركز الثاني[200].

كانت بلاد فارس مقسمة داخل التنظيم الشيعي أيام الغيبة الصغرى إلى مناطق بلدية، يترأس كل واحدة منها وكيل، وهي: قم (١)، الأهواز (٢)، همذان (٣)، الري (٤)، أذربيجان (٥) ، ونيشابور (٦). كان يشرف على منطقة بلدية قم الوكيل أحمد بن إسحاق، وهو ينتمي إلى أسرة الأشعري المذكورة[201].

وهناك شخصيات قيادية من الأسرة نفسها قادت طائفة قم. وكان احمد بن محمد بن عيسى فترة طويلة، من الإمام الرضا إلى الإمام

---

(١٩٨) ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص ١٧٦.

(١٩٩) تعليقات على منهج المقال، ص ٨ و١٢.

(٢٠٠) Le Strange, Lands of the Eastern Caliphate, p. 209، وعيون الأخبار، فصل ٦٨، ص ٣٧١، ودونالدسن، المرجع السابقة، ص ٢٥٩.

(٢٠١) ينظر بحار، ج ١٣، ص ١١٢. كنا قد تحدثنا عن أحمد بن إسحاق في الفصل، الذى خصصناه للسفراء.

الأخير، رأس طائفة الشيعة في قم. كان السلطان[٢٠٢] قد عهد إليه بالمدينة، فكان يقوم على تسيير شؤونها. وكان يعامل الشيعة وغير الشيعة، العلماء وبسطاء الناس على النحو الذى يحلو له ويرضاه ضميره. فقد طرد المحدث المعروف أبا جعفر محمد بن خالد البرقي (توفي سنة ٢٧٤ هـ) من قم رغم علم هذا الرجل وصدق إيمانه. ومع ذلك أنعم عليه ابن عيسى بشفاعة ما، فعاد المطرود إلى قم. ويقال إن ابن عيسى سار حافي القدمين وراء نعش البرقي يوم تشييع جنازته علامة على حزنه وندمه على ما ألحقه به من ظلم[٢٠٣]. وكذلك جلب يونس بن عبد الرحمن، الذي كان أصله من قم أيضا وكان ينعم بصفته وكيلا بتقدير إمامه الرضا، على نفسه سخط ابن عيسى القوي. فقد استعمل قوته للقيام بحملة حقيقية ضد ابن يونس بتزييف أحاديث الإمام، وسانده في ذلك علي بن حديد[٢٠٤]، كما نعلم، لتكون له حظوة عنده. ولم يزيف الاثنان الأحاديث ضد يونس نفسه فقط[٢٠٥]، وإنما زيفوها أيضا ضد معلمين آخرين حتى تكون إصابته أشد وقعا عليه.

من بين الأشخاص العظماء في أسرة الأشعري، الذين ذاع صيتهم، أحمد بن إدريس الأشعري، وهو رجل أمين في ميداني الحديث والفقه، و أحمد بن إسحاق الأشعري، وسعيد بن عبد الله بن أبي خلف الأشعري. وقد جمع الأخير في شخصه بين الحديث والفقه، وسافر عبر بلدان مختلفة لجمع الأحاديث، وأخذ بعضها من غير الشيعة. وكتب مثل بقية أعضاء أسرته وسكان قم، ضد هشام بن الحكم والمتعاطف معه

---

(٢٠٢) لم يذكر اسم السلطان!

(٢٠٣) منهج المقال، ص ٤٣، والشيعة والفنون ٣٨ ، ومنتهى المقال، ص ٤٢.

(٢٠٤) كان يعيش في الكوفة، وكان قد ولد ونشأ في المدائن، ويرى كتاب التراجم أنه غير موثوق به، فكل ما رواه بمفرده، يجب أن يهمل. ينظر عنه منهج المقال، ص ٢٢٨.

(٢٠٥) منهج المقال، ص ٣٧٩ و٣٨٠.

يونس[٢٠٦]. كتب بروكلمان، التكلملة ١، ص ٣١٩ رقم ٣: «كان المؤسس الحقيقي لفقه الإمامية في بلاد فارس محمد بن الحسن بن الفروخ الصفار الأعرج جعفر القمي (توفي سنة ٢٩٠ هـ/ ٩٨٣ ميلادية)». لم يتضح لي لماذا يصف بروكلمان هذا الرجل بأنه «المؤسس الحقيقي» لفقه الإمامية، فنحن نجد في كتب التراجم روادا، ذكروا على أنهم «فقهاء عظماء» في مدينة قم ووضعوا كتبا كثيرة تزيد عن كتب الأعرج؛ ثم إن كتب التراجم، التي اعتمد عليها بروكلمان، لا تذكر كلمة «المؤسس» على الإطلاق[٢٠٧].

إذن كان لمدينة قم، على ما نرى من مصائر هؤلاء الرجال، قصب السبق في ميدان الحديث والشريعة. على أن هناك كلمات ومفاهيم كثيرة تتردد في الحديث، يجب أن يكون المرء حذرا عند تأويلها. فعلماء قم يبعدون الأحاديث والآيات القرآنية الصورية عن كل تأمل تأويلي، ويقتصرون على وجود نص من هذا النوع. ولذلك اتهموا بأنهم من أتباع جبرية وتشبيهية صارمة في تصورهم لله، لأنهم يخافون في مثل هذه الحالات البحث عن توضيح ما يتفق مع العقل البشري[٢٠٨].

---

(٢٠٦) منهج المقال، ص ١٥٦.

(٢٠٧) منهج المقال، ص ٢٩٣؛ يوجد بين الرواد المذكورين أحمد بن عيسى الأشعري (توفي في النصف الأول من القرن الثالث للهجرة، ينظر منهج المقال، ص ٤٦) وكذلك أحمد بن محمد بن خالد البَرقي (توفي سنة ٢٧٤ أو ٢٧٠ أو حتى ـ وهذا أقل احتمالاـ ٢٠٨ هـ ؛ ينظر منهج المقال، ص ٤٢/٤٣)؛ ثم إبراهيم بن محمد بن سعيد (توفي سنة ٢٨٣ هـ، ينظر فهرس الطوسي، ص ١٦، منهج المقال، ص ٢٦، روضات الجنات، ج١، ص ٢؛ وعن بقية رواد الأعرج ينظر الكشي، النجاشي، وغيرهما من التراجم المذكورة). ومن معاصري الأعرج أحمد بن إدريس الأشعري (توفي ٣٠٦، ينظر منهج المقال، ص ٣١) أحمد بن إسحاق الأشعري (توفي في وقت الغيبة الصغرى، منهج المقال، ص ٣٢، وفهرس الطوسي ، ص ٢٣) وسعد بن عبد الله (توفي سنة ٣٠٠ هـ، منهج المقال، ص ١٥٩.)

(٢٠٨) منهج المقال، ص ٢٨٨.

ينظر القُميون بنفس الاحتراس إلى الحكايات العجيبة عن الأئمة، فهم يرتابون في رواة الحكايات العجيبة، فقد كان بين هؤلاء الرواة كثير من المنافقين، الذين كانوا يريدون أن يسيئوا إلى المذهب الشيعي من خلال تأليه الأئمة بما يرونه من عجائب عنهم. كان القميون يرون أن إجلال الأئمة يجب أن تكون له حدود مرسومة، لا يجوز لأحد أن يتجاوزها[٢٠٩].

كان الصدوق أبو جعفر محمد بن بابويه، الذى عاش في وقت متأخر قليلا في هذه المدينة، قد بالغ في زعمه بأن الذين طالبوا بعدم جواز نسيان الأئمة والأنبياء إنما أرادوا أن يحملوا المؤمنين واجبات مبالغا فيها، فهذا الأمر هو الدرجة الأولى من التطرف[٢١٠]. ولا يتناسب مع ذلك رأي أولئك الذين يرون أن الشيعة وإجلال الأئمة قد جاءا من بلاد فارس، مثلما هو الأمر عند Kremer, Dozy, A. Müller, Blochet (Le Messianisme dans l'herodoxie musulmzne, Paris 1903)[٢١١].
كان رئيس مدرسة قم في أيام الغيبة الصغرى هو أبو جعفر الصدوق، علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي. كان معاصرا للإمام الحادي عشر وكان الفقه ميدان اختصاصه، وشغل في الوقت نفسه منصبا عاليا في مدينة قُم مسقط رأسه. وكان نفوذه هو الذى حال بين الحلاج وبين العثور على مكان يأوي إليه. كانت للقمي علاقة شخصية بالسفير الثاني، فكان يراسله ويقوم بزيارته[٢١١]. وفي سنة ٣٢٨ هـ سافر ابن بابويه إلى بغداد، وهناك حضر دروسه بعض طلاب العلم، كان من بينهم التَّلعَكبُري المعروف[٢١٢]، ونالوا عنده الإجازة. كان ابن بابويه متزوجا من ابنة عمه

(٢٠٩) تعليقات منهج المقال، ٨.
(٢١٠) روضات الجنات، ص ٥٥٧.
(٢١١) نفسه، ج٣، ص ٣٧٧-٣٧٨.
(٢١٢) يدعى التَّلعَكبُري هارون بن موسى بن أحمد الشيباني أبو محمد. كان جامع حديث مشهور وحاول الحصول على الإجازة من عدة علماء، وكان عدد كبير من الشيعة قد أخذوا منه أيضا إجازاتهم. توفي سنة ٣٨٥ هـ.

(خاله)، ولكن الزواج ظل عقيما. وبناء على دعوة توجه بها إلى الإمام المختفي عن طريق علي بن جعفر بن الأسود(٢١٣) وعن طريق السفير الثالث، فقد كان له أولاد من زواجه الثاني، حملوا فيما بعد اسم أبي جعفر محمد وأبي عبد الله الحسين بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه ونالوا حظهم من الشهرة في العلم، وتروى عنه هذه الحكاية(٢١٤).

يروى أن ابن بابويه القمي قد تناقش مع رجل غير شيعي يدعى محمد بن مقاتل الرازي(٢١٥)، وعندما انتصر عليه اعتنق المذهب الشيعي(٢١٦).

ويروى عنه أيضا أنه استلم رسالة من الإمام الحادي عشر، خاطبه

---

(٢١٣) لا نعرف من علي بن جعفر الأسود سوى اسمه، رغم أنه يتضح من أماكن متفرقة أنه لعب، بوصفه وسيطا بين السفير الثالث والشيعة، دورا كبيرا. أنظر عنه منتهى المقال، ص ٢٠٨.

(٢١٤) أبو عبد الله عند كثير من الشخصيات المختلفة بأحاديثه الكثيرة؛ فقد روى عن أبيه وعن أخيه. ونحن نعرف بعض كتبه في علم الكلام عن طريق عناوينها: ١) مثل كتاب التوحيد ونفي التشبيه، ٢) كتاب الرد على الرافضة، (وقد وضع هذا الكتاب للوزير الصاحب بن عباد أبي القاسم إسماعيل بن الحسن (٣٢٦ ٣٨٥ هـ)، ينظر الكنتوري، ص ٣٤٠، ومنهج المقال، ص ١١٥، تذكرة المتبحرين، ص ٤٧٣، فهرس الشيخ متتجاب الدين في بحار، ج٢٥، س٤.
يعتبر الصاحب بن عباد من الشيعة، فقد قال عنه الصدوق في كتابه «عيون أخبار الرضا»، بوضوح أن الصاحب بن عباد شيعي، كتب أشعارا في مدح الإمام الرضا. وتذكر لنا مصادر أخرى أنه كتب أيضا في علم الكلام على أساس مذهب الشيعة، ونشر كتابين عن الإمامة. ينظر عنه ابن خلكان، ج١، ص ٧٥، ياقوت، معجم الأدباء، ج٢، ٢٧٣، يتيمة الدهر، ج٣، ص ٣١ وج ٤، ص ١٥٧، ابن النديم، الفهرست، ص ١٣٥، طبقات الأدباء، ص ٣٩٧، ابن شهرشوب، مناقب، ج٢، ص ٤٣، تاريخ التمدن الإسلامي، ج١، ص ١٤٦، آداب اللغة العربية، ج٢، ص ٢٣٠ و٣٠٩. معظم هذه المصادر مذكور في آثار الشيعة، ج٤، ص ٨٤ وما بعدها.

(٢١٥) عن محمد بن مقاتل ينظر ميزان الاعتدال، ج٣، ص ١٣٩.

(٢١٦) روضات الجنات، ج٣، ص ٣٧٧-٣٧٨.

فيها بهذا اللقب السامي «شيخي وأمين سري»، على أن هناك من الكتاب من يشكون في هذه الرسالة، وتوجد كاملة في «مجالس المؤمنين»(٢١٧).

إلى جانب الفقهاء والمشرعين، الذين حولوا تدعيم المذهب الشيعي، كان الشعراء والمؤرخون في ذلك الحين يدافعون عن الهدف نفسه، خصوصا الشعراء، الذين وضعوا كل فنهم وقناعتهم وأشعارهم الثورية الحماسية وما يصاحبها من حرارة الإيمان في خدمة مذهبهم. ونشأ في أسرة النوبختي شعراء موهوبون، وضعوا موهبتهم في خدمة القضية الشيعية ، وأقاموا عنها دواوين أشعارهم إلى جانب أعمالهم النثرية(٢١٨).
كان النجاشي الأصغر، الذى تحدثنا عنه سابقا، شاعرا مشهورا في عصره، فكرس أعماله الشعرية والنثرية في حياته كلها لمساندة الحركة الشيعية.
وكان أبو القاسم على بين إسحاق بن خلف البغدادي، ومهنته التجارة في الصوف، شاعرا محترما في العاصمة بغداد، دون خوف من الحكومة، ودون طمع،كتب مديحه للإمام بدافع قناعته وتحمسه لمذهبه. وكانت أسمى أمنياته الأخيرة أن يدفن إلى جانب الإمام، ومات أبو القاسم في عز سنوات عمره وتوفي سنة ٣٥٢ هـ(٢١٩). وفي الوقت نفسه كان يعمل المفجج أبو عبد الله محمد بن عبد الله (أو أحمد) الكاتب البصري (توفي سنة ٣٢٠ أو ٣٢٧ هـ). وكان لأشعاره تأثير كبير في النفوس المقهورة فاستطاعت أن تكسبهم بنغمتها الحزينة، التي نبعت من أعماق قلب الشاعر الحزين(٢٢٠). وكان نصر بن أحمد أبو القاسم الخربوزي يقرأ شعره على زبائنه في مخبزته بالبصرة، وهم يأكلون الكعك عنده، وقد توفي سنة ٣١٧هـ(٢٢١). وقد أثر خباز آخر في العامة بنفس الطريقة وبنفس المعنى،

---

(٢١٧) مجالس المؤمنين، مقالة على بن موسى.
(٢١٨) ينظر خنداني النوبختي في أماكن متفرقة.
(٢١٩) ابن خلكان، ج١، ص ٣٣، الشيعة والفنون، ص ١٠٨.
(٢٢٠) ياقوت، إرشاد الأريب، ج٦، ص ٣١٤-٣٢٤، الشيعة والفنون، ص ٩٢.
(٢٢١) الشيعة والفنون، ص ١٠٩، ياقوت، إرشاد الأريب، ج٧، ص ٢٠٦.

وهو الخباز البلدي أبو بكر محمد بن أحمد بن حمدان[٢٢٢].

إلى جانب هؤلاء الشعراء، الذين كان لهم تأثير عميق في الشعب، لأنهم لم ينظموا الشعر طمعا في المال والجاه، عمل الكتاب والأدباء على نشر المذهب الشيعي أيضا، مثل أحمد بن عبدون بن الحاشر (توفي ٣٢٣ هـ)، والكاتب المعروف[٢٢٣] محمد بن أبي بكر بن همام بن سهل الكاتب (توفي سنة ٢٥٨-٣٣٦ هـ)[٢٢٤]، وأبو بكر الصولي الكاتب، الذى لم يكن يستطيع مغادرة منزله في البصرة بسبب مدحه لعلي وتوفي هناك سنة ٣٣٦ هـ[٢٢٥] ـ يقال إنه كان شيعيا أيضا ـ وأسماء أخرى لو ذكرناها كلها لاتسع بنا مجال القول وقد تحدثنا في أماكن مختلفة من هذا العمل.

أما من جهة المؤرخين، فكان هناك في ذلك الحين ابن واضح بن أبي يعقوب (توفي سنة ٢٧٨ هـ)[٢٢٦] وأبو الحسن على بن الحسين المسعودي (توفي سنة ٣٤٦ هـ)[٢٢٧]، وهما من المدافعين عن المذهب الشيعي، كما يستخلص موقفهما منه من كتبهما المنشورة بكل وضوح.

---

(٢٢٢) الشيعة والفنون، ص ١٠٩.

(٢٢٣) الشيعة والفنون، ص ١٣٤، منهج المقال، ص ٣٨.

(٢٢٤) الشيعة والفنون، ص ٩٣، منهج المقال ص ٣٧.

(٢٢٥) الشيعة والفنون، ص ٩٣، وابن خلكان، ج١، ص ٦٤٣.

(٢٢٦) الشيعة والفنون، ص ٧٤، ومنتهى المقال، ص ٢٧٣.

(٢٢٧) الشيعة والفنون، ص ٥٨.

الفصل التاسع
نهاية الغيبة الصغرى

السفير الأخير علي بن محمد السَّمُّري[1]

في سنة ٣٢٦ هـ، عندما كان السفير الثالث يحتضر، عين وهو على فراش موته عليا بن محمد السمري خلفا له، واعترفت الطائفة بالسفير الجديد. ولكن سفارة هذا الرجل لم تدم سوى ثلاث سنوات، وبموته انتهت الغيبة الصغرى. ومن كراماته التي نقلت إلينا، هذه القصة: ذات مرة اجتمع رؤساء الشيعة عند سفيرهم لمناقشة شؤون مختلفة. وعندما أخذ الحديث يدور حول على بن الحسين بن بابويه، صاح السفير: «لطف الله به! لقد توفي في هذه اللحظة»، فاعترت الدهشة الحضور كلهم، وسجل اليوم والساعة، وبعد سبعة عشر أو ثمانية عشر يوما وصل خبر موته في بغداد، فلاحظ خلصاؤه بإعجاب أن ذلك يتفق تماما مع الوقت، الذى تحدث عنه السفير[2]. وقدم علي بن محمد السمري دليلا آخر على سفارته قبل موته بفترة قصيرة: لقد وجه رسالة إلى طائفته، ذكر فيها أنه سيذهب إلى دار الخلود بعد ستة أيام. وبعد ستة أيام وجده الشيعة فعلا في حالة احتضار. ولما سألوه عن خليفته، أشار لهم بأن الله نفسه قد أخذ الأمور بيدَه، وتوفي في اليوم ذاته[3]، ودفن في الجانب

---

(١) أو السَّمَّري (الغيبة، ص ٢٥٦).

(٢) الغيبة، ص ٢٥٨.

(٣) الغيبة، ص ٢٥٧.

الغربي من بغداد[٤]. وإعلانه هذا، الذى لا يتنبأ بنهاية حياته هو فقط، وإنما يتنبأ أيضا بنهاية فترة الغيبة الصغرى وزمن عمل السفراء، وثيقة حاسمة، نقلتها إلينا بنصها الكتابات المتأخرة. كان الإمام المختفي قد قدم له هذا التوقيع، حتى لا يعترف الشيعة من الآن فصاعدا بأي سفير وألا يصدقوا أولئك الذين يدعون ذلك. وهذا نصها:

«يا علي بن محمد السمري أعظم الله أجر إخوانك فيك فإنك ميت ما بينك وبين (الموت) ستة أيام فاجمع أمرك ولا توصي إلى أحد فيقوم مقامك بعد وفاتك فقد وقعت الغيبة التامة فلا ظهور إلا بعد إذن الله تعالى ذكره وذلك بعد طول الأمد وقسوة القلوب وامتلاء الأرض جورا وسيأتي لشيعتي من يدعي المشاهدة قبل خروج السفياني[٥]

---

(٤) نفسه، ص ٢٥٨.

(٥) الصورة الأصلية للسفياني تحمل نفس الملامح عند الأمويين مثل المهدي عند الشيعيين. ويقال إن خالد بين يزيد بن معاوية، ابن الخليفة الشهير يزيد بن معاوية، هو الذى وضع هذه الفكرة وهذا الاسم. كان خالد شاعرا وكيميائيا. ولكي يعزز قضيته عند أتباعه ويكتسب آخرين وينال ما يريده عند المستبد الظالم مروان بن الحكم، ابتدع خالد قدوة بالمهدي شخصية السفياني، وهو من عقب جده الأكبر أبي سفيان، الذى سيستعيد الحكم إلى الأسرة كلها. عن أصل السفياني ينظر الأغانى ج١٦، ص ٨٨، النجوم الزاهرة، ج١، ص ٢٢١، وضحى الإسلام، ج٣، ص ٢٣٥ وما بعدها. وعندما رأى العباسيون أن للأمويين سفيانيا وللشيعة مهديا كأمل المستقبل، وضعوا ما ابتدعوه فيهم مقابل المهدي. فقد أتاحت لهم وسائلهم المتوفرة الحصول على «أخبار» لمساندة شخصية دعواهم السياسية عن طريق المادة الأصيلة. ينظر الأغاني، ج١٢، ص ٨٥، وضحى الإسلام ج٣، ص ٢٣٩. وما يميز تلفيق مثل هذه الأفكار هو توافق ظهور المهدي بعد السفياني، صورته المناقضة، للقضاء عليه وعلى شيعته. عن الانتصار الأسطوري لمهدي العباسيين على السفياني ينظر مختصر تذكرة القرطبي، ص ١٥٩، طبري، ج٩، ص ١٣٨، وضحى الإسلام، ج٣، ص ٢٣٩. وعن انتصار المهدي الشيعي على السفياني من الأفضل أن ينظر بحار، ج١٣، ١٥٠. وفي هذا الكتاب الأخير خلاصة لأفكار الشيعة عن المهدي وفكرة السفياني في مرآة التطور والأمل عند الشيعة. وعن السفياني ينظر شتروتمان، OLZ ١٩٢٤-٢٨.

والصيحة[٦] وهو كذاب مفترٍ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم[٧].»

تدعى سنة ٣٢٩ سنة تناثر النجوم (سقوط الشهب)، ويعتقد الكتاب المسلمون أن السبب في ظهور المذنبات يعود إلى وفاة عدد كبير من الشخصيات والعلماء[٨]. ونجد في دائرة المعارف الإسلامية أن السمري قد توفي سنة ٣٤٤ هـ أو ٩٣٩ م، ولكن التأريخين لا يتلاءمان معا ولا مع الخبر الذى أوردناه آنفا. فسنة الوفاة ٣٢٨ أو ٣٢٩ تطابقان ٩٣٩ أو ٩٤١ م[٩]. وقد ذكر دوايت م. دونالدسون في كتابه، كلمات وأرقاما على حد سواء، أن موت السمري وانتهاء الغيبة الصغرى قد وقعا في سنة ٣٣٩ هـ[١٠] ثم يقول هو نفسه في فصل السفراء الأربعة إن السفير الرابع قد توفي سنة ٣٢٩ هـ[١١].

لم يهتم محمد بن المظفر أبو دُلَف الكاتب[١٢]، والشيعة يسمونه المجنون، بتوقيع السفير الرابع، وإنما راح يدق طبول الدعاية لأبي بكر البغدادي. فقد كان أبو أبي بكر أحمد أخا السفير الثاني ، ومن هنا كان أبو بكر يدعي سرا في حياة السفير الرابع أنه سفير، ولكنه كان ينكر ذلك عندما يسأله الشيعة عن دعواه. عند موت السفير الرابع جاء أبو بكر إلى

---

(٦) الصيحة هي نهاية العالم القديم ومجيء كوارث طبيعية جديدة طاعون وغيره عقابا للقساة من البشر. ينظر بحار ، ج ١٣، ص ١٥٠ وما بعدها.

(٧) ينظر الغيبة، ص ٢٥٧، وبحار، ج١٣، ص ٩٨، كمال الدين، ص ٢٨٤، منهج المقال، ص ٤٠٥؛ مجالس المؤمنين، مادة وكلائي ناحيئي مقدسة. وليس هناك اختلاف بين نسختي الغيبة وبحار !

(٨) روضات الجنات ج٣، ص ٣٧٨

(٩) دائرة المعرف الإسلامي، مادة شيعة.

(١٠) The Shi'te Religion, S. 285.

(١١) نفسه، ص ٢٥٧.

(١٢) منهج المقال، ص ٣٨٧، الغيبة، ٢٦٩ و٢٧١، بحار، ج١٣، ١٥٣.

بغداد، فاتضحت فيها دعواه، حتى إن الشيعة لم يعودوا يقبلون إنكاره، بل أصبحوا يلعنونه ويتبرؤون منه[١٣].

ولم يصلنا شيء حسن عن علاقة أبي بكر مع عمه، السفير الثاني في ماضي الأيام. أراد ذات مرة أن يزور عمه، عندما كان السفير في اجتماع مع رؤساء الطائفة الشيعية. وعند ظهور أبى بكر قطع السفير الجلسة وقال للحضور: «توقفوا ! إن القادم هناك ليس منا» وانتقل الشيعة بأمر السفير إلى الحديث في موضوع آخر[١٤].

ويعود تحمس أبي دلف لأبي بكر إلى أن أبا دلف كان مخمسا مثل الكرخيين واهتدى إلى الدين الصحيح من طريق أبي بكر[١٥]. وقد تسبب تحمس أبي دلف لهاديه في نزاع حاد مع الإثني عشرية، ذلك أن أبا دلف ادعى أن أبا بكر هو السفير الثالث الصحيح، فهو أفضل من هذا الذى تولى المنصب[١٦]. ورغم دعاية خلصاء أبي بكر فإنه لم يجد له أتباعا، وفي النهاية تولى وظيفة عند اليزيدي[١٧] في البصرة بوصفه متصرفا في

---

(١٣) الغيبة، ص ٢٩٠، بحار، ج١٣، ص ١٥٣.

(١٤) الغيبة، ص ٢٧١، وبحار، ج١٣، ص ١٥٣.

(١٥) الغيبة، ص ٢٧١، بحار، ج١٣، ص ١٥٣؛ يؤمن المخمسة بظهور خمسة أشباح لله فوق الأرض: سلمان، وأبو ذر الغفاري، والمقداد، وعمار، وعمر بن أمية، الذين وضعهم الله لتسيير شؤون الأرض، ينظر الغيبة، ص ٢٧١. وفي أخبار أخرى أن الكرخيين كانوا كلهم الشيعة الخمسة، أي علي، وفاطمة، والحسن، ولحسين، ومحمد، هو ظواهر الله الخمسة فوق الأرض. وليس من الضروري أن يكون المقصود بالكرخ هو كرخ بغداد، فقد كان هناك كرخ في البصرة أيضا، وكان سكان كرخ البصرة معروفين بالتطرف. ينظر معجم البلدان، ج٤، ص ٢٥٣. وعن المخمسة، ينظر أيضا الكشي، ص ٢٥٣، منهج المقال، ص ٢٢٥، في ترجمة علي بن أحمد أبي القاسم الكوفي، الذى ينتمي إلى هذا المذهب المتطرف؛ ينظر خنداني النوبختي، ٢٦٣.

(١٦) الغيبة، ص ٢٧١.

(١٧) نفسه؛ اسم اليزيدي أبو عبد الله، جد جده يزيد بن منصور الحميري، ولذلك دعي باسم جده اليزيدي (ينظر ابن الأثير، ج٨، ص ٧٤ و١٠٦)، على أنه يعرف

ثروته. واختلس في منصبه هذا أموالا كثيرة، وعندما سمع بذلك صاحب العمل، ضربه على رأسه، فأصابه العمى من جراء ذلك، ومات أعمى[١٨].

مدافن السفراء الأربعة

نجد في الكتب، التي تتحدث عن الغيبة، أوصافا لأضرحة السفراء. ويعود مصدر هذه الأخبار إلى هبة الله، الذى لم يبعد كثيرا زمنيا عن الغيبة الصغرى وكان من جهة أمه من عقب السفير الثاني. وقد ذكر الطوسي في الغيبة أيضا أنه زار الأضرحة، منذ أن جاء إلى بغداد سنة ٤٠٨ هـ ، ويؤكد الطوسي معلومات أبي نصر هبة الله، التي تتحدث عن ضريح السفير الأول، الذى يوجد في الجانب الغربي من بغداد، أي بجانب الكرخ في شارع الميدان، أي بجانب قبلة ما يسمى بمسجد الدرب. ويقول الطوسي إنه وجد الضريح في غرفة صغيرة مظلمة، لها مدخل عند باب القبلة؛ وبعد سنة٤٣٠ هـ أزال الرئيس أبو منصور محمد بن الفرج حجر الضريح القديم وبنى فوقه ضريحا جديدا؛ ويضيف الطوسي قوله إن الناس يقومون،إلى هذا اليوم الذى أكتب فيه، أي إلى سنة ٤٤٧ هـ، بزيارة الضريح في شكله الجديد، من غير أن يعرفوا من القديس الذى يرقد فيه. ولعل بعضهم كانوا يظنون أن المدفون فيه هو ابن مرضعة الحسين بن علي بن أبي طالب[١٩].

على أن هذه الأوصاف الدقيقة للمكان والشارع، التي تعود إلى ذلك

عادة باسمه الخاص البريدي، لأنه كان في السابق صاحب البريد، ثم عين في وقت متأخر وزيرا. ذهب في سنة ٣٢٣ هـ إلى البصرة وحكم في جنوب العراق والأهواز بوصفه طاغية (ينظر الفخري، ، ص ٢٥٦ وما بعدها، وابن الأثير، ج٨، ص ١٠٦، ١٠٩، ١١٥ وغيرها).

(١٨) الغيبة، ص ٢٧١، وبحار، ج١٣، ص ١٥٣.

(١٩) الغيبة، ص ٢٣٢، وبحار، ج١٣، ص ٩٤.

الزمان لم تستطع أن تحمل شيعة بغداد اليوم على تغيير رأيهم في أن جميع السفراء يثوون في الجانب الشرقي من بغداد ويبدو أن هذا الخطأ قد ظهر في وقت متأخر، ذلك أن أخبار الغيبة الصغرى لم تشر حتى ما بعد الزمن المغولي بشيء إلى الجانب الشرقي على الإطلاق. لعل السبب في هذه الأخطاء وماشابهها يعود إلى الخلط بين أسماء الأشخاص والأماكن، فهناك الكثير ممن يحملون الأسماء المعروفة نفسها. شيء واحد يمكن التأكد منه، وهو أن المزاعم المتصلة بموقع القبور لا تتلاءم مع منزلة السفراء ومع المعلومات المتصلة بالمناطق، التي كان الشيعة يعيشون فيها في ذلك الحين.

في يومنا هذا يوجد أيضا في الجانب الشرقي شارع الميدان؛ ومسجد هذا الشارع الموجود خلف بناية البريد الحالية من جهة وعلى الحد الفاصل بينه وبين سوق الهرج من جهة أخرى، يحتوي فيما يقال على قبر السفير الأول[٢٠]. ولا يطالعنا في طوبوغرافيا بغداد القديمة سوى شارع واحد يدعى شارع الميدان. ويقع هذا الشارع على الجانب الشرقي من بغداد، لأنه يربط منطقة الشمَّاسية بسوق الثلاثاء[٢١]. نحن لا نسمع إذن شيئا عن شارع الميدان في الجانب الغربي ودرب جباليا والمسجد، حيث تقول المصادر إن السفير قد دفن به. على أن علينا أن نأخذ بعين الاعتبار أن الطوبوغرافيات لا تعد جميع شوارع بغداد، وإنما تعد المعروفة منها. وهكذا نجد عند ياقوت بعض الشوارع، التي لا نجد لها ذكرا عند الآخرين، والعكس صحيح. من الممكن إذن أن يكون قد وجد في الجانب الغربي من المدينة شارع صغير يدعى شارع الميدان، وذلك في المنطقة، التي كان الشيعة يعيشون فيها، دون أن يرد لها ذكر في أي مكان. ولعله وقع الخلط بين الشارع، الذى لم تكن له أهمية ولم يعد له وجود في الجانب الغربي من بغداد ، وبين سميه الشارع الموجود في

(٢٠) هبة الدين: رسالة خاصة

(٢١) ياقوت، ج٣، ص ٢٣١؛ المشترك، ص ٢٦٥؛ Le Strange, S. 197

الجانب الشرقي. نحن نرى أنه من المرجح أن تكون معلوماتنا الحالية المتصلة بقبر السفير الأول قائمة على أساس من الخلط بين الشوارع، التي تتطابق أسماؤها. ولذلك فإنه ليس من السهل تماما الوصول في حالة السفير الثاني إلى توضيح هذا الأمر، لأن الأخبار كلها تذكر بوضوح أنه دفن في باب الكوفة، حيث كانت أملاكه، ولأن الطوبوغرافيات كلها تذكر أن باب الكوفة هذا يوجد في الجانب الغربي من بغداد. ولا يمكن التوفيق بين ثوابت من هذا النوع وبين المزاعم الحالية، التي ترى أن القبر يوجد في منطقة رأس ا! ساقية في الجانب الشرقي من المدينة بالقرب من شارع الكيلاني جنوب منطقة باب الشيخ في مسجد كبير يدعى جامع الشيخ الخَلاَّني[٢٢].

وقد ذكر مصطفى جواد في دراسة خاصة عن أخطاء تاريخية من هذا القبيل، أن ذلك القبر الشرقي ليس قبر السفير الثاني، وإنما هو قبر متصوف يدعى عبد العزيز بن جعفر غلام الخَلاَّل[٢٣]. إذن فجامع الخلاني يحمل لقب رجل، لابد أنه كان يشبه لقب المتصوف. والكتب، التي تتحدث عن الغيبة الصغرى بعد هذه الفترة وحتى بعد الزمن المغولي، لا يوجد فيها لقب مثل الخلاني وما أشبه ذلك عند السفير الثاني. وعلى هذا لا بد أن يكون لقب الخلاني بالنسبة إلى السفير الثاني، الذى انتشر بين الشيعة في وقت متأخر، قد ظهر بعد الفترة المغولية.

ذكر أحد شراح الطوسي، على بن موسى، الذى شرح مع شارح آخر، هو فضيل علي، كتب الطوسي ونشرها ١٣٢٤ هـ في أحد الهوامش أن السفير الثاني كان معروفا عند الشيعة بلقب الخلاني، ولكن معلومات علي بن موسى تقوم على مجرد السماع لا غير[٢٤].

وكان للسفير الثالث، الحسين بن روح النوبختي، قبره أيضا مثل

(٢٢) هبة، رسالة خاصة.
(٢٣) لغة العرب، مجلد، السنة ٨، ص ٤٨٩
(٢٤) الغيبة، ص ٢٣٨.

السفراء الآخرين في الجانب الشرقي من المدينة، أي في المنطقة الحالية المعروفة بسوق الغزل بين الدكاكين والمكاتب التجارية في الشورجة[٢٥]. ويروي أبو نصر العالم المذكور والواصف الدقيق لقبور السفراء، ـ معظم الأخبار المعروفة عن السفراء تنسب إليه! ـ أن السفير الثالث مدفون في مقبرة أسرة النوبختي الموروثة. وكانت هذه المقبرة تقع في نفس الشارع، الذى كان به منزل علي بن أحمد النوبختي. وذلك الشارع يؤدي إلى قنطرة الشوك المعروفة[٢٦]. وتمتد القنطرة فوق نهر موسى، وهو قناة تتفرع عن دجلة في الجانب الغربي من بغداد، وكانت توجد في منطقة قنطرة الشوك أسواق كبيرة، خاصة دكاكين بائعي القماش[٢٧]. ووصف قنطرة الشوك المذكور أعلاه ينطبق على الجانب الغربي من المدينة اكثر مما ينطبق على الجانب الشرقي، فقد كان الكرخ وبراثا، وهما الميدانان الرئيسان لشيعة ذلك الحين، يقعان فيه. يجب أن نفترض لأسباب عقلية أن أسرة النوبختي كانت في جانب الكرخ أكثر منها في الجانب الشرقي. من الجائز أن يكون شخص ما يدعى النوبختي قد دفن، بعد اختفاء الأضرحة من جانب الكرخ، في الجانب الشرقي من المدينة وكان ذلك مصدر الخلط.

من المؤسف أن عدم التناسب هذا قد انتقل دون ذكر المصادر من الكتب الشيعية في العصور الوسطى إلى الكتب الأحدث منها، لأن مؤلفي الكتب الأخيرة قد نقلوا ذلك لا على أساس من المعرفة بخرائط بغداد القديمة وأخذ المصادر السابقة بعين الاعتبار وإنما نقلوها كما حلا لهم ذلك حسب ما قرؤوه أو سمعوه في مكان ما، وعندما يستعمل الأجانب مصادر هم هذه باعتبارها مصادر، فإنهم يقعون في الأخطاء نفسها. وإننا

---

(٢٥) خنداني النوبختي، ص ٢٢١، وأحسن الوديعة، ج٢، ص ٢٣٢، وهبة الدين، رسالة خاصة.

(٢٦) الغيبة، ص ٢٥٢.

(٢٧) Le Strange, Bagdad, S. 53, 74 und 79؛ وياقوت، ج٤، ص ١٩١.

لنجد في كتاب خنداني النوبختي ملاحظة، تدل على أن السفير الثالث قد دفن بسوق العطارين في الجانب الشرقي من المدينة، ومصدر ذلك هو «أحسن الوديعة»، الذى احتوى على هذا الخطأ[٢٨]، فعلى المرء أن يأخذ حذره من مثل هذا المصادر، فمجيئها على الأغلب من أولئك المؤرخين، الذين كتبوا بناء على ما سمعوه أو قرؤوه عند معاصريهم، يستوجب ذلك.

كان قبر السفير الرابع يقوم، حسب ما ذكره الطوسي، في شارع يدعى شارع الخليجي، وهذا الشارع يقع فيما قيل في منطقة باب المُحوَّل قرب نهر أبي العَتَّاب[٢٩]. ويجب البحث عن منطقة باب المحول ونهر أبي العتاب، ولم يعد لهما وجود اليوم، بناء على البحوث الطوبوغرافية في الجانب الغربي من المدينة. وحي باب المحول الكبير يحد منطقة الكرخ من جانبها الغربي[٣٠] شمال براثا. وكان نهر أبي العتاب يجرى عبر الكرخ غير بعيد من باب المحول[٣١]، وكان الكرخ وبراثا مركزين رئيسين للشيعة، ومن ثم فلا بد أن يكون القبر موجودا في المنطقة، التي كان الشيعة يتخذون فيها مساكن لهم[٣٢].

يقع القبر، الذى يحمل اليوم اسم السفير الرابع مثل قبور سابقيه في الجانب الشرقي من المدينة غير بعيد من المدرسة المستنصرية، ويوجد

---

(٢٨) خنداني النوبختي، ص ٢٢١، وينظر أيضا أحسن الوديعة، ج٢، ص ٢٣٢.

(٢٩) الغيبة، ص ٢٥٨.

(٣٠) ياقوت، ج١، ص ٤٥١، مناقب بغداد، ص ٢٢٨، و**Le Strange** ص ٦٤، ١٤٦، ١٤٩، ٣١٨، وكذلك خريطة بغداد في ص ٤٦.

(٣١) **Le Strange**، ص ٥٢، ٦١، ٦٢، ٩١.

(٣٢) ياقوت، ج١، ص ٥٣٢. كان يقوم في براثا مسجد كبير، يجتمع فيه الشيعة ويلعنون الخلفاء الثلاثة الأوائل. وعندما سمع الخليفة الراضي بذلك، أصدر أمره إلى الشرطة بتحري الأمر، فهاجمت المسجد، واعتقلت المذنبين وهدمت المسجد، ولم يعد بناؤه إلا بعد فترة ليست بالطويلة، وأصبحت الصلاة تقام فيه حتى سنة ٤٥٠ هـ.

في غرب القبر متجر خان الرماح، وعلى مقربة منه خان إيجغان. عندما يأتي المرء من سوق الهرج، يرى قضبان نوافذ الضريح والكتابة فوقه. أما مدخله فمن جامع القفلانية(٣٣)، الذى يوجد به القبر. ويغلب على ظني أن هذا القبر لأستاذ من مدرسة المستنصرية أو لرجل ما ، إذ من الواضح أنه كان على علاقة بالمدرسة. وليس من المستبعد أن يكون لأحذ الأساتذة أو أحد الخيرين في المدرسة اسم مشابه لاسم سفيرنا، وهو ما أدى إلى هذا الخلط.

الوكلاء

كان التنظيم الشيعي في أيام الغيبة الصغرى كما يلي: كان السفير يتربع القمة في بغداد، وكان له في الأماكن ، التي توجد بها طوائف شيعية، نواب، يطلق عليهم اسم الوكلاء. ومن الصعب في بعض الأحيان الحكم على ما إذا كان النواب أو الوكلاء قد تم تعيينهم من قبل الإمام الحادي عشر أو أن ذلك لم يتم إلا على يد السفير الأول وما إذا كان هؤلاء مستقلين غير مرتبطين في عملهم بالقيادة في بغداد تماما أو لا. نستطيع في حالة من الحالات أن نتيقن أنهم كانوا تحت سلطة السفير في بغداد، وفي حالة أخرى نميل إلى الاعتقاد بأنهم كانوا يعملون بصفة مستقلة ويتقلدون نفس المنصب الذى تقلده السفير. وابن طاووس بشكل خاص لا يسهل لنا إصدار حكم حاسم في هذا الأمر، ذلك أنه يصف بعضاً من هؤلاء الأشخاص بالسفير والباب، ومن ثم لم يكن الشيعة ليشكوا في أمرهم(٣٤)، ولكن ابن طاووس كاتب متأخر. ولذلك لا أعتمد عليه، وإنما أفضل المصادر الأقدم مثل كمال الدين وغيره، الذين يخلعون على هؤلاء الأشخاص لقب الوكيل(٣٥). ولكثرة عددهم لم تصلنا

---

(٣٣) هبة الدين، رسالة خاصة؛ ويسمع كذلك اسم القبلانية.

(٣٤) توفي رضي الدين على بن موسى بن طاووس سنة ٦٦٤ هـ.

(٣٥) كمال الدين، ص ٢٤٦ .

أسماؤهم كلهم، فلا نسمع إلا باسم بعضهم في المناسبات الخاصة عن طريق توقيع عند الاحتفال بمولد الإمام الثاني عشر، حيث رأوه مع والده شهادةً على أنه قد وجد الإمام الثاني عشر فعلا، وفي مناسبات أخرى. ولكننا نسمع أكثر عن الوكلاء في المدن الكبيرة أو المعروفة. فابن بابويه يذكر الوكلاء الآتين بأسماء أمكنة عملهم: البيلاني والعطاردي في بغداد، والعاصمي في الكوفة، ومحمد بن إبراهيم بن صالح في الأهواز، والشامي والأسدي في الري، والقاسم بن العلاء في أذربيجان، ومحمد بن شاذان النعيمي في نيسابور[٣٦]. وتوجد عند الطوسي من الكتاب أسماء وأمكنة أخرى.

وكانت مهمة هؤلاء الوكلاء، مثل الحكام في الحياة السياسية، كحاكم يعمل سرا للعناية بأمور الطائفة، وجمع الخراج للإمام، وكتابة التواقيع.

كان إبراهيم بن مهزيار واحدا من الوكلاء، يدير منطقة الأهواز، ويسميه ابن طاووس حسب مصطلحاته سفيرا[٣٧]. أمر إبراهيم قبل موته أن يحمْل المال الذى جمعه من الشيعة إلى بغداد. وقدم لابنه كلمة سر في طريقه، ليسلم المال في بغداد لمن يذكر له كلمة السر. فانتظر الابن الرجل، الذى ينطق بكلمة السر. وذات يوم دق باب البيت، الذى كان يقيم فيه، وذكر اسمه عندما سئل عنه، ووصف كذلك علامة التعرف، التي قدمها الوالد لابنه. وبعد ذلك سلم الابن المال للغريب، على أنه ندم على ذلك فيما بعد. وعقب ذلك بقليل تلقى توقيعا، عينه الإمام فيه وكيلا على الأهواز خلفا لأبيه. وقد بعثت هذه البشرى البهجة في نفس الابن[٣٨].

---

(٣٦) نفسه.

(٣٧) منتهى المقال، ص ٢٧، منهج المقال، ص ٢٨.

(٣٨) الغيبة، ص ١٨٢ و١٨٣ ومنتهى المقال، ص ٢٧، ومنهج المقال، ٢٧٣.

ولا يذكر الطوسي اسم الغريب المجهول، ولكن الكشي لا يقدمه باسم العمري، ذلك أن اسم العمري الأصلي هو حفص بن عمر العمري، وهو وكيل الإمام المختفي في المنصب، الذى خلفه فيه ابنه أبو جعفر محمد(٣٩). وكانت المدة الكاملة، التي شغلها الأب والابن في المنصب، ٥٠ سنة(٤٠). يمكننا أن نستخلص من وصف الكشي أن الأمر يتعلق بالسفير الأول والثاني. وكتب التراجم لا تترك لنا ما يساعدنا في حسم هذه القضية. ليس من الممكن معرفة ما إذا كان هذان الشخصان مطابقين للسفيرين، أم أن الأمر يتعلق بشخصين آخرين(٤١)، أو أن هناك خطأ في الكتابة، فمثل هذه الأخطاء كثيرة عند الكشي(٤٢). كان محمد بن إبراهيم، الذى روى لنا قصة رحلته إلى بغداد، قد خلف والده في أيام السفير الأول وعاش في أيام السفير الثاني أيضا. ومرة أخرى يسمى ابن طاووس محمد بن إبراهيم سفيرا وليس وكيلا(٤٣). وهناك أخبار كثيرة تقول عن إبراهيم وابنه إنهما رأيا الإمام الثاني عشر.

الوكيل أحمد بن إسحاق

أصل هذا الوكيل من قم، وينتمي إلى أسرة الأشعري الشهيرة، وكان مبعوث مدينة قم برسائل إلى الإمام التاسع، والعاشر، والحادي عشر، ويقول عنه ابن طاووس إنه سفير. وقد ألف إبراهيم بن أحمد كتبا دينية، عرف منها اثنان:

١) كتاب علل الصوم.

٢) مسائل الرجال لأبي الحسن الثالث. ويحتوي الثاني على ما جمعه من كتاب التراجم.

---

(٣٩) الكشي، ص ٣٢٩/ ٣٣٠.
(٤٠) منتهى المقال، ص ١١٦، ومنهج المقال، ص ١٢٠.
(٤١) منتهى المقال، ص ٣٦٥.
(٤٢) منتهى المقال، ص ١١٦.
(٤٣) نفسه، ص ٢٨٤.

ويروى عن أحمد بن إسحاق أنه أراد مرة أن يحج إلى مكة، ولكن بما أنه لم يكن يملك مالا، فقد طلب ١٠٠٠ من الإمام. وفي توقيع يخبره الإمام فيه بأنه يقدم له الألف دينار هدية وأنه سيرسل إليه نفس المبلغ بعد عودته من مكة[٤٤]. أما عن أي طريق أوصل بها طلب السلفة إلى الإمام، وهل تم ذلك مباشرة أو بواسطة السفير، فإن المصادر لا تحدثنا عن ذلك، رغم أهمية الجواب عن هذا السؤال بالنسبة إلينا. لكن الكشي يقول عن هذا الحج إلى مكة أن أحمد كتب لهذا السبب إلى السفير الثالث الحسين بن روح القمي[٤٥]. وأرسل له السفير قميصا، فاعتبره أحمد كفنا له، وبعد عودته مات في حلوان[٤٦]. ولكن خبر موته في حلوان في أيام السفير الثالث لا يتناسب مع القول بأنه مات هناك بعد قيامه بزيارة للإمام الحادي عشر، وذلك يعني أنه لن يعش في أيام السفير الأول والثالث[٤٧].

الوكيل هاجس الوَشَّاء

لا نعرف عن هاجس سوى أنه كان وكيلا في منطقة الري، وهناك من الناس من شكوا في صحة وكالته، وكتبوا عن ذلك إلى الإمام، فأجاب هذا بأن هاجس رجل وفي أمين. وبعد موت هاجس، انتقل المنصب إلى الأسدي. ويذكر كمال الدين اسم هاجس مع الوكلاء، الذين رأوا الإمام المختفي[٤٨]

---

(٤٤) الكشي، ص ٣٤٤.

(٤٥) اسمه عند الكشي الحسين بن روح ولقبه القمي بدل النوبختي، الكشي، ص٣٥٥.

(٤٦) الكشي، ص ٣٤٤.

(٤٧) منهج المقال، ص ٣١ و٣٢، ومنتهى المقال، ص ٣٠٠ و٣٠١.

(٤٨) كمال الدين، ص ٢٤٦، منتهى المقال، ص ٨٤، منهج المقال، ص ٨٩، الغيبة للطوسي، ص ٢٧٢.

الوكيل الحسن بن النضر

لا نملك عنه أيضا سوى أخبار قليلة، ولا يسميه كمال الدين وكيلا، وإنما هو عنده من الشيعة الأتقياء، الذين رأوا الإمام ، ويوصف في كتب أخرى بأنه وكيل[٤٩].

الوكيل داود بن القاسم بن إسحاق الجعفري أبو هاشم

ينتمي إلى رؤساء الشيعة في بغداد، وكان الخليفة والحاشية يقدرونه كثيرا، ويقدره الأئمة بشكل خاص ابتداء من الإمام التاسع. وفي سنة ٢٥٢ هـ طرد أبو هاشم إلى سامراء، لأن الحكومة اتهمته بمراسلة ثوار الشيعة في الكوفة ومساعدتهم[٥٠] . وكان شاعرا أيضا، ويصفه ابن طاووس بأنه وكيل[٥١] .

الوكيل الشامي

كان وكيلا في الري[٥٢].

الوكيل العطاردي

كان وكيلا في بغداد[٥٣].

الوكيل العاصمي أو العصيني

كان ميدان وظيفته الكوفة[٥٤].

---

(٤٩) منتهى المقال، ص ١٠٥، كمال الدين، ٢٤٦ ومنهج المقال ص ١٠٩.
(٥٠) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص ٦١.
(٥١) منتهى المقال، ص ١٣٠، ومنهج المقال، ص ١٣٦، الأصول المهمة، ص ١٩١.
(٥٢) كمال الدين، ص ٢٤٦، ومنتهى المقال، ص ٣٦٢.
(٥٣) كمال الدين ، ص ٢٤٦،
(٥٤) نفسه.

الوكيل القاسم بن العلاء

كان يدري أذربيجان وعاش ١١٧ سنة، كان قضى منها ٣٥ سنة أعمى. يقال إنه استعاد بصره بكرامة من الإمام ستة أيام قبل موته، وكانت له مراسلات مع السفير الثاني والثالث، ومات في أيام السفير الثالث[٥٥].

أبو الحسين محمد بن جعفر الأسدي

كان أبو الحسين محمد بن جعفر الأسدي واحدا من أشهر الوكلاء ومن الرجال، الذين تراسلوا مع الإمام المختفي[٥٦]. وبعض الكتاب لا يسمون الأسدي وكيلا ورجلا مشهورا فقط، وإنما يسمونه الباب نفسه[٥٧]، ولكن الطوسي وصفه بأنه متعهد المؤمنين وقال إن توقيعا جاءه من الإمام المختفي، حتى إنه كانت له كرامات. فقد جمع رجل يدعى محمد بن شاذان ٤٨٠ درهما للإمام وأراد أن يذهب إلى الأسدي، ليرسلها هذا إلى الإمام . على أن محمد بن شاذان لم يجد من اللائق أن يكون المبلغ الذي قد جمعه لم يزد عن ٤٨٠ درهما، فأضاف ٢٠ درهما من جيبه الخاص ليكون المبلغ ٥٠٠ درهم. ومع أنه لم يخبر الأسدي بذلك، فقد كتب له في الوصل أن ابن شاذان نفسه قد أضاف ٢٠ درهما إلى ٤٨٠ درهما[٥٨] وأن ٢٠ درهما كانت له. وبعد موت هاجس الوشاء انضمت منطقته في الري إلى منطقة الأسدي، كما يتضح من خبر نقله محمد بن الحسن الكاتب[٥٩].

ولسنا ندري متى تولى الأسدي منصب الوكيل، فالخبر المذكور آنفا لا يحتوى على رقم السنة، على أننا نملك ملاحظة، وهي أن شخصا ما

---

(٥٥) منتهى المقال، ص ٢٤٥، ومنهج المقال، ص ٣٠٠.

(٥٦) منهج المقال، ص ٢٨٨.

(٥٧) نسه.

(٥٨) الغيبة، ص ٢٧٣.

(٥٩) نفسه، ص ٢٧٢.

أراد سنة ٢٩٠ هـ أن يحمل مبلغا ماليا إلى الإمام ولم يكن يعرف أين يضع المال. فكتب هذا الرجل إلى الإقامة المقدسة وتلقى جوابا مؤداه أن عليه أن يحمل المال إلى محمد بن جعفر العربي في الري، لأن هذا الرجل وكيل عن الإمام[٦٠]. وهناك أيضا توقيعات مشابهة، يظهر فيها الإمام ثقته في الأسدي.

نحن نعرف أن منطقة منصب الأسدي كانت الري، وقد بقي في منصبه حتى سنة ٣١٢ هـ، أي إلى زمن السفير الثالث، الذى مات فيه[٦١].

والأسدي معروف في كتبه أيضا بالعربي، وقد دعي بالأسدي، لأنه من قبيلة بني أسد. أما عن علاقته بالسفير الثالث وعما إذا كان هذا قد ولاه منصبه أو كان في نفس المنزلة معه، فإن المصادر لا تحدثنا عن ذلك.

وقد كان بعض الكتاب، كما ذكرنا أعلاه يسمون الأسدي نفسه بابا، ويصفه الطوسي بأنه رجل تلقى توقيعات من الإمام عن طريق السفراء، على أن الطوسي لا يذكر أبدا، عندما يقدم التوقيعات، الطرق، التي وصلت بها إلى الأسدي. ونستخلص مما يقوله الطوسي أحيانا أن الأسدي نفسه كان يقدم توقيعات، كما تعود السفراء أن يفعلوا ذلك تماما[٦٢].

ونعرف من الكتب، التي ألفها الأسدي «كتاب الرد على أهل الاستطاعة». ويحتوي، كما يتضح من العنوان، على الرد على الذين يؤمنون بحرية الإرادة. والمعروف أن الذين يؤمنون بحرية الإرادة هم المعتزلة، وعنهم أخذ الشيعة هذا الاعتقاد. ومن الغريب أن يكتب

---

(٦٠) الغيبة، ص ٢٧٢.
(٦١) نفسه، ٢٧٣.
(٦٢) نفسه، ٢٧٣.

الأسدي، وهو نفسه شيعي، هذا الكتاب ضد أغلبية إخوانه في الدين، خصوصا وأنه كان بابا أو وكيلا للإمام. كيف يمكننا إزالة هذا التناقض؟كما كان الأمر مع ابن الجنيد في مسألة القياس، كذلك وجد هنا أيضا كاتب، جعل من نفسه مدافعا عن الأسدي. فالذي يبدو أن الأسدي لم يكن يدعو إلى فكرة الجبر، وإنما ذكر خبرا روي على هذا المنوال ، ففي القرآن أيضا آيات تدعو ظاهريا إلى الجبر. ولعل الأسدي كان يؤمن بأن للبشر منزلة بين منزلتين الجبر والاختيار. ولو كان الأسدي قد آمن بالجبر، فإنه ما كان ليصبح وكيلا، لأن مثل هذا الاعتقاد يتناقض مع المذهب الشيعي أو كان الإمام قد اعترض على الأقل على الأسدي[٦٣].

نستنتج من هذه الفقرة أن الشيعة في زمن الغيبة الصغرى لم يكونوا يؤمنون لا بحرية الإرادة عند المعتزلة ولا بنقيض ذلك. هناك مأثور للإمام جعفر الصادق يقول فيه: «لا الاختيار ولا الجبر، وإنما منزلة بين المنزلتين»[٦٤].

وإننا لنجد بين الشيعة، رغم هذا الحديث، من يؤمن بالجبر[٦٥]. ومن الصعب في هذه الحالة إصدار حكم ، إلا أن هناك شيئا واحدا يمكن التأكيد عليه، وهو أن «الاختيار الوسط» قد أصبح عند الشيعة بعد انتهاء الغيبة الصغرى، أي في نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع للهجرة، عقيدة ثابتة[٦٦]. وهكذا يتم الاستغناء عن الدفاع المذكور عن الأسدي (بوصفه شيعيا قويم العقيدة).

---

(٦٣) منهج المقال، ص ٢٨٨.
(٦٤) الكافي، ص ٥٥، الشهرستاني، ص ١٢٥ ومجمع البحرين، ص ٣٧٢.
(٦٥) مثل هارون بن مسلم بن سعدان الكاتب (ينظر منهج المقال، ص ٣٥٨ و٢٨٩؛ ثم ص ٤٧ : توجد هنا انحرافات كثيرة في تعاليم أحمد بن نوح عن المذهب الشيعي.)
(٦٦) مختصر ترجمة التحفة الإثني عشرية، ص ٥٨ ومنهاج السنة، ص ١٦.

الوكيل محمد بن شاذان

يذكره ابن طاووس بين الوكلاء، الذين رأوا الإمام، وكان مكان وظيفة بن شاذان منطقة نيسابور(٦٧).

الوكيل محمد بن صالح بن محمد الهمذاني الدهقان

كانت منطقة عمله همذان، ويعتبر أيضا من أولئك الذين رأوا الإمام، وكان قد أخذ منصبه عن والده. وعندما مات والده، كانت له ديون على المؤمنين. ولما اختار الابن في هذا الأمر، راسل الإمام المختفي، وتلقى جوابا مؤداه أن عليه أن ينذر الدائنين وأن يجمع الأموال بنفسه. ودفع جميع الناس ديونهم إلا واحدا منهم، رفض في إصرار أن يقوم بواجبه ويسدد ما عليه من ديون. فزار ابن صالح الرجل العنيد وطلب منه أن يدفع ما عليه. وتخاصم الاثنان، فضرب ابن صالح المدين، واجتمع الناس حول المتخاصمين على إثر صراخ المدين. ولما كان المجتمعون كلهم من أهل السنة، فقد صاح ابن صالح قائلا إنه غريب وأن خصمه عيره بأنه رافضي، لأنه لا يريد أن يدفع ما له عليه من دين. وعندما سمع الناس هذا، أرغموا الرجل على تقديم المال لابن صالح، لأنه سني(٦٨).

الوكيل محمد بن علي بن بلال

كان من الخلصاء الحميمين للإمام الحادي عشر، ويسميه ابن طاووس سفيرا، ولكن الطوسي يعتقد شيئا آخر ويعده من الملعونين. والسبب في ذلك فيما يقول الطوسي أن ابن بلال جمع مالا كثيرا للإمام واحتفظ به لنفسه. وعندما سأله السفير الثاني عن ذلك، أجابه بأنه هو نفسه سفير وأنه لن يسلم المال، وعندئذ لعنه جميع الشيعة وتبرؤوا

---

(٦٧) منتهى المقال، ص ٢٧٧، كمال الدين، ص ٢٤٦، ومنهج المقال، ص ٣٠٠.
(٦٨) منهج المقال، ص ٣٠٠، ومنتهى المقال، ص ٢٧٧.

منه[٦٩]، كان مكان وظيفته في بغداد، ويعد في كتاب كمال الدين من الوكلاء[٧٠].

الوكيل محمد بن علي بن مهزيار

يعده ابن طاووس من السفراء، ونعرف من أحد التوقيعات أن ابن مهزيار كان في بدايته يشك قليلا في الأئمة، ولكنه تحسن فيما بعد[٧١].

الوكيل حفص بن عمر

كان مقر وظيفته في بغداد، وقد تحدثنا عنه في الفصل الخاص بالوكيل إبراهيم بن مهزيار.

الوكيل أبو جعفر محمد بن حفص

كنا قد تحدثنا عنه في الفصل الذى قدمناه عن أبيه حفص.

---

(٦٩) الغيبة، ص ٢٦٠، ومنهج المقال ص ٣٠٦ ، ومنتهى المقال، ص ٣٧٢ و٢٨٢.

(٧٠) كمال الدين، ص ٢٤٦.

(٧١) منتهى المقال، ص ٢٨٤. ومنهج المقال، ص ٣١١.

الفصل العاشر

الغيبة الكبرى

ختمت رسالة السفير الرابع إلى طائفته الغيبة الصغرى وأنهت زمن الوساطة بين الإمام وأتباعه، على أن السؤال عما إذا لم يعد من الممكن بعد رؤية الإمام أم أن الأمر لا يتعلق إلا بانتهاء الوساطة. يعتقد الشيعة أن الله لا يمكن أن يترك البشر بدون إمام، لأنهم في حاجة إلى نصيحته ومساعدته. ما فائدة إمام يعيش مختفيا من غير أن يراه أحد ولا يتمكن الناس من الوصول إليه؟ كان الشريف المرتضى وغيره قد حاولوا في بداية الغيبة الكبرى الجواب عن هذا السؤال. أما في الطائفة نفسها، فقد أصبح المشكل يتمثل في الموقف، الذى يتخذه الشيعي من مؤلفات كتاب الشيعة في ذلك العصر، مثل ابن بابويه الشيخ الصدوق في كتابيه كمال الدين وتاريخ الغيبة في المقدمة. كان المرتضى يرى أن الإمام لم يختف تماما وأنه ليس من المستحيل أن يظهر لبعض أتباعه، ويمثل هذا الرأي نفسه أيضا الطوسي، تلميذ المرتضى[1].

وقد سمعنا عن لقاءات عديدة تمت بين العلماء والإمام المختفي وعن توقيعات جرت في زمن السفير الرابع، مثل التوقيعات، التي تركها لنا المفيد. ولذلك حاول العلماء التوفيق بين التوقيعات المتأخرة وبين رسالة السفير الرابع الأخيرة. فتلك الوثيقة خبر وحيد مرسل، وخبر وحيد

(١) ينظر الغيبة، ص ٧٣ ومواضع مختلفة، وكذلك بحار، ج١٣، س ٢٨٦.

من هذا النوع لا يمكن أن يقوم إلى جانب الأخبار الأخرى، التي احتفظ بها علماء الشيعة. ويستنتج العلماء أن أخبار وقصص الغيبة الكبرى قد تضمنت تنبؤات عظيمة بحيث لا يمكن إلا أن تكون شهادة إمام. وقد اعتبروا توقيع السفير الرابع ضعيفا مقارنة بمثل هذه الأخبار، بل ينبغي أن تعتبر بمثابة إجراء وقائي حتى لا يتطلع أحد إلى منصب السفير[٢].

ونقرأ في مصدر آخر أنه قد وجد سفير أيضا في الغيبة الكبرى، وكان يؤدي نفس الوظيفة، ويتقلد نفس المنصب مثل سفراء الغيبة الصغرى الأربعة: هو أبو الفرج المظفر بن علي بن الحسين الهمذاني، عاش في زمن المفيد، والمرتضى، والطوسي، ودرس على المفيد، لكن الطوسي لا يذكره في كتاب الغيبة بوصفه سفيرا.

وقد كتب «السفير» أبو الفرج، زيادة على كتبه الأخرى، كتابا يتناول فيه الغيبة الصغرى. وبغض النظر عن هذه الحالة، التي نسمع فيها بوجود سفير مزعوم في الغيبة الكبرى، لم نسمع شيئا عن محاولات من هذا النوع[٣].

كنا قد ألمحنا إلى أن هناك حكايات وظواهر عديدة تتصل بالإمام في الغيبة الكبرى. فكيف يستطيع المرء أن يكون له نصيب في هذه النعمة، وكيف يحق لكل إنسان أن يرى الإمام ويتحدث معه؟ كثير من أشكال الدعوات والنذور كانت غير معروفة قبل الغيبة الكبرى، ولكنها ظهرت الآن ونسبت إلى الإمام المختفي، الذى أنعم عليهم في الحلم أو علمهم في حالة اليقظة. ولنذكر الدعاء المصري[٤] والأدعية، التي وصلتنا من التقي رضي الدين محمد بن محمد بن الآوي[٥] ومن كثير غيره.

---

(٢) جنة المأوى، ملحق ببحار الأنوار، ج١٣، ٣٨٥.

(٣) أسماء مشايخ الشيعة ومصنفيهم، ملحق ببحار الأنوار، ج ٢٥، ص ١٠و تذكرة المتبحرين، ملحق بمنهج المقال، ص ٥١٠.

(٤) جنة المأوى، ص ٢٨٦.

(٥) نفسه، ص ٢٧١.

الجواب عن السؤال ، الذى طرحناه سابقا هو: لا يستطيع كل إنسان أن يرى الإمام، وإنما يراه من يخضع لتمارين على دعوات وتقشفات معينة. ومن أجل الإرشادات إلى ذلك تم وضع تعاليم وأشكال تفصيلية بكل أجزائها في كتاب يشبه الكتاب التعليمي. وعندما يفي المرء بجميع الشروط، يحق له أن يأمل في ظهور الإمام له ومساعدته(٦). علينا أن نتذكر أن مثل هذه العلاقة مع الإمام في غاية الأهمية، ولذلك فإنه من الخطورة بمكان تكون مجرد خدعة.

بعد انتهاء وساطة السفراء، حين لم يعد هناك إمام يرى ولا نائب فوق الأرض، تولى العلماء قيادة الطائفة الشيعية. ولم يصلنا حديث عن أسباب إنهاء السفير الرابع للسفارة، وينبغي أن تبقى هذه الأسباب على الدوام غير معروفة بالنسبة إلينا، لأن السفير كان دائما يحيل على توقيع الإمام والأمر المتضمن فيه، حتى ولو كان الرؤساء المعروفون قد تجرؤوا على توجيه السؤال إليه عن ذلك. غير أن الأسباب الغامضة لقرار السفير يمكن أن تنسب، إذا ما نحن تأملنا القضية بصورة واقعية دون أن نأخذ علاقة ذلك بالإمام المختفي بعين الاعتبار، إلى وضع خارجي صعب، فضل السفراء والشيعة فيه أن يتخلوا عن مبدأ السفارة.

لقد قصر العلماء، الذين أخذوا الآن على عاتقهم قيادة مصائر الشيعة الإثني عشرية، نشاطهم في بداية الغيبة الكبرى على مسائل الشرع وعلم الكلام من غير أن يتدخلوا في الشؤون السياسية. فكما كان السفراء من قبلهم، وكذلك الأئمة، لم يسببوا مشاكل للحكام الدنيويين، من البويهيين مثلا، ولم نسمع عن أي ثورة لهم.

ونستمد من كتب التراجم أن الطائفة الشيعية لم يقدها كما كان الأمر

---

(٦) نفسه، ص ٢٨٧ وما بعدها. تتحدث كتب التراجم عن حالات عديدة في الغيبة الكبرى، يروي الناس فيها أقوال الإمام، التي سمعوها منه حسب دعواهم بأنفسهم (ينظر روضات الجنات، ج٣، ص ٢٥٨، قصص العلماء، ص ٣٢/ ٣٣، منتهى المقال، ص ٣٠١، الاحتجاج، ص ٢٨٨ وغير ذلك !)

في زمن الأئمة والسفراء في بداية الغيبة الكبرى سوى رجل واحد، وهو المسمى «بالمجتهد»، وهذا هو اسم العالم عند الأصوليين. وهكذا تعاقب الواحد منهم بعد الآخر، وإن لم يكن ذلك بشكل مباشر، ابن بابويه الصدوق (توفي سنة ٣٨١ هـ)، والمفيد (توفي سنة ٤١٣ هـ)، وتلميذه المرتضى (توفي سنة ٤٣٦ هـ)، وبعده الشيخ الطوسي (توفي سنة ٤٦٠)؛ وبعد كان هناك استراحة، كان الشيعة خلالها قد اضطهدوا فيها حتى عهد المغول، الذى استعاد فيه الشيعة الحكم.

افتتح فترة حكم العلماء الجديدة في العصر المغولي خاجه الطوسبي، ثم تبعه ابن طاووس[٧] وبعده العلامة الحلي. وبعد الحلي تم توزيع الحكم على عدد من الأشخاص. وهذا لا يعني أنه لم يكن هناك قبل ذلك علماء إلى جانب تلك الشخصيات الكبيرة، بل إن المجتهد كان يعتبر خلال الأزمنة السابقة هو الرئيس القائد العظيم للعلماء. أما الآن فقد تغيرت هذه العلاقة، فأخذ الجميع يطمحون إلى الحكم بدل أن تكون لهم قيادة موحدة. جميع العلماء المذكورين كان لهم في عيون إخوانهم في الدين الحق في تكوين دولة، ولم تكن طاعتهم للحكام الحقيقيين إلا تقيةً مثلما كان الأئمة أنفسهم يفعلون في عصرهم[٨]. لكن العلماء بدؤوا الآن شيئا فشيئا يشتغلون بالسياسة بشكل أقوى ، لأن المذهب الشيعي أصبح دين الدولة في إيران، خصوصا في منعرج القرن ١٩ إلى القرن ٢٠ م، حين ضعفت قوة الملك في بلاد فارس، ازدهر نفوذ العلماء كما لم يكن قبل ذلك أبدا، فلم يألوا جهدا في المطالبة بالحياة النيابية. فكان خاجه مرزا حسين بن حاج مرزا خليل طهراني، عبد الله المازندراني، ومحمد كاظم الخراساني حاملي هذه الفكرة الرئيسين. على أن هذه الحركة

---

(٧) هناك علماء مختلفون بنفس الاسم من الأسرة نفسها. رضي الدين بن طاووس (ينظر شترومان، الشيعة الاثنا عشرية) جما الدين أحمد بن طاووس (توفي سنة ٦٧٣ هـ) هم أشهر أفراد هذه الأسرة.

(٨) آثار الشيعة، ص ١٠٦.

وجدت خصما لها في شخص سيد كاظم اليزدي، الذى أوضح أن الحياة البرلمانية ليست من الشيعة في شيء، وقصر السلطة في الدولة على العلماء وحدهم(٩).

ليس من السهل أن يتبين المرء طريقه في هذه الفوضى، التي يسودها المجتهدون في الوقت نفسه، فكل مجاهد طالب بأن يكون الحق له وحده في الحكم فتمزقت الطائفة بذلك. وتبدو القضية على شيء من الشناعة، خصوصا عندما يتصور المرء أن هناك مجتهدين يحاربون بعضهم بعضا في المدن المقدسة مثل النجف أو قم أو كربلاء. قد يكون من الأفضل أن يقارن هذا الزمن في بنيته ومظاهره بذلك الزمن، الذى كان قبل الغيبة الصغرى، أي حين كان الأئمة لا يزالون يحكمون فوق الأرض.

وعلى العموم فإن اتجاه العلماء إلى السياسة قد ألحق بالشعب ضررا كبيرا. أما عندما كانت سلطة الملك ضعيفة، فقد قسّمت القوات الأجنبية بلاد فارس إلى مناطق نفوذ خاصة بمصالحها، فإن العلماء كانوا يضعون يدهم في يد الشعب ويتصدون للتدخل الأجنبي(١٠). كان ناصر الدين شاه، ملك بلاد فارس في ذلك الحين، قد باع سنة ١٣٠٧ هـ احتكار التبغ في البلاد كلها لشركة إنجليزية، وعندها وقف العالم محمد حسن شيرازي ضد إرادة الملك وأصدر فتوى منع بموجبها التدخين على أي مسلم. وفي النهاية لم يستطع الشاه نفسه التدخين، لأن التبغ لم يقدم له في القصر، فتم إلغاء الاحتكار في سنة ١٣٠٩ هـ. وكذلك أصدر سيد محمد مجاهد فتوى، دعا فيها إلى محاربة الروس(١١). وقد قدم المجتهدون أيضا خدمات جليلة، ساهموا بها في استقلال العراق(١٢).

لا حظ شتروتمان في دائرة المعارف الإسلامية أنه ليس هناك فرق

---

(٩) نفسه، ص ١٠٧.

(١٠) سير جان ملحم .Sir Jan Malham, Bd. II, p. 218, 242

(١١) ينظر عنه آثار الشيعة الإسماعيلية، ج٤، ص ١٠٧.

(١٢) عن مشاركة العلماء في الثورة العراقية ينظر تاريخ القضية العراقية!

بين المجتهد عند الشيعة والمفتي عند أهل السنة[١٣]، وهذه الملاحظة صائبة إلى حد ما. ليس من السهل إدراك الفرق بين المفتي عند أهل السنة والمجتهد عند أهل الشيعة. طبعا من اليسير التفريق بين الاثنين من حيث الموقف الخارجي، ولكن الأصعب هو معرفة الاختلاف بينهما من حيث الجوهر. فالمجتهد هو ذلك الرجل، التي يمتلك علما واسعا فائقا، ويستطيع أن يصدر حكما في جميع ميادين العلوم الفقهية (القرآن، والحديث، والشرع، والتراجم)، ويضع علمه كله في خدمة هذه الواجبات، بحيث يكون في مقدوره الإجابة عن كل الأسئلة على وجه اليقين[١٤]. مثل هذا المجاهد يطلق عليه مصطلح مجتهد مطلق. أما عند أهل السنة فإن هذه المرتبة لم تكن في التاريخ كله إلا من حق الأشخاص الأربعة المعروفين، الذين أسسوا مدارس (مذاهب) خاصة[١٥]. كان يعلم في هذه المدارس رجال، حاولوا أن يحلوا حسب مبادئ أساتذتهم تلك المشاكل، التي ترك مؤسسو المذاهب العلمية معالجتها. وكان يحق لهم بشكل محدود أن يبحثوا مباشرة مثل أساتذتهم عن أدلة فتواهم في الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس، ومثل هذا الرجل يدعى مجتهد المذهب، مثل أبي يوسف[١٦] (١١٣ ـ ١٨١ هـ) وأبي محمد[١٧] (توفي ٢٨٩ هـ) من مدرسة أبي حنيفة[١٧] (٨٠ ـ ١٥٠)، والمازني[١٨] (توفي

---

(١٣) دائرة المعارف الإسلامية، مادة الشيعة.

(١٤) ينظر ابن دحلان، كيفية المناظرة، ص ٣٣ و٤٢ !

(١٥) ينظر عن حياته الفهرست، ج١، ص ٢٠٣؛ ابن خلكان، طبعة فوستنفيلد، رقم ٨٣٤، أحمد تيمور، نظرة تاريخية، ص ٩، ودائرة المعارف الإسلامية، مادة أبو يوسف.

(١٦) محمد أبو الحسن الشيباني، ينظر عنه الفهرست، ٢٠٣؛ النووي، تهذيب الأسماء، ص١٠٣؛ ابن خلكان، ج١، ٥٧٤، ثم الذهبي، ميزان الاعتدال، ج٣، ص٤٢.

(١٧) ينظر عن أبي حنيفة دائرة المعارف الإسلامية.

(١٨) ينظر عن المُزني الفهرست، ص ٢١٢؛ طبقات الشافعية، ج١، ص ٢٣٩ وما بعدها؛ وابن دحلان، ص ٤٢.

سنة ٢٦٤ هـ) والربيع[١٩] (توفي ٢٧٠ هـ) في مدرسة الشافعي[٢٠] (١٥٠ ـ ٢٠٤ هـ). وهناك مجتهد ثالث وهو مجتهد الفتوى أو ما يسمى اليوم «المفتي». فالمفتي مجتهد أيضا، ولكن ميدان اختصاصه قليل الأهمية: إذا ما طرح عليه سؤال، فإنه يعود أولا إلى ما قالته المدارس عن ذلك، ويختار بناء على قناعته ما يتلاءم مع الحالة الخاصة. ولا يجوز له أن يأخذ ما يتصل بحكمه من المصادر الأربعة مباشرة، فهذا حق خاص بالنوعين الآخرين من المجتهد. وهكذا حددت بكل هذه الدقة صلاحيات المفتي عند السنة[٢١]. وللمجتهد عند الشيعة في واقع الأمر نفس المنزلة، التي هي للمجتهدين الأربعة عند أهل السنة. فلا يزال له حتى اليوم الحق في أن يأخذ رأيه من الكتب الشرعية الأربعة أو الخمسة[٢٢] لمساندة وجهة نظره. من الواجب على المجتهد الشيعي طبعا أن يستدل بالمصادر، وإلا كان هو نفسه صاحب الدين. والمجتهد المطلق عند السنة خاضع لنفس الشروط. والمرتبة عند الشيعة، التي تطابق المفتي عند السنة، هو مسألة غوش... في العراق وإيران، أي الرجل، الذى يختار من فتوى المجتهد، ويقدمها لمن يطلب الحق ويقدم فتوى في الوقت نفسه[٢٣]. ولدينا أمثلة تظهر لنا أن مجتهدي الشيعة يحتلون نفس المرتبة التي يحتلها المجهدون المطلقون عند الأهل السنة وأن بعض فتاوى الشيعة يعترف بها السنيون أيضا. وتوضح الحالات لنا في الوقت نفسه مدى استقلالية الشيعيين مقارنة بالمفتي السني. فلنأخذ مثلا مسألة نجاسة المسيحي أو اليهودي أو أي كافر آخر بمثابة ميزة للشيعة! قبل الغيبة الصغرى وخلال

---

(١٩) الفهرست، ص ٢١٠ وما بعدها؛ طبقات الشافعية، ج١، ص ٢٥٩، النووي، ص ٢٤٣.

(٢٠) ينظر عنه دائرة المعرف الإسلامية، مادة الشافعي.

(٢١) كاشف الغطاء، رسالة خاصة

(٢٢) نفسه.

(٢٣) نفسه.

هذه الفترة لم تكن هذه العلامة موجودة. لكان العماني وابن الجنيد، فيما يروى لنا، كانا يدافعان عن نظافة غير المسلم. والأول، الذى قال عن المسيحيين واليهود إنهم نجسون هو الشريف المرتضى، ولم يغير حكمه أبدا. فأخذه الشيعة عنه وتطور وأصبح علامة على الموقف الشيعي من الحياة، وقد اهتم إغناس غولدتسيهر بهذه المسألة. وهو يرى أن هذا الموقف الشيعي من غير المسلمين إنما هو نتيجة لعدم تسامح الفرس في الأشياء الدينية[٢٤]. ولكن عندما نبحث هذه المسألة بناء على المصادر الأصلية، فإننا نقتنع بأن الحكم الشيعي قد نتج أولا عن دوائر العلماء العرب أو هو ثانيا بدافع الحذر من شاربي الخمر وآكلي لحوم الخنزير أو حسب رأي المسلمين في المسيحيين، الذين يقومون بأعمال نجسة. وهذا الخوف، الذى يكمن سببه الأصلي في خوف الكفار من ملامسة الأشياء غير النظيفة، قد نما على مهل حتى أصبح يرى الكفار غير نظيفين[٢٥]، وكدليل على هذا يمكن الإشارة إلى رأي المفيد، أستاذ المرتضى، الذى كان عربيا قحا. كان المفيد يرى أن على الكافر أن يغسل يديه قبل تناول الطعام مع المؤمن، وذلك ليبعد ما يمكن أن يكون قد اتسخ بواسطة الأشياء غير النظيفة[٢٦]. وفي النهاية نقل مفهوم النجاسة من الكافر وعمم على المحتقرين لعلي وآل بيته، بل حتى على الأبناء غير الشرعيين حتى وإن كان من أهل الشيعة. وأحب أن أؤكد أن المرتضى والأكثر حدة وحزما محمد بن أحمد بن إدريس (توفي ٥٩٨ هـ[٢٧]) كانا من العرب الخلص.

هناك مثل آخر تقدمه لنا مسألة صلاة الجمعة. كان العالم أبو يعلي

(٢٤) محاضرات عن الإسلام، ط ٢، ص ٢٢٣٤ وما بعدها؛ توجد فرضيته الفارسية في صفحة ٢٣٧.

(٢٥) كاشف الغطاء، رسالة خاصة بتاريخ ٢٢ رمضان ١٣٥٥ هـ.

(٢٦) مفتاح الكرامة، ج٢، ص ١٤٢.

(٢٧) روضات الجنات، ج٣، ص ٤٠٢.

حمزة بن عبد العزيز (توفي سنة ٤٦٣ هـ) المعروف باسم سلار الديلمي أول من ذهب إلى أن صلاة الجمعة يجب أن تسقط في أيام الغيبة الكبرى، لأن هذه كان قد فرضها إمام أو نائب، لم يعد له اليوم وجود، ولذلك يجب أن تمنع صلاة الجمعة[٢٨]. ودعا في الوقت نفسه عالم آخر، هو الكراجاكي أبو الفتح بن محمد بن علي إلى الاحتفاظ بصلاة الجمعة[٢٩]. ويمكننا من هذه الأمثلة القليلة وعن طريق الدراسة الدقيقة للأعمال، التي تركها العلماء والمجتهدون ولم يكشف عنها ـ للأسف ـ العلم حتى الآن، أن نعرف الفرق الخفي العميق بين المجتهد والمفتي.

تكملةً للصورة، التي رسمتها للمجتهد، أحب أن أضيف إلى ذلك ما يلي: على المجتهدين جميعا أن يسجلوا وجهات نظرهم كتابة في رسالة. لكن هذه الدراسة لم تكن بالنسبة إلى أولئك، الذين يريدون أن يتخذوها قدوة لهم، ملزمة إلا في حياة المؤلف ويمكن على أقصى حد أن يكون لها ترخيص عن طريق من يخلف المجتهد المقصود[٣٠].

---

(٢٨) روضات الجنات، ج٢، ص ٢٠١؛ سلار الديلمي فقيه كبير، درس على المرتضى والمفيد وعمل وكيلا للمرتضى في منطقة حلب، وقد توفي سنة ٤٦٣ أو ٤٤٨هـ.

(٢٩) درس الكراجاكي على المرتضى أيضا وعلى الطوسي زيادة على ذلك، وكثيرا ما يتردد اسمه في مجال الفقه والحديث. توفي سنة ٤٤٩ هـ. ينظر عنه روضات الجنات، ج٣، ص ٥٧٩ ! عن صلاة الجمعة عموما ينظر مفتاح الكرامة، ج٢، ٦١ ! هنا يجد المرء الآراء المختلفة للعلماء حول منع صلاة الجمعة أو المحافظة عليها. هناك على العموم حكم مسبق بان الشيعة قد تركوا صلاة الجمعة، ولكن هذه الفرضية ليست صحيحة. لهذه لا تسقط عند الأخباريين، ولم يتفق الأصوليون على رفض صلاة الجمعة مطلقا. فقد طرحت المسألة، خصوصا أيام الحكم الشيعي في إيران، وذلك لأن الشيعة أصبحت لهم دولة والصلوات تقوي من سلطة الحكومة. ينظر روضات الجنات، ج١، ص ١١٤، ج٢، ص ١٩٣، ٣٠٣ وغيرها؛ ثم مجلة المرشد، سنة ١، عدد ٤، ص ١١٩.

(٣٠) روضات الجنات، ج١، ص ٣٦؛ ينظر كاشف الغطاء، سؤال وجواب، ص ٣، ففيه معلومات خاصة.

التوقيعات

يكتب الطوسي في كتابه عن الغيبة وابن بابويه في كتابه كمال (أو إكمال) الدين عن التوقيعات وينقلون منها. كنا قد ذكرنا في فصلنا عن المصادر أن ابن بابويه وقبل الحميري قد جمعوا التوقيعات. ورغم هذا الاكتشاف يجب علينا أن نتدبر لماذا لم يقتبس الكليني التوقيعات في كتابه الكافي، فلا بد أن يكون هناك سبب. لقد أجابني هبة الدين على سؤالي عن ذلك بأنه لا يصح أن يعتبر المرء كل التوقيعات صحيحة؛ وقد يكون هذا هو السبب في سلوك الكليني والمفيد.

وتوجد توقيعات السفراء الأربعة مطبوعة أمامنا، ولكن نصوصها المطبوعة على الحجر لا تخلو من أخطاء، وهي بلا شرح فوق ذلك، بحيث إن علينا أن نصحح النصوص عند دراستها.

وهناك مع التوقيعات عادة إشارة إلى أن خط المخطوط يتطابق تماما مع خط الراحل الإمام الحادي عشر في توقيعاته. ونجد في بعض الأحيان ملاحظة أن المخطوط هو نفس المخطوط، الذى كان الإمام استعمله عند اتصالاته بأتباعه. هكذا تنص الإضافات إلى توقيعات السفير الأول والسفير الثاني[٣١].

ابتداء من السفير الثالث نجد في التوقيعات إضافة مؤداها أن التوقيع من إملاء الحسين بن روح والخط هو خط أحمد بن إبراهيم النوبختي[٣٢]. وجميع التوقيعات، التي وصلتنا تنسب إلى الحسين بن روح، السفير الثالث، وتتصل بالشرع[٣٣].

سأحاول أولا على قدر ما أستطيع تنظيم التوقيعات في سياق الشخصيات المذكورة فيها زمنيا، وإذا لم يكن هناك في التوقيعات نفسها

---

(٣١) ينظر الغيبة، ص ٢٣١، بحار، ج٣، ص ٢٣٥.
(٣٢) الغيبة، ص ٢٤٣ و٣٤٤.
(٣٣) الغيبة، ص ٢٤٥ ـ ٢٥٠.

ذكر لزمن نشأتها ـ وهذه هي الحالة الغالبة ـ فسوف أعود إلى ترجمة المحدث، إن أمكن هذا أيضا، والإشارات إلى المحدث المحتمل في المصادر الأخرى. سأسمي التوقيعات المفردة باسم راويها.

التوقيعات المبكرة في الغيبة الصغرى

توقيع علي بن إبراهيم الرازي

يروي على بن إبراهيم الرازي أنه وقع ذات يوم بين ابن أبي غانم وأحد الشيعيين نزاع حول ما إذا كان للإمام الحادي عشر خلف أم لا. فكان رأي أبي غانم أن الإمام مات دون أن يترك خلفا له. وعندما لم يصل الرجلان إلى نتيجة، كتبا رسالة إلى الناحية المقدسة للوصول إلى حل لهذه المسألة العويصة. ويضيف علي بن إبراهيم الرازي أن الإمام أرسل بخط يده الجواب الآتي:

عافانا الله وإياكم من الضلالة والفتن ووهب لنا ولكم روح اليقين وأجارنا وإياكم من سوء المنقلب. إنه أُنهيَ إلي ارتياب جماعة منكم في الدين وما دخلهم من الشك والحيرة ولاة أمورهم[٣٤] فغمنا ذلك لكم لا لنا وسائنا[٣٥] فيكم لا فينا لأن الله معنا ولا فاقة بنا إلى غيره والحق معنا[٣٦] فلن يوحشنا من قعد عنا ونحن صنائع ربنا والخلق بعدُ صنائعنا[٣٧]. يا هؤلاء ما لكم في الريب ترددون وفي الحيرة تنعكسون أو ما سمعتم الله عز وجل يقول: «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم»[٣٨]. أما علمتم ما جاءت به الآثار مما يكون

---

(٣٤) بحار: في ولاة امرهم.

(٣٥) بحار: وساءنا.

(٣٦) بحار: لأن الله معنا فلن يوحشنا.

(٣٧) بحار: صنايعنا.

(٣٨) قرآن، ٤، ٥٩ .

ويحدث في أئمتكم عن الماضين[٣٩] والباقي منهم عليهم السلام. أوما رأيتم كيف جعل الله لكم معاقل تأوون إليها وأعلاما تهتدون بها من لدن آدم عليه السلام[٤٠] إلى أن ظهر الماضي عليه السلام[٤١]. ،إذا أفل نجم طلع نجم فلما قبضه الله إليه ظننتم أن الله تعالى[٤٢] أبطل دينه وقطع السبب بينه وبين خلقه. كلا ما كان ذلك ولا يكون حتى تقوم[٤٣] الساعة ويظهر أمر الله سبحانه[٤٤] وهم كارهون. وأن الماضي عليه السلام مضى سعيدا فقيدا على منهاج آبائه عليهم السلام حذو النعل بالنعل وفينا وصيته وعلمه ومن هو خلفه ومن يسد مسده لا ينازعنا[٤٥] موضعه إلا ظالم إثم ولا يدعيه دوننا إلا جاحد كافر ولو أن الله تعالى لا يغلب وسره لا يظهر ولا يعلن لظهر لكم من حقنا ما تبين[٤٦] منه عقولكم ويزيل شكوككم لكنه ما شاء الله كان ولكل أجل كتاب فاتقوا الله وسلموا لنا وردُّوا الأمر إلينا فعلينا الإصدار كما كان منا الإيراد ولا تحاولوا كشف ما غطي عنكم ولا تميلوا عن اليمين وتعدلوا إلى الشمال[٤٧]. واجعلوا قصدكم إلينا بالمودة على السنة الواضحة فقد نصحت لكم والله شاهد علي وعليكم ولولا ما عندنا من محبة صلاحكم ورحمتكم والإشفاق عليكم لكنا عن مخاطبتكم في شغل فيما[٤٨] قد امتحنا به من منازعة الظالم العقل الضال

---

(٣٩) بحار: ما جاء به الآثار. و: ما جاءت بها الآثار.
(٤٠) بحار: على الماضين والباقين.
(٤١) بحار: لا توجد جملة: عليه السلام .
(٤٢) بحار: إن الله أبطل.
(٤٣) الغيبة: حتى يقوم الساعة.
(٤٤) بحار: سبحانه غير موجودة.
(٤٥) بحار: ولا ينازعنا.
(٤٦) بحار: ما تبهى منه
(٤٧) بحار: إلى اليسار.
(٤٨) بحار: مما.

المتتابع في غيه[٤٩] المضاد لربه المدعي ما ليس له الجاحد حق من افترض الله طاعته الظالم الغاصب. وفي ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله لي أسوة حسنة وسيردي الجاهل رداءة[٥٠] عمله وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار عصمنا الله وإياكم من المهالك والأسواء والآفات والعاهات كلها برحمته فإنه ولي ذلك والقادر على ما يشاء وكان لنا ولكم وليا وحافظا والسلم[٥١] على جميع الأوصياء والمؤمنين ورحمة الله وبركاته وصلى الله على محمد النبي وآله تسليما[٥٢].

توقيع سعد بن عبد الله

يروي سعد بن عبد الله أن الإمام المختفي قد وجه التوقيع الموالي إلى السفير الأول وإلى ابنه، يتحدث فيه عن خليفة الإمام الحادي عشر. ويتوجه التوقيع بكلمات حادة إلى أولئك الذين ينكرون وجود الإمام المختفي ويصرحون بالإمامة بجعفر بن علي[٥٣]. نص التوقيع هو:

وفقكما الله لطاعته وثبتكما على دينه وأسعدكما بمرضاته. انتهى إلينا ما ذكرتموه أن الميشي[٥٤] أخبركما عن المختار[٥٥] ومناظرته من لقي واحتجاجه بأنه لا خلف غير جعفر بن علي وتصديقه إياه وفهمت جميع ما كتبتما به مما قال أصحابكما عنه وأنا أعوذ بالله من العمي بعد الجلاء ومن الضلالة بعد الهدى ومن موبقات الأعمال ومرديات الفتن فإنه عز وجل يقول: آلم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا

---

(٤٩) بحار: المتابع في غيه.

(٥٠) بحار: رداء عمله.

(٥١) بحار: والسلام

(٥٢) الغيبة، ص ١٨٤ وما بعدها، وبحار، ج١٣، ص ٢٤٤.

(٥٣) كمال الدين، ص ٢٨١، بحار، ج١٣، ص ٢٤٧.

(٥٤) لم أجد أية معلومات عن الميشي.

(٥٥) لا يمكن معرفة شيء عن المقصود بالمختار من حملة هذا الاسم، لأن اسم الأب لم يذكر.

يفتنون[٥٦]. كيف يتساقطون في الفتنة ويترددون في الحيرة ويأخذون يمينا وشمالا. فارقوا دينهم أم ارتابوا أم عاندوا الحق أم جهلوا ما جاءت به الروايات الصادقة والأخبار الصحيحة أو علموا ذلك فتناسوا. أما تعلمون أن الأرض لا تخلو من حجة إما ظاهرا وإما مغمورا أو ما يعلموا انتظام أئمتهم بعد نبيهم صلى الله عليه وآله واحدا بعد واحد إلى أفضى الأمر بأمر الله عز وجل إلى المضي يعني الحسن بن علي صلوات الله عليه فقام مقام آبائه يهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم. كان نورا ساطعا وقمرا زاهرا اختار الله عز وجل له ما عنده فمضى على منهاج آبائه عليهم السلام حذو النعل بالنعل على عهد عهده ووصية أوصى بها إلى وصي سره الله عز وجل بأمره إلى غاية وأخفى مكانه بمشيئته للقضاء السابق والقدر النافذ وفينا موضعه ولنا فضله. ولو قد أذن الله عز وجل فيما قد صنعه وأزال عن ما قد جري به من حكمه لأراهم الحق ظاهرا بأحسن حلية وأبين دلالة وأوضح علامة. ولأبان عن نفسه وقام بحجته. ولكن أقدار الله عز وجل لا تغالب وإرادته لا ترد وتوفيقه لا يسبق فليدعوا عنهم أتباع الهوى وليقيموا على أصلهم الذى كانوا عليه ولا يبحثوا عما ستر عنهم فيأثموا ولا يكشفوا ستر الله عز وجل فيندموا وليعلموا أن الحق معنا وفينا ولا يقول ذلك سوانا إلا كذاب مفتر ولا يدعيه غيرنا إلا ضال غوى فليقتصروا منا على هذه الجملة دون التفسير ويقنعوا من ذلك بالتعريض دون التصريح إن شاء الله[٥٧].

توقيع أحمد بن إسحاق

يتصل التوقيع أيضا بالنزاع حول خليفة الإمام الحادي عشر. يروى جعفر بن علي، أخو الإمام لحادي عشر، قد كتب إلى بعض الشيعة أنه هو الإمام الصحيح وأنه يسيطر على جميع العلوم بكامل أسرارها. وقد

---

(٥٦) قرآن ٢٩، ١-٢.

(٥٧) بحار، ج١٣، ص ٢٤٧/٢٤٨، وكمال الدين، ص ٢٨١.

سمعنا أن مستلمي الرسائل قد حملوها إلى أحمد بن إسحاق[٥٨] وإنه بعث بها في لفّة كتاب إلى الإمام. وسرعان ما وصل منه الجواب الآتي:

بسم الله الرحمن الرحيم

أتاني كتابك أبقاك الله والكتاب الذى أنفذته درجة وأحاطت معرفتي بجميع ما تضمنه على اختلاف ألفاظه وتكرر الخطأ فيه ولو تدبرته لوقفت على بعض ما وقفت عليه منه والحمد لله رب العالمين حمدا لا شريك له على إحسانه إلينا وفضله علينا أبى الله عز وجل للحق إلا إتماما وللباطل إلا زهوقا وهو شاهد علي بما أذكره ولي عليكم بما أقوله إذا اجتمعنا ليوم لا ريب فيه ويسألنا عما نحن فيه مختلفون إنه لم يجعل لصاحب الكتاب على المكتوب عليه ولا عليك ولا على أحد من الخلق جميعا إمامةً ولا طاعة ولا ذمة وسأُبيّن لكم جملة تكتفون بها إن شاء الله تعالى.

يا هذا يرحمك الله إن الله تعالى لم يخلق الخلق عبثا ولا أهملهم سدى بل خلقهم بقدرته وجعل له أسماعا وأبصارا وقلوبا وألبابا ثم بعث إليهم النبيين عليهم السلام مبشرين ومنذرين يأمرونهم بطاعته وينهونهم عن معصيته ويعرفونهم ما جهلوه من أمر خالقهم ودينهم وأنزل عليهم كتابا وبعث إليهم ملائكة يأتين بينهم بين من بعثهم إليه بالفضل الذى جعله لهم عليه وما آتاهم من الدلائل الظاهرة والبراهين الباهرة فمنهم من جعل النار عليه بردا وسلاما واتخذه خليلا[٥٩] ومنهم من كلمه تكليما وجعل عصاه ثعبانا مبينا[٦٠] ومنهم من أحيى[٦١] الموتى بإذن الله وأبرأ الأكمه

---

(٥٨) تحدثنا عن أحمد بن إسحاق في الفصل الخاص بالوكلاء. ويعتقد الشيعة بناء على هذا التوقيع أن ابن إسحاق كان على صلة مباشرة بالإمام. توفي ابن إسحاق سنة ٢٩٩، ٣٠٠ أو ٣٠١، ينظر منهج المقال، ص ١٥٩ وفصلنا عنه.

(٥٩) قرآن، ٢١، ٦٩.

(٦٠) نفسه، ٧، ١٠٧؛ ٢٧، ١٠ و٢٦، ٢٣.

(٦١) في الغيبة وبحار: من أحيا.

والأبرص بإذن الله[٦٢] ومنهم من علمه منطق الطير وأتي من كل شيء[٦٣] ثم بعث محمدا صلى الله عليه وآله رحمة للعالمين وتمم به نعمته وختم به أنبياءه وأرسله إلى الناس كافة وأظهر من صدقه ما أظهر وبين من آياته وعلاماته ما بين ثم قبضه الله صلى الله عليه وآله حميدا فقيدا سعيدا وجعل الأمر بعده إلى أخيه[٦٤] وابن عمه ووصيه وورثته علي بن أبي طالب عليه السلام ثم إلى الأوصياء من ولده واحدا واحدا أحي[٦٥] بهم دينه وأتم بهم نوره وجعل بينهم وبين إخوانهم وبين عمهم والأدنين فالأدنين من ذوي أرحامهم فرقانا بينا يعرف به الحجة من المحجوج والإمام من المأموم بأن عصمهم من الذنوب وبرأهم من العيوب وطهرهم من الدنس ونزههم من اللبس وجعلهم خزان علمه ومستودع حكمته وموضع سره وأيدهم بالدلائل ولولا ذلك لكان الناس على سواء ولادّعى أمر الله عز وجل كل أحد ولما عرف الحق من الباطل ولا العالم من الجاهل وقد ادعى هذا المبطل المفتري على الله الكذب بما ادعاه فلا لأدري بأية حالة هي له رجاء أن يتم دعواه أبفقه في دين الله فوا الله ما يعرف حلالا من حرام ولا يفرق بين خطأ وصواب[٦٦] أم بعلم فما يعلم حقا من باطل ولا محكما من متشابه ولا يعرف حد الصلة ووقتها أم بورع فالله شهيد على تركه الصلة أربعين يوما. يزعم ذلك لطلب الشعوذة ولعل خبره قد تأدى إليكم وهاتيك ظروف منكرة منصوبة[٦٧] وآثار عصيانه لله عز وجل مشهورة قائمة أم بآية فليأت بها أم بحجة فليقلها أم بدلالة فليذكرها قال الله عز وجل في كتابه: بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل

---

(٦٢) قرآن، ٥، ١١٠.
(٦٣) نفسه، ٢٧، ١٦ ـ ٢١.
(٦٤) ابن الأثير، ج ٢، ص ٢٣ وما بعدها.
(٦٥) بحار: أحيا!
(٦٦) المقصود هنا هو جعفر، أخو الإمام الحادي عشر.
(٦٧) هذه الكلمة غير واضحة؛ قد تكون: مسكرة، مكره، منكرة.

الكتاب من الله العزيز الحكيم ما خلقنا السموات الأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ما خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات ائتوني بكتاب من قبل هذا وأثارةٍ من علم إن كنتم صادقين ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين[٦٨] فالتمس تولى الله توفيقك من هذا الظالم ما ذكرت لك وامتحنه وسله عن آية من كتاب الله يفسرها أو صلوة فريضة يبين حدودها وما يجب فيها لتعلم حاله ومقداره ويظهر لك عواره ونقصانه والله حسيبه حفظ الله الحق على أهله وأقره في مستقره وقد أبى الله عز وجل أن تكون[٦٩] الإمامة في أخوين بعد الحسن والحسين عليهما السلام وإذا أذن الله لنا في القول ظهر الحق واضمحل الباطل وانحسر عنكم وإلى الله أرغب في الكفاية وجميل الصنع والولاية وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على محمد وآل محمد.

تتعلق توقيعات السفير الأول هذه بالنزاع بين الشيعة حول من يخلف الإمام، وتتصل بذلك السؤال العويص وتؤكد على شؤون الخراج عند الطائفة الشيعية والأوقاف الموجودة باسم الإمام، ذلك أن هذه الأوقاف لم تكن قليلة، وكانت تتكون من المواد الحياتية من القرية بأسرها ومن كنوز الذهب والفضة إلى الأشياء البسيطة من قطع الألبسة، فكان الرجال والنساء يتبرعون بلا فرق. ولم يكونوا يخشون لا الأتعاب ولا الحرمان خلال الرحلات الطويلة، ليقدموا هداياهم بأنفسهم إلى السفير، وهو الوحيد الذى يتصل بالإمام ويقدم له الهدايا.

---

(٦٨) قرآن، ٤٦، ١ ـ ٦.

(٦٩) في الغيبة، ص ١٨٦ ـ ١٩٨: أن يكون الإمامة؛ وفي بحار، ص ٢٤٨: أن يكون في أخوين.

ولعل في التوقيعات القادمة ما يوضح ما قدمناه من ملاحظات:

توقيع إسحاق بن يعقوب

يروي إسحاق بن يعقوب[٧٠] أن مسائل كثيرة عرضت له، وكان يأمل أن يجد لها حلا، مثلا عن وجود ابن لدى الإمام الحادي عشر، الذى أنكر وجوده أحفاد الإمام وعشيرته، وعن فائدة إمام مختف، ثم عن الأوقاف المسجلة باسم الإمام. فأرسل إسحاق بن يعقوب هذه الأسئلة في شكل رسالة إلى السفير الثاني، فقدم هذا الرسالة إلى الإمام، وجاءه بالتوقيع التالي، الذى كتبه الإمام المختفي بخط يده[٧١]:

... أما ما سألت عنه أرشدك الله وثبتك من أمر المنكرين لي من أهل بيتنا وبني عمنا أنه ليس بين الله عز وجل وبين أحد قرابة ومن أنكرني فليس مني وسبيله سبيل ابن نوح[٧٢]. وأما سبيل عمي جعفر وولده فسبيل إخوة يوسف على نبيّنا وآله السلام[٧٣] وأما الفقاع فشرابه حرام[٧٤] ولا بأس بالشلماب[٧٥] وأما أموالكم فما نقبلها إلا لتطهروا فمن شاء فليصل ومن شاء فليقطع فما آتانا الله خير مما آتاكم[٧٦] وأما ظهور

---

(٧٠) لم أجد أية معلومات عن إسحاق بن يعقوب.

(٧١) الغيبة، ص ١٨٨، كمال الدين، ص ٢٦٦/٢٦٧، بحار، ج١٣، ص ٢٤٥.

(٧٢) قرآن، ١١، ٤١-٤٦.

(٧٣) نفسه، ١٢، ٨ ـ ٢٠.

(٧٤) عن الفقاع وإباحته ينظر أصل الشيعة، ص ١٧٨؛ سؤال وجواب، ص ٢٣. يعني بالفقاع مشروبا مصنوعا من الشعير أومن حب آخر أو من العنب، مما هو ممنوع عند الشيعة، ولكنه مباح عند السنة.

(٧٥) الشلماب: يبدو لي أن هذه الكلمة مركبة من قسمين، أي كلمة شلم، وهو نوع من النبات، ينمو في حقول القمح (ينظر أقرب الموارد، ج١، ص ٦٠٩) وآب، وهي كلمة فارسية تعني الماء.

(٧٦) بحار: مما آتكم.

الفرج فإنه إلى الله عز وجل[٧٧] كذب الوقاتون[٧٨] وأما من زعم أن الحسين عليه السلام لم يقتل فكفر وتكذيب وضلال[٧٩] وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا فإنهم حجتي عليكم وأنا حجة الله عليهم[٨٠] أما محمد بن عثمان العمري رضي الله عنه وعن أبيه من قبل فإنه ثقتي وكتابه كتابي وأما محمد بن عثمان بن مهزيار الأهوازي فيصلح الله قلبه ويزيل عنه شكه وأما ما وصلتنا به فلا قبول عندنا إلا لما طاب وطهر وثمن المغنية حرام وأما محمد بن شاذان بن نعيم فإنه رجل من شيعتنا[٨١] وأما أبو الخطاب محمد بن زينب الأجدع فإنه ملعون وأصحابه ملعونون[٨٢] فلا تجالس أهل مقالتهم وإني منهم بريء وآبائي عليهم السلام منهم براء وأما المتلبسون بأموالنا فإن استحل منها شيئا فأكله فإنما يأكل النيران وأما الخمس فقد أبيح لشيعتنا وجعلوا منه في حل إلى وقت ظهور أمرنا لتطيب ولادتهم ولا تخبث[٨٣] وأما ندامة قوم قد شكوا في دين الله على ما وصلونا فقد أقلنا من استقال ولا حاجة لنا في صلة الشاكين وأما عدة ما وقع من الغيبة فإن الله عز وجل يقول: يا أيها الذين آمنوا لا تسئلوا عن أشياء إن تبد لكم تسئكم[٨٤] إنه لم يكن أحد من آبائي إلا وقد وقعت في عنقه بيعة لطاغية زمانه وإني أخرج حين أخرج ولا بيعة

---

(٧٧) غير موجودة في بحار كلمتا: عز وجل.

(٧٨) بحار: وكذب الوقاتون.

(٧٩) ينظر النصيرية في فصل سابق...

(٨٠) الغيبة: وأنا حجة الله عليكم.

(٨١) عن محمد بن شاذان ينظر الغيبة، ص ٢٧٣.

(٨٢) عن أبي الخطاب ينظر مقالات الأشعري، ص ١٠، الكشي، ص ١٨٧ وما بعدها؛ ابن حزم، ج٤، ص ١٨٦ وما بعدها؛ منهج، ج١، ص ٢٣٩؛ المقريزي، الخطط، ج٤، ١٧٤؛ خنداني النوبختي، ٢٥٥.

(٨٣) هذا خطأ لم يسقط الخمس في أيام الغيبة الكبرى (ينظر الغيبة، ص ١٨٩؛ وأصل الشيعة، ص ١٢٢.

(٨٤) قرآن، ٥، ١٠١.

لأحد من الطواغيت في عنقي أما وجه الانتفاع بي[٨٥] في غيبتي فكالانتفاع بالشمس إذا غيبتها عن الأبصار كالسحاب وإني أمان لأهل الأرض كما أن النجوم أمان لأهل السماء فاغلقوا أبواب السؤال عما لا يعنيكم ولا تتكلفوا علم ما قد كفيتم واتركوا الدعاء بتعجيل الفرج فإن ذلك فرجكم. والسلام عليك يا إسحق بن يعقوب.

توقيع علي بن أحمد بن عبد الله القمي

يروي علي بن أحمد بن عبد الله القمي أن الشيعة تنازعوا في عهد السفير الثاني حول العالم والحفاظ على حياة الإنسان وصلاحية الإمام في هذه الأمور. فقال بعضهم إن الله خول للإمام أن يحكم العالم ويخلق الحياة ويحافظ عليها. وعارضهم في ذلك آخرون وقالوا إن هذا غير ممكن بالنسبة إلى الله، لأنه هو وحده القادر على خلق الأشياء، ولكنه غير قادر على نقل قدرته إلى غيره. والرأي الثالث يقول : صحيح أن الله هو الخالق الحقيقي، ولكنه نقل قدرته إلى الإمام بحيث يستطيع الخلق هو أيضا. وعندما عجزوا عن الوصول إلى إيجاد حل لهذه المسألة، قرروا التخلي عن النزاع وفضلوا أن يسألوا السفير، الذى هو نائب الإمام. وهكذا وضعوا سؤالا في كتاب وجهوه إلى الإمام عن طريق السفير. ويقول التوقيع، الذى تلقوه جوابا عن سؤالهم إن الله هو خالق جميع الأشياء وحافظ لها. فالله ليس جسما ولا هو عرضيا، والأئمة لا يستطيعون فعل شيء إلا عندما يستجيب الله لدعائهم، لأن لهم مكانة رفيعة عنده. ونص التوقيع هو:

. . . إن الله تعالى خلق الأجسام وقسم الأرزاق لأنه ليس بجسم ولا حال في جسم ليس كمثله شيء وهو السميع العليم. وأما الأئمة عليهم السلام فإنهم يسألون الله تعالى فيخلق ويسألونه فيرزق إيجابا

(٨٥) الغيبة، ص ٢٨٩؛ بحار، ج١٣، ص ٢٤٥.
(٨٦) الغيبة، ص ١٩٠.

لمسألتهم وإعظاما لحقهم.

توقيع أبي الحسين محمد بن جعفر الأسدي

أرسل الأسدي، الوكيل[٨٧] ذات مرة أسئلة إلى الإمام وطلب من السفير الثاني إيصال الرسالة إليه، ففعل السفير ذلك. وجاءه توقيع يهتم بالدرجة الأولى بمسائل الأوقاف والخراج والمستغلين غير الشرعيين لتلك الهبات. وتضمن جواب الإمام جميع أشكال الاستغلال بأدق تفاصيلها مثل أكل الثمار من بساتين الإمام. وسيجد المرء الكثير من هذا في نص التوقيع[٨٨]:

... أما ما سألت عنه من الصلة عند طلوع الشمس وعند غروبها فلإن كان كما يقولون إن الشمس تطلع من بين قرني شيطان وتغرب من بين قرني شيطان[٨٩] فما أرغم أنف الشيطان بشيء مثل الصلة فصلها وارغم أنف الشيطان وأما ما سألت عنه من أمر الوقف على ناحيتنا وما يجعل لنا ثم يحتاج إليه صاحبه فكل ما لم يسلم فصاحبه بالخيار وما سلم فلا خيار لصاحبه فيه احتاج أو لم يحتج افتقر إليه أو أستغنى عنه وأما ما سألت عنه من أمر من يستحق ما في يده من أموالنا أو يتصرف فيها[٩٠] تصرفه في ماله من غير أمرنا فمن فعل ذلك فهو ملعون ونحن خصمائه يوم القيامة وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم المستحل من عترتي ما حرم الله ملعون على لساني ولسان كل نبي محاب[٩١]. فمن ظلمنا

---

(٨٧) عن الأسدي ينظر فصلنا عن الوكلاء أعلاه.

(٨٨) كمال الدين، ص ٢٨٧، بحار، ج ١٣، ص ٢٤٥، الغيبة، ص ١٩٢؛ لم نجد في الغيبة سوى الجملة الأولى من التوقيع عن الصلاة عند الغروب وعند الشروق. ويحدث عند الطوسي أحيانا ألا ينقل على قطعة من التوقيع ولا يذكر شيئا عن القطع المتبقية بحيث يوزع التوقيع على عدد من صفحات كتابه.

(٨٩) في الغيبة: إن الشمس يطلع بين قرني شيطان ويغرب بين قرني شيطان.

(٩٠) في بحار: لو تصرف فيه...

(٩١) حديث غير معروف لدي ولم أجده في الكافي!

كان في جملة الظالمين لنا وكانت لعنة الله عليه لقوله عز وجل ألا لعنة الله على الظالمين[٩٢]. وأما ما سألت من أمر المصلي والنار والصورة والسراج بين يديه هل تجوز صلاته فإن الناس اختلفوا في ذلك قبلك إنه[٩٣] جائز لمن لم يكن من عبدة الأوثان والنيران يصلي والصورة والسراج بين يديه ولا يجوز ذلك لمن كان من أولاد عبدة الأوثان والنيران. وأما ما سالت عنه من أمر الضياع التي لناحيتنا هل يجوز القيام بعمارتها وأداء الخراج منها وصرف ما يفضل من دخلها إلى الناحية احتسابا للأجر وتقربا إلينا[٩٤] فلا يحل لأحد أن يتصرف في مال غيره بغير إذنه فكيف يحل ذلك في مالنا من فعل شيئا من ذلك بغير أمرنا فقد استحل منا ما حرم عليه ومن أكل من أموالنا شيئا فإنما يأكل في بطنه نارا وسيصلى سعيرا. وأما ما سألت من أمر الرجل الذى يجعل لناحيتنا ضيعة ويسلمها من يقوم بها ويعمرها ويؤدي من دخلها خراجها ومؤنتها ويجعل ما يبقى من الدخل لناحيتنا فإن ذلك جائز لمن جعله صاحب الضيعة قيما عليها إنما لا يجوز ذلك لغيره. وأما ما سألت عنه من الثمار من أموالنا يمر به المار فيتناول منه ويأكل هل يحل له أكل ذلك فإنه يحل له أكله ويحرم عليه حمله.

وهناك توقيع ثان يتناول المسائل نفسها، أي عن مال الإمام وعن مسيريه من مغتصبين وغير أمناء، فأرسل إليه السفير الثاني، كما يقول الأسدي، التوقيع التالي:

بسم الله الرحمن الرحيم

لعنة الله والملائكة والناس أجمعين على من استحل من أموالنا درهما.

---

(٩٢) قرآن، ١١، ١٨.

(٩٣) في بحار: فإنه.

(٩٤) بحار: وتقربا إليكم.

وبعد أن قرأ الأسدي التوقيع، فكر في أن الأمر لا يتعلق إلا بأولئك الذين يأكلون مال الإمام من غير إذن منه، ولكنهم يعترفون بأن المال للإمام. ولم يجد الأسدي في ذلك ما يدعو إلى العجب، لأن الأمر كان واضحا وضوحا تاما ولكنه اكتشف، عندما قرأ التوقيع للمرة الثانية، ما غير رأيه(٩٥):

بسم الله الرحمن الرحيم

لعنة الله والملائكة والناس أجمعين على من أكل من مالنا درهما حراما.

توقيع علي بن محمد الكليني(٩٦)

عرفنا من الكليني أن محمد بن زياد الصيمري(٩٧) قد كتب رسالة إلى الإمام المختفي والتمس منه أن يرسل له كفنا، لكن الإمام أجابه:

إنك تحتاج إليه سنة إحدى وثمانين.

وفي هذه السنة بالذات وصله الكفن المذكور شهرا قبل موته، ومات فعلا(٩٨).

توقيع أبي على محمد بن همام(٩٩)

يقال إن محمدا بن همام عرف من السفير الثاني أن الإمام المختفي أرسل توقيعا، كان نصه ما يلي:

من سماني في مجمع من الناس باسمي فعليه لعنة الله.

---

(٩٥) كمال الدين، ص ٢٨٨، بحار، ج١٣، ص ٢٤٥/٢٤٦.

(٩٦) لم أجد معلومات عن على بن محمد الكليني.

(٩٧) ينظر منهج المقال، في ص ٢٣٧، التي يذكر فيها !

(٩٨) الغيبة، ص ١٩٣.

(٩٩) محمد بن همام بن علي عاش من ٢٥٨ إلى ٣٣٢؛ ينظر عنه منهج المقال، ص ٣٥٨، بحار، ج١٣، ٢٤٦.

وكان الراوي قد سأل الإمام عن موعد عودته، وكان جواب الإمام عن هذا السؤال الفضولي:

كذب الوقاتون[١٠٠].

توقيع محمد بن صالح الهمذاني[١٠١]

اشتكى محمد بن صالح الهمذاني، الذى كان هو نفسه خادما للإمام ووكيله في رسالة وجهها إلى الإمام المختفي من أسرته، التي تهينه باستمرار بأن الإمام يعتبر جميع الخدم من أسوأ خلق الله وأفظعهم[١٠٢].
فأجابه الإمام في هذا التوقيع:

. . . ويحكم أما قرأتم قول الله عز وجل وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة نحن والله القرى التي بارك الله فيها وأنتم القرى الظاهرة.

توقيع ابن مهزيار[١٠٣]

دعا ابن مهزيار، والد الراوي، ابنه قبل موته واعترف له بأن لديه مالا للإمام وأنه يرجوه أن يذهب به إلى بغداد ويسلمه بأمانة، لكن الابن لم يكن يؤمن إيمانا كبيرا بالسفراء. فأخذ أكياس المال الثلاثة المختومة ومضى بها إلى بغداد، التي تلقى فيها توقيعا يخص هذا الأمر من غير أن يعرف أحد أقل شيء عن ذلك. فأخذه العجب من هذه الكرامة، وتحرر من شكه وسلم المال إلى السفير، وبذلك تولى منصب والده. وهذا نص التوقيع العجيب:

قل للمهزيار قد فهمنا ما حكيته عن موالينا بناحيتكم فقل لهم أما

---

(١٠٠) بحار، ج ١٣، ص ٢٤٦.
(١٠١) ينظر عن محمد بن صالح الهمذاني منهج المقال، ص ٣٠٠.
(١٠٢) بحار، ج١٣، ص ٢٤٦.
(١٠٣) عن ابن مهزيار ينظر منهج المقال، ص ٢٨.

سمعتَ الله عز وجل يقول يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم(١٠٤) هل أمر إلا بما هو كائن إلى يوم القيامة أو لم تروا أن الله عز وجل جعل لهم معاقل يأوون إليها وأعلاما يهتدون بها من لدن آدم إلى أن ظهر الماضي صلوات الله عليه كلما غاب علم بدا علم وإذا أفل نجم طلع نجم فلما قبضه الله عز وجل إليه ظننتم أن الله قد قطع السبب بينه وبين خلقه كلا ما كان ذلك ولا يكون حتى تقوم الساعة ويظهر أمر الله وهم كارهون.

يا محمد بن إبراهيم لا يدخلك الشك فيما قدمت له فإن الله لا يخلي الأرض من حجة أليس قال لك أبوك قبل وفاته احضر الساعة من يعير هذه الدنانير التي عندي فلما أبطأ ذلك عليه وخاف الشيخ على نفسه قال لك عيرها على نفسك وأخرج إليك كيسا كبيرا وعندك بالحضرة ثلاثة أكياس وصرة فيها دنانير مختلفة النقد فعيرتها وختم الشيخ عليها بخاتمه وقال لك اختم مع خاتمي فإن أعش فأنا أحق بها وإن أمت فاتق الله في نفسك أولا ثم في فخلصني وكن عند ظني بك. اخرج رحمك الله الدنانير التي استفضلتها من بين النقدين من حسابنا وهي بضعة عشر دينارا واسترد من قبلك فإن الزمان أصعب ما كان وحسبنا الله ونعم الوكيل(١٠٥).

توقيع من عهد السفير الثالث

توقيع أبي غالب الزُراري

كانت لأبي غالب الزراري امرأة محبة للنزاع، وكانت بسبب هذه النزاعات الزوجية تعيش معظم وقتها عند والديها. فترك أبو غالب ذات يوم بيته بالكوفة وسافر مع صديق له إلى بغداد. كانا يريدان زيارة المحلة

---

(١٠٤) قرآن، ٤، ٥٩.

(١٠٥) بحار، ج ١٣، ص ٢٤٦.

المقدسة فيها وإخبار السفير بهمومهما الشخصية. ولم يكن في استطاعة السفير آنئذ الخروج في الناس، ولذلك أناب عنه الشلمغاني. وصل الغريبان إلى الشلمغاني وطلبا منه أن يخبر الإمام المختفي بهمومهما. وناشد صديق أبي غالب الشلمغاني أن يخبر الإمام بهموم صاحبه حتى يخفف الأمر عنه، فوعدهما الشلمغاني بذلك. عندئذ تشجع أبو غالب ولا حظ أن لديه أمرا يقلقه أيضا، فوعده الشلمغاني بمساعدته. وانتظر الصديقان النتيجة بفارغ الصبر، وبعد أيام خاطبا الشلمغاني في ذلك مرة أخرى، فرأوا في يده ورقا ملفوفا، كتب فيه بوضوح وبكلمات مناسبة:

... وأما الزراري وحال الزوج والزوجة فأصلح الله ذات بينهما[١٠٦] ...

فاندهش أبو غالب وتساءل عما إذا لم يكن الجواب قصيرا، ولكن صديقه أوضح له الأمر: إن المحلة المقدسة، هي التي تحقق هذا كله، فلا ينبغي أن يندهش المرء لذلك.

وعندما عاد الزوج الشقي إلى الكوفة، وجد زوجه في بيته في دعة وسلام، ومنذ ذلك اليوم لم يحدث بينهما أي نزاع، وأنجبا الأولاد وعاشا عيشة راضية.

وكان أبو غالب الزراري قد حاول قبل وقوع هذه القصة بكثير أن يتصل بالسفير الثالث بطريقة ما ليتمكن بواسطته من إقامة علاقة بأسرة النوبختي ذات النفوذ الكبير. واستعمل أبو طالب قرية كاملة، كانت ملكا له، من أجل الوصول إلى ذلك. كان قد زعم في البداية أنه يريد تقديمها هبة إلى الإمام المختفي، بينما كان يريد في الحقيقة أن يرشو بها السفير. لكن السفير تفطن إلى طموح الرجل، وأوضح له أن المحلة المقدسة ما بها الآن حاجة إلى القرية، وسيأتي وقت يكون فيه أبو غالب نفسه في حاجة ملحة إلى قريته. وألح أبو غالب على السفير في قبول الهدية، غير

---

(١٠٦) الغيبة، ص ١٩٦.

أن السفير أصر على الرفض ونصحه في النهاية أن يقدم القرية إلى رجل أمين يتولى استغلالها. وهكذا كتبها أبو غالب باسم أبي القاسم موسى بن الحسن الزَّجُوزَجي[١٠٧]. وبعد أيام أغار لصوص البدو على المنطقة وأخذوا أبا غالب رهينة معهم، وبقي معهم مدة طويلة إلى أن دفع فدية بمبلغ ١١٠٠ دنانير و٥٠٠ درهم، وكان على الأسير أبي غالب أن يقدم للرسول ٥٠٠ درهم، ولم يتمكن من مال الفدية إلا بعد أن باع قريته[١٠٨].

توقيع أبي العباس أحمد بن الحسن الجحضري[١٠٩]

كان الجحضري قد تنقل في بلدان كثيرة للعثور على ما كان يريد الحصول عليه، وحين استبد به القلق، كتب إلى الإمام المختفي ليجيبه عن الأسئلة، التي تؤرقه، فأجابه الإمام:

من بحث فقد طلب ومن طلب فقد ذل ومن ذل فقد أشاط ومن أشاط فقد أشرك.

توقيع عن أسئلة مواطني قم

عندما كان النزاع بين السفير الثالث والشلمغاني حول الصلاحيات ومفاهيم الشلمغاني لا يزال قائما، وجه مواطنو قم رسالة إلى الإمام المختفي، طلبوا منه فيها أن يوضح لهم ما إذا كان ما كتبه الشلمغاني وادعاه لنفسه منه هو حقيقة أم من الإمام نفسه. فقرأ السفير الثالث الرسالة، التي ذهبت عن طريقه، وأملى على أحمد بن إبراهيم النوبختي، كاتبه، خبرا، يوضح فيه رأيه في الموضوع:

---

(١٠٧) فيما عدا هذا لا نعرف عنه شيئا، بحار، ج١٣، ص ٩٧.
(١٠٨) الغيبة، ص ١٩٩.
(١٠٩) الغيبة، ص ٢١١.

بسم الله الرحمن الرحيم

قد وقفنا على هذه الرقعة وما تضمنته فجميعه جوابنا ولا مدخل للمخذول الضال المضل المعروف بالعزاقري لعنه الله في حرف منه وقد كانت أشياء خرجت إليكم على يد أحمد بن بلال وغيره من نظرائه وكان ارتدادهم عن الإسلام مثل ما كان من هذا عليهم لعنة الله وغضبه.

طرح بعض العلماء سؤالا مماثلا، وكان الجواب عنه كما يلي:

العلم علمنا ولا شيء عليكم من كفر فما صح لكم على يده برواية غيره له من الثقات رحمهم الله فاحمدوا الله واقبلوه وما شككتم فيه أولم يخرج لكم في ذلك إلا على يده فردوه إلينا لنصححه أو نبطله والله تقدست أسمائه وجل ثنائه ولي توفيقكم وحسبنا في أمورنا كلها ونعم الوكيل(١١٠).

توقيع أبي علي بن هُمام

روى علي بن همام نوعا من الدعاء، نشره السفير وأوصى بقراءته للغيبة(١١١). نص هذا «الدعاء» هو:

اللهم عرفني نفسك فإنك إن لم تعرفني نفسك لم أعرف رسولك. اللهم عرفني رسولك فإنك إن لم تعرفني رسولك لم أعرف حجتك. اللهم عرفني حجتك فإن لم تعرفني حجتك ضللت عن ديني. اللهم لا تمتني ميتة جاهلية(١١٢) ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني. اللهم فكما هديتني بولاية من فرضت طاعتَه علي من ولاة أمركِ بعد رسولك صلواتك عليه وآله حتى وآليت ولاةَ أمرك: أمير المؤمنين والحسن والحسين وعليا

---

(١١٠) الغيبة، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣، بحار، ج١٣، ص ٢٣٧.

(١١١) الغيبة، ص ٢٤٤.

(١١٢) ينظر الكافي، ص ١٩٠ وما بعدها.

ومحمدا وجعفرا وموسى[١١٣] وعليا ومحمدا وعليا[١١٤] والحسن والحجة القايم المهدي صلواتك عليهم أجمعين. اللهم فثبتني على دينك واستعملني لطاعتك ولين قلبي لولي أمرك وعافني مما امتحنت به خلقك وثبتني على طاعة ولي أمرك الذى سترته عن خلقك فبإذنك غاب عن بريتك وأمرُك ينتظر وأنت العالم غير معلم بالوقت الذى فيه صلاح أمر وليك في الإذن له بإظهار أمره وكشف سره وصبرني على ذلك. حتى لا أحب تعجيل ما أخرت ولا تأخير ما عجلت ولا أكشف عما سترته ولا أبحث عما كتمته ولا أنازعك في تدبيرك ولا أقول لِمَ وكيفَ وما بال أمر ولي الله لا يظهر وقد امتلأت الأرض من الجور. وأفوض أموري كلها إليك. اللهم إني أسئلك أن تريني ولي أمرك ظاهرا نافذا لأمرك بأن لك السلطان والقدرة والبرهان والحجة والمشيئة والإرادة والحول والقوة فافعل ذلك وبجميع المؤمنين حتى ننظر إلى وليك ظاهر المقالة واضح الدلالة هاديا من الضلالة شافيا من الجهالة أبرز يا رب مشاهده وثبت قواعده واجعلنا ممن تقر عيننا برؤيته وأقمنا بخدمته وتوفنا على ملته واحشرنا في زمرته اللهم أعذه من شر جميع ما خلقت وبرأت وذرأت وأنشأت وصورت واحفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته بحفظك الذى لا يضيع من حفظته به واحفظ فيه رسولك ووصي رسولك. اللهم ومدّ في عمره وزد في أجله وأعنه على ما أوليته واسترعيته وزد في كرامتك له فإنه الهادي المهدى القائم المهتدى الطاهر التقى النقي الزكى الرضى المرضى الصابر المجتهد الشكور. اللهم ولا تسلبنا اليقين لطول الأمد في غيبته وانقطاع خبره عنا ولا تنسنا ذكره وانتظاره والإيمان به وقوة اليقين في ظهوره والدعاء له والصلوة عليه حتى لا يقنطنا طول غيبته من ظهوره وقيامه ويكون يقيننا في ذلك كيقيننا في

(١١٣) ناقصة في نص بحار، لكنها أضيفت في الهامش.

(١١٤) هذه الأسماء الثلاثة ناقصة في بحار وأضيف في الهامش.

قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وما جاء به من وحيك وتنزيلك قو قلوبنا على الإيمان به حتى تسلك بنا على يده منهاج الهدى والحجة العظمى والطريقة الوسطى وقونا على طاعته وثبتنا على مشايعته واجعلنا في حزبه وأعوانه وأنصاره والراغبين بفعله ولا تسلبنا ذلك في حياتنا ولا عند وفاتنا حتى توفنا ونحن على ذلك غير شاكين ولا ناكثين ولا مرتابين ولا مكذبين. اللهم عجل فرَجه وأيده بالنصر وانصر ناصريه واخذل خاذليه ودمدم على من نصب له وكذب به وأظهر به الحق وأمت الجود واستنقذ به عبادك المؤمنين من الذل وانعش به البلاد واقتل به جبابرة الكفرة واقصم به رؤوس الضلالة وذلل به الجبارين والكافرين وابر به المنافقين والناكثين وجميع المخالفين والملحدين في مشارق الأرض ومغاربها وبحرها وبرها وسهلها وجبلها حتى لا تدع منهم ديارا ولا تبقي لهم آثارا وتطهر منهم بلادك واشف منهم صدور عبادك وجدد به ما امتحنا من دينك واصلح به ما بدل من حكمك وغير من سنتك حتى يعود دينك به وعلى يده غضا جديدا صحيحا لا عِوَج فيه ولا بدعة معه حتى تطفئ بعدله نيران الكافرين فإنه عبدك الذى استخلفته لنفسك وارتضيته لنصرة دينك واصطفيته بعلمك وعصمته من الذنوب وبرأته من العيوب وأطلعته على الغيوب وأنعمت عليه وطهرته من الرجس ونقيته من الدنس[١١٥].
اللهم فصل عليه وعلى آبائه الأئمة الطاهرين وعلى شيعتهم المنتخبين وبلغهم من آمالهم أفضل ما يأملون واجعل ذلك منا خاصا من كل شك وشبهة ورياء وسمعة حتى لا نريد به غيرك ولا نطلب به غير وجهك اللهم إنا نشكوا إليك فقد نبينا وغيبة وَلِيِّنا وشدة الزمان علينا ووقوع الفتن وتظاهر الأعداء وكثرة عدونا وقلة عددنا. اللهم فافرج ذلك بفتح منه منك تُعجله وبصبر منك تيسره وإمام عدل تظهره إله الحق رب العالمين. اللهم إنا نسألك أن تأذن لوليك في إظهار عدلك في عبادك وقتل أعدائك في

(١١٥) قرآن، ٣٣، ٣٣. بحار، ج٧، فصل المباهلة.

بلادك حتى لا تدع للجور دعامة إلا قصمتها ولا بنيّة إلا أفنيتها ولا قوة إلا أوهنتها ولا ركنا إلا هددته ولا حدا إلا أفللته ولا سلاحا إلا كللته ولا راية إلا نكستها ولا شجاعا إلا قتلته ولا حيا إلا خذلته ادمهم يارب بحجرك الدامغ واضربهم بسيفك القاطع وببأسك الذى لا يرد عن القوم المجرمين وعذب أعدائك وأعداء دينك وأعداء رسولك بيد وليك وأيدي عبادك المؤمنين. الله اكف وليك وحجتك في أرضك هول عدوه وكد من كاده وامكر بمن مكر به واجعل دائرة السوء على من أراد به سوءا واقطع عنه مادتهم وأرعب به قلوبهم وزلزل له أقدامهم وخذهم جهرة وبغتة شدد عليهم عقابك والعنهم في بلادك وأسكنهم أسفل نارك فإنهم أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات وأذلوا عبادك. اللهم واحي به القلوب الميتة واشف به الصدور الوغرة واجمع به الأهواء المختلفة على الحق وأقم به الحدود المعطلة والأحلام المهملة حتى لا يبقى حق إلا ظهر ولا عدل إلا زهر واجعلنا يارب من أعوانه وممن يُقوي بسلطانه والمؤتمرين لأمره والراضين بفعله والمسلمين لأحكامه وممن لا حاجة به إلى التقية من خلقك أنت يا رب الذى تكشف السوء وتجيب المضطر إذا دعاك وتنجي من الكرب العظيم فاكشف الضر عن وليك واجعله خليفتك في أرضك كما ضمنت له. اللهم ولا تجعلنا من خصماء آل محمد ولا تجعلنا من أعداء آل محمد ولا تجعلني من أهل الحنق والغيظ على آل محمد فإني أعوذ بك من ذلك فأعذني وأستجير بك فأجرني اللهم صل على محمد وآل محمد واجعلني بهم فائزا عندك في الدنيا والآخرة ومن المقربين[١١٦].

التوقيعات بعد الغيبة الصغرى

عرف سنة ٤١٠ هـ رغم «غيبة الإمام الكبرى»، التي لا صلة له فيها بأتباعه، توقيعان، يقال إنه أرسلهما من المكان، الذى يختفي فيه، إلى

(١١٦) بحار، ج١٣، ص ٢٤٦ وما بعدها.

الشيخ المفيد. وهذان التوقيعان لا يوجدان في كمال الدين وفي الغيبة الصغرى وكذلك في الكتب الأخرى، التي تعود إلى عصر المفيد والطوسي، فهما لم يظهرا للمرة الأولى إلا في «كتاب الاحتجاج» للطبرسي. وشكل هذين التوقيعين يختلف عن بقية التوقيعات اختلافا كبيرا. فبدل القصر المعتاد يتحول البلاغان إلى رسالتين. وإشاراتهما الزمنيتان ترشداننا إلى زمن، كانت فيه بلاد الإسلام مهددة من الشرق وكانت الاضطرابات والثورات تهز العالم الإسلامي كله. وأسلوب هاتين الرسالتين كذلك لا يتلاءم مع أسلوب التوقيع المعهود، وقد قدم المضمون في نثر إيقاعي، مسجوع، كان الناس يميلون إليه ميلا شديدا في العصر العباسي الأخير. وكتب في نهاية هاتين الرسالتين: «نسخة من ختم اليد المقدسة، منح الله روحك السلام» وتوجد تحتها ملاحظة: لا ينبغي للمرسل إليه أن يطلع أحدا عليه، وإنما يخبر بالمضمون من يراهم أهلا للثقة.

التوقيع الأول يحمل تاريخ شهر صفر سنة ٤١٠ هـ، وهذا نصه:

للأخ السديد والولي الرشيد الشيخ المفيد أبي عبد الله محمد بن النعمان[١١٧] أدام الله إعزازه مكن مستودع العهد المأخوذ على العباد[١١٨].

بسم الله الرحمن الرحيم

سلام عليك أيها المولى المخلص في الدين المخصوص فينا باليقين فإنا نحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ونسأله الصلوة على سيدنا ومولانا ونبينا وآله الطاهرين ونعلمك أدام الله توفيقك لنصرة الحق وأجاز مثوبتك عل نطقك عنا بالصدق إنه قد أذن لنا في تشريفك بالمكاتبة وتكليفك ما

---

(١١٧) لا يوجد في النص إلا المفيد، وجاء الاسم الكامل في الهامش !

(١١٨) هذه الصيغة لا تأتي عادة في التوقيعات الشيعية، فالشكل والأسلوب يختلفان عن التوقيعات الماضية، خصوصا من حيث القصر !

تؤديه عنا إلى موالينا قِبَلك أعزهم الله بطاعته وكفاهم المهم برعايته لهم وحراسته ـ فقف أمدك الله بعونه على أعدائه المارقين من دينه على ما نذكره واعمل في تأديته إلى من تسكن إليه بما نرسمه إنشاء الله. نحن وإن كنا ثاوين بمكاننا النائي عن مساكن الظالمين حسب الذى أراناه الله تعالى من الصلاح ولشيعتنا المؤمنين في ذلك ما دامت دولة الدنيا للفاسقين فإنا يحيط علمنا بأنبائكم ولا يعزب عنا شيء من أخباركم ومعرفتنا بالزلل الذى أصابكم منذ جنح كثير منكم إلى ما كان السلف الصالح عنه شاسعا ونبذوا العهد المأخوذ منهم وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون أنا غير مهملين لمراعاتكم ولا ناسين لذكركم ولولا ذلك لنزل بكم الأعداء فاتقوا الله جل جلاله وظاهرونا على انتياشكم من فتنة قد أنافت عليكم يهلك فيها من حم أجله ويحمي عليه من أدرك أمله وهي أمارة لأزوف حركتنا ومياشتكم بأمرنا ونهينا[١١٩] والله مُتم نوره ولوكره المشركون اعتصما بالتقية من شبت نار الجاهلية يحششها[١٢٠] عصب أمية يهول بها فرقة مهدية أنا زعيم بنجاة من لم يرم منها المواطن الخفية وسلك في الطعن منها السبل الرضية إذا حل جمادى الأولى من سنتكم هذه فاعتبروا مما يحدث فيه واستيقظوا من رقدتكم لما يكون من الذي يليه ستظهر لكم من السماء آية جلية ومن الأرض مثلها بالسوية ويحدث في أرض المشرق ما يحزن ويقلق ويغلب من بعد على أرض العراق طوائف عن الإسلام إمراق يضيق بسوء فعالهم على أهله الأرزاق، ثم تنفرج الغمة من بعده ببوار طاغوت من الأشرار ويسر بهلاكه المتقون الأخيار ويتفق لمريدي الحج من الآفاق ما يأملونه على توفير غلبة منهم واتفاق ولنا في تسيير حجهم على الاختيار منهم والوفاق شأن يظهر على نظام واتساق، فيعمل كل امرئ منكم ما يقرب به من محبتنا وليتجنب ما

(١١٩) كتبت كلمة ومياشتكم في الهامش مياشتكم، ينظر لسان العرب، ج٨، ص ١٤.
(١٢٠) لسان العرب، ج٨، ص ١٧١.

يدنيه من كراهيتنا وسخطنا فإن أمرا يبغته فجاء محين لا تنفعه توبة ولا ينجيه من عقابنا ندم على حوبة والله يلهمك الرشد ويلطف لكم بالتوفيق برحمته.

نسخة التوقيع باليد العليا على صاحبها السلام

هذا كتابنا إليك أيها الأخ الولي والمخلص في ودنا الصفي والناصر لنا الوفي حرسك الله بعينه التي لا تنام فاحتفظ به ولا تظهر على خطنا الذى سطرناه بما له ضمناه أحدا واد ما فيه إلى من تسكن إليه ووص جماعتهم بالعمل عليه إنشاء الله وصلى الله على محمد وآله الطاهرين[١٢١].

يقال عن الرسالة الثانية أنها وصلت المفيد يوم ٢٣ ذي الحجة من سنة ٤١٢ هـ.، وكان المفيد قد كتب إلى الإمام كتابا عبر فيه عن رغبة له، فأجابه الإمام بأنه قد استجاب لرغبته ودعا الله من فوق جبل عال، يوجد به في هذه اللحظة بالذات، أن يسوي القضية. فالإمام يحذر شيعته من الأخطار المقبلة ويدعوهم إلى مخافة الله، وأداء الصلاة في مواعيدها، وإيصال خراجهم إلى الإمام بصورة منتظمة، فستأتي ساعة لا يجد فيه المدينون المتأخرون في دفع ديونهم رحمة، أما الذين دفعوا فلا خوف عليهم، لأن الإمام سيحميهم ويشفع لهم عند الله. وسيكتب مرة أخرى إلى المفيد عندما نزوله إلى السهل من الجبل، الذى له فيه الآن عمل كثر، يجب عليه القيام به.

والرسالة مكتوبة بنفس الأسلوب الذى كتبت به الرسالة الماضية، ولعل الأمر يتعلق في هاتين الرسالتين بنفس المؤلف. لقد لاحظ المجلسي في بحار الأنوار أن مصدر الطبرسي مخطوط تصعب قراءته إلى حد كبير وأنه هو نفسه نقل الأصل كما هو[١٢٢]. والتوقيع كما يلي:

---

(١٢١) بحار، ج١٣، ص ٢٤٣.
(١٢٢) بحار، ج١٣، ص ٢٤٤.

من عبد الله المرابض في سبيله إلى ملهم الحق ودليله

بسم الله الرحمن الرحيم

سلام عليك أيها الناصر للحق الداعي إلى كلمة الصدق فإنا نحمد إليك الذى لا إله إلا هو إلهنا وإله آبائنا الأولين ونسأله الصلوة على نبينا وسيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين: وبعد فقد كنا نظرنا مناجاتك ـ عصمك الله ـ بالسبب الذى وهبه لك من أوليائه وحرسك من كيد أعدائه وشفعنا ذلك الآن[١٢٣] من مستقر لنا ينصب في[١٢٤] شمراخ[١٢٥] من بهاء[١٢٦] صرنا إليه آنفا من غماليل[١٢٧] ألجأنا إليه السُباريت[١٢٨] من الإيمان ويوشك أن يكون هبوطنا منه إلى صحح[١٢٩] من غير بعد من الدهر ولا تطاول من الزمان ويأتيك نبأ منا بما يتجدد من حال فتعرف بذلك ما نعتمده من الزلفة إلينا بالأعمال والله موفقك لذلك برحمته فلتكن ـ حرسك الله بعينه التي لا تنام ـ أن تقابل بذلك ففيه تبسل نفوس حرشت باطلا لاسترهاب المبطلين ويبتهج لدمارها المؤمنون ويحزن لذلك المجرمون؛ وآية حركتنا من هذه اللوثة حادثة بالجرم المعظم من رجس منافق مذمم مستحل للدم المحرم، يعمد بكيده أهل الإيمان، ولا يبلغ بذلك غرضه من الظلم لهم والعدوان، لأننا من وراء حفظهم بالدعاء الذى لا يحجب عن ملك الأرض والسماء، فليطمأن بذلك من أوليائنا القلوب، وليتقوا بالكفاية منه وإن راعتهم منه الخطوب، والعاقبة لجميع صنع الله تكون حميدة لهم ما اجتنبوا النهي عنه من

---

(١٢٣) ملاحظة ناشر بحار: وشفعنا لك الآن. ينظر بحار، ج١٣، ص ٢٤٤.
(١٢٤) نفسه: وتنصب، وأظن نصب.
(١٢٥) لسان العرب، ج٣، ص ٥٠٩.
(١٢٦) ناشر بحار، ج١٣، ص ٢٤٤: بهماء، ينظر لسان العرب، ج١، ص١٧٩.
(١٢٧) بحار، ج ١٣، ص ٢٤٤، لسان العرب، ج ١٤، ص ١٨ وما بعدها.
(١٢٨) بحار، ج١٣، ص ٢٤٤، لسان العرب، ج ٢، ص ٣٤٤.
(١٢٩) لسان العرب، ج٣، ص ٣٣٨.

الذنوب، ونحن نعهد إليك أيها الولي المجاهد فينا الظالمين أيدك الله بنصره الذى أيد به السلف من أوليائنا الصالحين، إنه من اتقى ربه من إخوانك في الدين وخرج مما عليه لمستحقيه، كان آمنا من الفتنة المبطلة ومحنها المظلة ومن بخل منهم بما أعاره الله من نعمته على من أمره بصلته فإنه يكون خاسرا بذلك لأولاه وآخرته ولو أن أشياعنا ـ وفقهم الله لطاعته ـ على اجتماع من القلوب في الوفاء بالعهد عليهم لما تأخر عنهم اليمن بلقائنا واستعجلت لهم السعادة بمشاهدتنا على حق المعرفة وصدقها منهم بنا فما يحبسنا عنهم إلا ما يتصل بنا مما نكرهه ولا نؤثره منهم والله المستعان وهو حسبنا ونعم الوكيل وصلواتنا على سيدنا البشير النذير محمد وآله الطاهرين وسلم. وكتب في غرة شوال من سنة اثني عشرة وأربعماءة

نسخة التوقيع باليد العليا صلوات الله على صاحبها.

هذا كتابنا إليك أيها الولي ـ الملهم للحق العلي ـ بإملائنا وخط ثقتنا فاخفه عن كل أحد واطوه واجعل له نسخة يطلع عليها من تسكن إلى أمانته من أوليائنا شملهم الله ببركتنا ودعائنا إن شاء الله والحمد لله والصلوة على سيدنا محمد وآله الطاهرين.

عند موت المفيد الشهير، أعلن، فيما يقال، عن توقيع عبر فيه الإمام عن ألمه لموت هذا الرجل في بضعة أبيات:

لا صوت الناعي بنَعيك إنه   يوم على آل الرسول عظيم
إن كنت قد غيِّبتَ في جدث الثرى   فالعلمُ والتوحيدُ فيك مقيم
والقائمُ المهديُّ يفرح كلما   تُلِيت عليك من الدروس علوم[١٣٠]

---

(١٣٠) قصص العلماء، ٣١١.

عودة المهدي ودولته

قبل أن نصل إلى نهاية أطروحتنا، علينا أن نضيف فصلا عن التصورات والآمال المستقبلية عند الشيعة والتحقق المأمول للدولة الشيعية، فبهذه المناقشة ستغدو أشياء لها صلة وثيقة بما نحن بصدده أكثر وضوحا. فأما متى تنشأ هذه الدولة المأمولة، فلا يتم الحديث عنها بوضوح أبدا، فزمن الاستجابة لا يعلمه إلا الله. على أن هناك علامات قد أعلنت للناس، يستطيعون أن يعرفوا منها اقتراب المهدي. وهذه العلامات، كما نقلتها إلينا الكتب التي تتحدث عن المهدي، مرتبطة دائما بالشيعة وأعدائهم. ومن العلامات أيضا الانحلال الخلقي الرحيب والقسوة العامة والظلم. في الكوفة سيظهر، فيما يقال، داعية ينادي من حمل إليه شيعيا فله مكافأة ١٠٠٠ درهم على كل رأس[١٣١].

وتقول لنا كتب الشيعة أن الأئمة كثيرا ما سئلوا عن ظهور المهدي، لأن مطاردته في وقتهم كانت قد بلغت أقصى حد لها. ولا شيء يسهل فهمه من أن الشيعة كانوا متشوقين إلى نهاية القسوة، التي كانوا يعانون منها[١٣٢]. عندما نتأمل تصورات الشيعة عن أجوبة الأئمة، التي يعزون بها الطائفة يبدو لي أن البشارة القريبة، التي كان الأئمة، حسب ما نجده في المصادر الشيعية، يوجهونها إلى أتباعهم، كانت ممكنة على أقل تقدير: لن يكون هناك ظهور لحكومة الشيعة المستقبلية قبل أن ينشأ نزاع بين العباسيين وتعم الاضطرابات دولتهم؛ عندئذ يظهر في الشرق رجل يكنى بالخراساني ويظهر في الغرب رجل في اليوم نفسه يكنى السفياني ويقضيان على الخلافة العباسية[١٣٣].

---

(١٣١) بحار، ج١٣، ص ١٥٨.

(١٣٢) تعليقات على منهج المقال، ص ٩، وجميع كتب الغيبة والحديث مثل الكافي وغير ذلك.

(١٣٣) بحار، ج١٣، ص ١٦٢.

وهناك علامة أخرى وهي نشوب الحرب بين الأتراك و«الروم» (اليونان). يموت حينئذ خليفة، كان قد أمر سحب خراجه، ويخلفه آخر جديد، يتم طرده بعد بضع سنين ويترك مكانه من جديد لخليفة آخر. وتتسع الحرب بين الترك والروم بصورة مطردة إلى أن تشمل في النهاية الأرض كلها. فيرفع رجل صوته في دمشق ويعلن عن تحول عنيف في مصير الإنسانية. بعدها يتنازع ثلاثة رجال من أجل الحكم، وفي الوقت نفسه يدخل ناس من الغرب بلاد الشرق ويقضون على مصر. والآن يستولي الأتراك على مدينة الحيرة، بينما يستولي الروم على فلسطين، ويظهر السفياني عند هذه النقطة من التطور يظهر السفياني[١٣٤].

يزحف السفياني من الغرب والخراساني من الشرق بقواتهما ويتنافسان على الكوفة من أجل الاستيلاء على هذه المدينة. وبسبب حربهم هذه يكابد العالم الإسلامي خسائر كبيرة. وفي هذه النقطة من الصراع أيضا يرفع رجل يكنى اليمني الراية في الجنوب ويجمع حوله من احتفظوا في قلوبهم بشرارة من الإيمان[١٣٥].

وبعد خسائر كبيرة في أرواح البشر، وانتشار الكفر، واضطهاد الإيمان وعلامات أخرى كثيرة يتلقى الإمام المختفي الأمر من الله بالعودة إلى الأرض وإعادة الشريعة والحقيقة. ويقف مع المهدي، كما حدث قديما مع الرسول في معركة بدر، ثلاثمائة وثلاثة عشر من صحابته من جميع المدن ما عدا البصرة[١٣٦] دون أن يعرف أحدهم الآخر، ويرسل المهدي رسولا إلى مكة يأمر السكان بمبايعته. ثم يخطب رسول المهدي ليعيد هم إلى الإيمان، ولكنهم لن يهتموا برسول الإمام المختفي ، وإنما يذبحون الخطيب في المسجد المقدس. وقتئذ يأتي المهدي مع مرافقيه

(١٣٤) نفسه، ص ١٥٦.
(١٣٥) نفسه، ص ١٦٣.
(١٣٦) بحار الأنوار، ج ١٣، ص ١٨٥؛ ربما استثنيت البصرة، لأنها حاربت عليا بن أبي طالب.

إلى الأرض وينتقم من أعدائه. يستولي على الكوفة، ويهدم جميع المساجد والمنارات، التي لا يعود أصلها إلى أيام محمد. أما أبناء قتلة الأئمة وأعداء الشيعة فيذبحون كلهم ذبحا؛ ولن يستطيع أي كافر إخفاء نفسه، لأن الحجر، الذى يختفون وراءه، سيشي بهم نفسه. وتصبح كل البلدان تحت حكم المهدي، الصين، والقسطنطينية، وروما وجميع ممالك العالم. ولن يكون هناك دين، لا المسيحية ولا اليهودية، وإنما سيصبحون كلهم مسلمين ويعترفون بحكم المهدي.

لن يستطيع السفياني ولا الخراساني مقاومة المهدي، فهو ينتصر على كل الأعداء. ويظهر الإمام رجلا في الأربعين، ويبقى كذلك، لأن السن لن تتقدم به أبدا(١٣٧). تضيء السماء كلها بنور ساطع بحيث لا تكون هناك ضرورة للشمس ولن يستقر الظلام فوق الأرض. وكل رجل يعيش إلى أن يكون له ألف ولد دون أن تولد له فتاة. كل كنوز الأرض ستصعد فوق الأرض، والرجل، الذى يدفع الصدقة إلى المحتاجين لن يجد منهم أحدا، لأنهم سيكونون كلهم أغنياء راضين(١٣٨). ويخلص المهدي المدينين من كل الالتزامات حتى من الأشياء الصغيرة منها. وبعدها يعيش الناس من غير أن تنقل كاهلهم الديون. ولن تهز العلاقات الإنسانية لا بسبب الخصام ولا العراك، ستسود الأخوة الصافية والسلام الدائم الإنسانية جمعاء وتجعلها سعيدة.

في بحار الأنوار حديث للإمام جعفر الصادق نقله المفضل بن عمر(١٣٩). وقد أخذ من مصادر شيعية أخرى، اقتبستها من كتاب الحسين بن حمدان الخصيبي. كنا قد تناولنا الحسين بن حمدان الخصيبي بوصفه واحدا من النصيرية، تطابق مكانته مكانة سفير أو وكيل عند الشيعة على

---

(١٣٧) نفسه، ص ١٨٣؛ الرسول جاءه الوحي أيضا وهو في سن الأربعين.

(١٣٨) بحار، ج١٣، ١٨٧؛ والمصدر خبر نقله المفضل بن عمر. عن المفضل ينظر منهج المقال، ص ٣٤١.

(١٣٩) نفسه، ص ٢٠٠ وما بعدها.

التقريب. والخصيبي ينقل أيضا عن الرواة، الذين نقلوا أحاديث عن مؤسس النصيرية أبي شعيب محمد بن نصر النميري. وهذا الأحاديث المنقول عن المفضل بن عمر مباشرة جدير بالاهتمام، لأنها تحافظ على جميع الأشياء، التي دار الحديث حولها، وغيرها، وتقدم من جهة أخرى آراء النصيرية، التي تسربت إلى كتب الشيعة الإثني عشرية. إذن فهذا الحديث يقدم لنا صورة المهدي عند النصيرية حسب معلميهم. كان المفضل بن عمر بناء على هذا الحديث قد أرسل أسئلة إلى الإمام المختفي وأجاب عنها الإمام. وقد تضمنت الأسئلة العديد من الآيات القرآنية، تم تفسيرها وفقا لأفكار المهدي.

والمجلسي لا يذكر المصدر، الذى نقل عنه حديث المفضل، وإنما يذكر فقط أن كتب الشيعة قد أخذت الحديث عن كتاب الخصيبي، ولم يخطر بذهن المجلسي أنه بهذا يثني على خبر ينسب إلى النصيرية وإلى النصيري، الذى تبرأت منه الطائفة الشيعية ولعنه السفراء بوصفه ملحدا.

يروى أن المفضل قد توجه إلى جعفر الصادق بسؤال عن يوم القيامة وعلاماتها. فذكر الإمام أن من علامات القيامة ظهور المهدي، وعقب ذلك سأل المفضل الإمام عن المهدي وما يروى عن حياته وظهوره وتأسيس دولته، فكان الجواب: ولد المهدي سنة ٢٥٧ هـ يوم الجمعة ٨ شعبان عندما لاحت تباشير الصبح. ومضى عليه إلى يوم موت أبيه في ٨ ربيع الأول من سنة ٢٦٠ هـ عامان وتسعة أشهر. لم يكن المهدي حتى موت أبيه يرى غير أصدقائه والمؤمنين الصادقين. ومن هذه السنة لم يبق المهدي بسامراء، وإنما انتقل إلى قصر صابر في المدينة. وبعد أن أقام هناك ست سنوات، اختفى عام ٢٦٦ هـ عن الأنظار كلها وأصبح يعيش بعدها في الخفاء[١٤٠].

---

(١٤٠) لا نقع على هذا التاريخ إلا في كتب النصيرية، أما كتب الشيعة الاثنى عشرية فتقدم التاريخ، الذى قدمناه في بداية أطروحتنا، على أن الكتب الشيعية الاثنى عشرية المتأخرة تأخذ التاريخ النصيري.

عندما كان المهدي يقيم في قصر صابر، كان المفضل بواب القصر.

عندما يذهب المهدي من قصر صابر إلى مكة، يلتقي هناك بالملكين جبرائيل وميكائيل، ويكون عندهما محل إجلال واحترام، وعندئذ يعلن المهدي أنه جاء ليحكم العالم؛ فيعلن حتى سكان الشمس ظهوره باللغة العربية. وبعدها يندفع إليه الصحابة ٣١٣ مثل العدد الذى وقف إلى جانب النبي في معركة بدر. ويظهر كذلك الحسين بن علي شهيد كربلاء في الميدان مع ١٢٠٠٠ من المؤمنين. ويتردد نداء المهدي في جميع أنحاء المعمورة ويجتمع الناس كلهم. فجأة يظهر رجل من بين الجماهير ويهتف: «أيها الناس، لقد ظهر إلهكم في الوادي اليابس بفلسطين ! إنه عثمان بن عنبسة الأموي من عقب يزيد بن معاوية» يسمع كل الناس نداءه، ولكنهم لن يتبعوه.

وبعد نداء هذا الرجل يبدأ المهدي، أي صاحب الزمان، خطابه على الجماهير: من أراد أن يرى إبراهيم وإسماعيل، فلينظر إليه، إي إلى المهدي؛ ومن أراد أن يرى موسى والمسيح فليتأمله إلى آخره إلى أن يأتي المهدي إلى ذكر النبي وأئمته. ثم يقرأ المهدي كل أقوال النبي ليظهر ما ألحقته بها أيدي البشر من تزييف. وبعدها يخبر رجلٌ جالس ورأسه إلى الخلف المهديَ أن جيوش السفياني قد أبيدت كلها.

ويأمر المهدي بهدم المسجد الحرام في مكة باستثناء أسسه، التي شيدها آدم وإبراهيم وإسماعيل، وبعدها يأمر ببناء المسجد حسب الخطة القديمة، التي أمر الله بها. ويلقى مسجد الكوفة المصير نفسه.

بعد أن يتولى المهدي الحكم في مكة، ينتقل إلى فتح العالم. ثم ينتقل من مكة إلى المدينة لزيارة قبر جده، النبي. وهناك يدله الناس على قبري الخليفتين الأولين إلى جانب قبر الرسول، فيأمر باستخراج الجثتين وتعليقهما في شجرة يابسة؛ ولكن الميتين سيكونان كما لو أنهما قد وُضعتا في القبر الآن. وتخضر وتزدهر الشجرة الميتة فجأة وتنمو بسرعة على نحو رائع. ويعتبر المشاهدون الحدث بمثابة معجزة كبرى، فتهتز

عقيدتهم وتتزعزع . لكن آخرين يتمسكون على العكس من ذلك بإيمانهم بعلي ويرفضون معرفة أي شيء عن الخليفتين. وفي تلك اللحظة يأمر المهدي عاصفة سوداء، تقتلع كل الذين آمنوا بمعجزتي أبي بكر وعمر كما تقتلع الأشجار فينقلبون ويموتون. وفي النهاية يؤخذ أبو بكر وعمر من الشجرة ويبعثان إلى الحياة بإذن الله. وعلى أبي بكر وعمر أن يتحملا مسؤولية ما فعلاه مع فاطمة وعلي، وفي تلك اللحظة تصعد النار من الأرض وتأكل الخليفتين. ولكن هذا ليس هو نهاية العقاب، وإنما سيأتي جميع الأئمة ويأخذون ثأرهم من أعدائهم: سيبعثان إلى الحياة ١٠٠٠ مرة كل ليلة ويعاقبان عقاب ميتة مريعة.

بعد هذه النقمة سيعود المهدي إلى الكوفة. وفي الوقت نفسه يظهر الحسني في منطقة الديلم، فيبايعه أناس الطالقان[١٤١] ويتبعونه في فرقة قوية مدرعة. ويتجه هو الآخر إلى الكوفة ويسمع من المهدي، ويطلب من المهدي علامات إرساله، وعندما يتسلمها منه، يبايعه. إلى أن ٤٠.٠٠٠ من أشياع الحسن، الذين يعرفون باسم الزيدية[١٤٢]، قد يعتبرون المهدي ساحرا ويمتنعون عن مبايعته. عندئذ يوجه إليهم الإمام إنذارا مدته ثلاثة أيام، وبعد ذلك يأمر بإعدام كل من ظلوا على ارتيابهم فيه. وعقب إعدام الـ ٤٠.٠٠٠ أمر المهدي من أتباعه ألا يأخذوا مصحف الزيدية، لأنه أصبح على مر الأيام مصحفا مزيفا[١٤٣].

---

(١٤١) هناك مدينتان بهذا الاسم، إحداهما الطالقان وتقع في خراسان والأخرى منطقة الديلم قرب مدينة قزوين. وكان سكان الطالقان في منطقة الديلم متهمين بأنهم من الإسماعيلية في الباطن (ينظر دائرة المعارف الإسلامية، مادة طالقان وكتاب نزهة القلوب لحمد الله مستوفي القزويني، ed. Le Strange, Gibb Memorial, S.65). ولهذا فقد يكون الحديث هنا عن الطالقان.

(١٤٢) يطلق على الزيدية في الرواية أصحاب المصاحف، لأنهم يحملون المصحف في حربهم ضد المهدي.

(١٤٣) تذكر الرواية أن الأمر في القرآن، الذى سيحمله الزيدية، لا يتعلق بالقرآن

لقد أصبح من المناسب الآن أن يحدث للسفياني ما حدث للآخرين. وهكذا يرسل المهدي عاصفة إلى دمشق، تكون سببا في ثورة الأتباع على السفياني واغتياله. وبعد تنحية الخصم الأخير يجتمع النبي وجميع الأئمة الإثني عشر في الأرض مع أعدائهم: النبي قاضيا، والأئمة من على ابن أبي طالب فصاعدا مدعين والخصوم الشخصيون للأئمة مدعى عليهم. ومن خلال مرافعة الاتهام سيكون الحديث عن تاريخ الخلافة كلها من بداية الإسلام إلى عهد المهدي ويتم الحكم على هذا التأريخ، وعودة النبي مع الأئمة إلى المحاكمة تدعى الرجعة.

يتولى المهدي بعدئذ السيادة على العالم ويختار الكوفة عاصمة له. وتختفي كل الديانات ما عدا الإسلام، أي أنه سيكون كل إنسان مسلما ولن تكون هناك في أي مكان عبادة للأوثان . وعندها تمطر السماء جرادا من الذهب الخالص وجميع كنوز الأرض توزع على البشر على السواء، بحيث لا يبقى فوقها غني ولا فقير. وصلنا هذا الحديث مع قليل من الاختلافات في كتاب منتخب البصائر(١٤٤).

هذه هي صورة السلام المأمول عند الشيعة ودولتهم في المستقبل، وهي دولة يعم فيها السلام بين الناس والحيوانات، ولا توجد فيها فروق اجتماعية ودينية، وسيقود المهدي من عاصمته الكوفة العالم كله ويحكمه(١٤٥).

ويبدو في هذا المقام أنه لا بد لي من عقد مقارنة بين مهدي الشيعة، الذى تحدثنا عنه آنفا وبين «مهدي» أهل السنة. فالمهدي الشيعي يقدم لنا بوصفه شخصية «تاريخية» بسنة ميلاد معينة وكذلك بسنة اختفاء تاريخية

الصحيح، إنما بمصحف مزيف. وهكذا يوصف الزيدية هنا بأنهم مزيفو القرآن. وينظر عن موضوع قوام القرآن الكافي ، ص ١١٠.

(١٤٤) بحار، ج١٣، ص ٢٠٩.

(١٤٥) نفسه، ١٩٨.

معينة. وهناك من يزعم عن هذا الإمام الثاني عشر الذى دخل تاريخ الأئمة أنه كان بعد اختفائه على صلة بطائفته خلال الغيبة الصغرى عن طريق سفرائه بوصفهم نوابه ولا يزال اليوم يعيش في الغيبة الكبرى. هذا المهدي إذن شخصية معينة، عاشت حياتها في الماضي خلال فترة زمنية محددة نوعا ما، فارتبطت عودته بالحركة الشيعية ارتباطا وثيقا، وانسحبت على حياتهم الظرفية، منها مثلا المطاردات، التي تعرض له الشيعة، وانسحبت كذلك على أفكارهم في العقاب وما أشبه ذلك(١٤٦).

أما «مهدي» أهل السنة، فإنه لم يوجد حتى اليوم مثل مسيح اليهود، فهو مجرد أمل، مجرد فكرة، تجسيدها غير مؤكد على الإطلاق. وظروف تجسيدها (مطابقة مع التصورات الشيعية) مرتبطة بتاريخ أهل السنة، مثلا باحتلال المسيحيين لفلسطين، وبالحرب بين الروم، اليونان، والمسلمين، كما كانت مرتبطة بكل الاضطرابات التي ستجتاح البلدان الإسلامية(١٤٧)

المهدي الشيعي بوصفه شخصا هو موضوع العقيدة. ولكن بعض علماء السنة هاجموا فكرة المهدي بحدة، ثم إنها ليست مما يدخل في مضمون عقيدتهم(١٤٨).

---

(١٤٦) ينظر مثلا بحار، ج١٣، ص ١٥١، عن النزاع بين الأخوين الأمين والمأمون عن الخلافة. فقد عين المأمون المنتصر علي بن موسى الرضا، الإمام الثامن، ليكون خلفه في الخلافة وعن سقوط الخلافة العباسية ينظر بحار، ج١٣، ص ١٦٢، وعن نشأة المملكة الصفوية في بلاد فارس ينظر ص ١٦٤ وأماكن مختلفة من كتب الغيبة.

(١٤٧) دائرة المعارف الإسلامية، مادة مهدي.

(١٤٨) ابن خلدون، ج١، ص ٢٦٠ (الطبعة المصرية) الألوسي، تفسير، ج٦، ص ٣١٥، تذكرة القرطبي، ص ١٥٢، أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج٣، ص ٢٣٥.

نتائج البحث

يمكن تلخيص نتائج بحثي (عن تاريخ الشيعة) في الجمل التالية:

١) لا يمكن عرض تاريخ الشيعة دون دراسة حياة العلماء والكتاب الشيعيين وكتبهم قبل ذلك؛

٢) كانت فكرة الإمامة في المذهب الشيعي القديم هي الحاسمة، بينما كان الشيعة أحرارا في البقية. وفيما بعد تطور المذهب الشيعي إلى عقيدة كلامية موحدة.

٣) هكذا ينتقل التأمل الكلامي عند المعتزلة إلى الشيعة. فكما انقسم غير الشيعة إلى معتزلة ومرجئة وأشعرية في ميدان علم الكلام، كذلك كانت هناك عدة اتجاهات في المذهب الشيعي من هذا الناحية.

٤) كما كان الصدام قويا بين المعتزلة والسنة بسبب الآراء الكلامية المختلفة، كانت هناك كذلك مناقشات شخصية حادة بين علماء الشيعة، جعلت من الصعب إلى حد كبير عرض التاريخ الشيعي

٥) هناك بعض الفرضيات حول أصل المذهب الشيعي، التي كانت في البحوث القديمة مقبولة بلا نزاع، تتحطم عندما تتم دراسة المصادر بدقة أكبر[١].

---

(١) الرأي السائد الدراسات الشرقية الأوربية عموما هو أن الإمامة تنظيم شيعي لا غير. ولكن هذا الرأي لا يطابق الحقيقة الواقعية. فقد كانت عند السنة ـ وإن لم

٦) لا يكفي كتابة تاريخ الشيعة بناء على تراجم وشروح مفردة، خصوصا في ميدان الحديث، وإنما يجب على المرء أن يستعمل كل ما يمكن الوصول إليه من أجل اختبار الدقة والأمانة، وقد قدمنا أمثلة عن ضرورة هذا الإجراء.

٧) يجب أن يأخذ المرء المصادر الشيعية من جميع العصور بعين الاعتبار، حتى يستطيع كتابة تاريخ الشيعة، فهناك أشياء كثيرة، ذكرت في المصادر المتأخرة لا توجد في القديمة، والعكس بالعكس. من خلال مقارنة المصادر القديمة والمتأخرة يتوصل الإنسان إلى نتائج عن التطور التاريخي لا غبار عليها.

٨) ولتجنب سوء الفهم نريد أن نؤكد مرة أخرى أننا لا نبحث أفكار الغيبة إلا بوصفها ظاهرة تاريخية ـ عقائدية، وليس عقيدة دينية: فلا ينتمي من الموضوع كله إلى ميدان العقيدة سوى وجود الإمام الثاني عشر، المهدي، ورجعته. وعلى العكس من ذلك فإن عمل السفراء والهدف من إقامة دولة شيعية، وكذلك انتظار المنقذ، كل ذلك هو الخطوة الحاسمة والباعث المحرك خلال التاريخ الأرضي لهذه الدائرة الشيعية الخاصة.

٩) لقد ادعى الشيعة في أزمنة مختلفة من المذهب الشيعي أن الاختلاف بين الشيعة والسنة ليس أكثر من اختلاف الآراء بين علماء السنة. وهكذا تصدى ابن بابويه (توفي سنة ٣٨١ هـ) في كتابه التوحيد على أولئك، الذين يتهمون الشيعة بالتشبيه والجبرية، لرفض دعوى وجهات النظر الخاصة والانحرافات في المذهب الشيعي[٢]. وكذلك أعرب عن رأيه الشريف المرتضى المتوفى سنة ٤٣٣ في كتابه

يعد لهذا الاتجاه اليوم وجود ـ في الزمن القديم فرضية أن الله نقل الإمامة إلى أبي بكر عن طريق النبي قبل موته. انظر عن ذلك، مقالات الأشعري، ج٢، ص ٤٥٥ وابن تيمية، منهاج السنة، ج١، ص ١٣٤، ٢٣٢؛ ثم ميزان الاعتدال، ج١، ص ١٠٧ و٢٣٣ وأماكن أخرى!

(٢) الكنتوري، ص ٤٣٠.

الانتصار[٣]. ففي القرن السادس للهجرة أنكر المرتضى بن الداعي الحسيني[٤] الاختلاف بين العقيدتين؛ ثم بهاء الدين (توفي سنة ١٠٣١هـ)[٥]. وفي زماننا العلامة محمد حسين كاشف الغطاء[٦] يعبرون عن المعنى نفسه.

يبدو أن هذه النقاط تستحق الاهتمام التام، إذا ما أراد المرء أن يصل عند عرض التاريخ الشيعي إلى نتائج مقنعة.

---

(٣) نفسه، ص ٦١.

(٤) ينظر كتابه تبصرة العوام في أماكن مختلفة ! عن المرتضى بن الداعي الحسيني ينظر الكنتوري، مادة تبصرة العوام.

(٥) ينظر الكنتوري، ص ٥٢.

(٦) ينظر كتابه أصل الشيعة !

المصادر والمراجع

أ. المصادر الشرقية

أبو الفرج الأصفهاني علي بن الحسين الأموي، كتاب الأغاني، القاهرة ١٩٠٥، ٢٠ مجلدا.

أحمد أمين، فجر الإسلام، القاهرة ١٩٢٨.

ـــــ، ضحى الإسلام، القاهرة ١٩٣٣، ج ٢. ١٩٣٦.

يعالج المؤلف العقيدة الإسلامية، ولم يخل من الأحكام المسبقة والأخطاء التاريخية والجغرافية. وقد حاولت تقديم تقويم نقدي للكتاب في: جريدة الطريق، ١٩٣٣، رقم ٩ وما بعده. عدم دقة المؤلف في تقديم طبعات الكتاب وغيرها تستوجب النقد الصارم.

أحمد بن يحيى المرتضى، المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل، حيدرآباد ١٣١٦ هـ.

أحمد تيمور، نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الأربعة، القاهرة ١٣٤٤هـ.

العلامة الحلي حسن بن مطهر، خلاصة المقال في علم الرجال، طهران ١٣١١هـ.

الأشعري أبو الحسن بن إسماعيل، مقالات الإسلاميين واختلاف المضلين، إستامبول ١٩٢٩، جزآن.

البغدادي أبو منصور عبد القاهر الأشعري، الفرق بين الفرق، القاهرة ١٣٢٨ هـ.

البيروني أبو ريحان أحمد بن محمد، الآثار الباقية، لايبتسغ ١٩٢٣.
دحلان أحمد بن زيني، في كيفية المناظرة مع الشيعة والرد عليهم، القاهرة، ١٣٢٣، ومعه كتاب السويدي في أسفله.
ابن الحر العاملي محمد بن الحسن، أمل الآمل على جبل عامل، طهران ١٣٠٢.
ــــ تذكرة المتبحرين، طهران ١٣٠٢، طبع الاثنان مع منهج المقال المذكور أسفله.
الذهبي شمس الدين، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، القاهرة ١٣٢٥ هـ، ٣ أجزاء.
الفخري محمد بن علي بن طباطبا، الآداب السلطانية، القاهرة ١٣١٧.
الجرجاني علي بن محمد السيد الشريف، شرح المواقف، استامبول ١٢٢٩ هـ، ٣ أجزاء.
جواهر الكلام عبد العزيز، آثار الشيعة الإمامية، طهران ١٣٤٨ (طبع ج٣ و٤ فقط).
ابن الأثير زين الدين، الكامل في التاريخ، القاهرة ١٢٩٠ هـ، ١٢ مجلدا.
ابن تيمية تقي الدين أحمد بن عبد الله، منهاج السنة النبوية في نقد كلام الشيعة القدرية، القاهرة ١٣٣١ هـ، ٤ أجزاء.
ابن أبي طاهر أحمد طيفور، كتاب بغداد، لايبتسيغ ١٩٠٨.
ابن جبير، رحلة بن جبير، Gibb Memorial Series vol.V, 1907
ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن، تلبيس إبليس، القاهرة ١٣٤٠ هـ.
ابن حزم الظاهري علي بن محمد، الفصَل في الملل والأهواء والنحل، القاهرة ١٣١٧ ـ٢١ هـ، ٥ أجزاء.
ابن خلدون، prolégomènes D'ebn Khaldun, par M/ Quatremère, Paris 1858
ابن خلكان شمس الدين أحمد البرمكي، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، القاهرة ؟، جزءان.
ابن العبري أبو الفرج الملطي، تاريخ مختصر الدول، بيروت ١٨٩٠.

ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم المصري، لسان العرب، القاهرة ١٣٠١هـ .

ابن النديم أبو الفرج محمد بن إسحاق، كتاب الفهرست، لايبتسغ ١٨٧١ .

ابن واضح أحمد اليعقوبي، كتاب البلدان، ليدن ١٨٦١ .

ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ليدن ١٩٠٩ ـ ١٦، ٧ مجلدات.

ـــــ، معجم البلدان، ليدن ١٨٦٦ ـ ٧٣، ٦ مجلدات.

الكنتوري أعجاز حسين، كشف الحجب والأستار في أسماء الكتب والأسفار، كالكوتا ١٣٣٠ هـ.

الكشي عمر بن عمر، معرفة أخبار الرجال، بومباي ١٣١٧ هـ .

كتب المؤلف كتبا (قاموسا) تحت العنوان المذكور أعلاه، ويذكر أسماء سنية وشيعية، فيه أخطاء كثيرة، ولذلك صلحه الطوسي، الذى اختار منه مختارات، اسماها اختيار رجال الكشي. والكتاب الذى لدينا اليوم ليس للكشي، وإنما الطوسي هو الذى نظمه. ينظر منتهى المقال، ص ٣٧٩، وقصص العلماء، ص ٣٣٣، وكذلك خاتمة الكتاب المذكور أعلاه. وعن الكتاب عموما ينظر شتروتمان، مصادر الشيعة، ص ١٠!

الكليني محمد بن يعقوب، (أصول) الكافي، طهران ١٢٨١ و١٣١٠ ـ ١٣١١ .

مجلسي محمد باقر الأصفهاني، بحار الأنوار، طهران ١٣٠١ هـ ٢٦ مجلدا.

محمد مهدي الأصفهاني، أحسن الوديعة في تراجم أشهر مشاهير مجتهدي الشيعة، بغداد ١٣٤٨، جزآن.

المرتضى بن الداعي الحسيني، تبصرة العوام في مقالات الأنام، طهران ١٣٢٧ هـ ذيلا لقصص العلماء.

يسمي د.م. دونالدسون المؤلف خطأ المرتضى «علم الهدى» ويضيف إلى ذلك ١٠٤٤ سنة الوفاة. وقد ذكر ناشر الكتاب الذى صدر في بلاد فارس تحت اسم المرتضى علم الهدى، أن هذا الكتاب ليس له وإنما هو لمرتضى آخر. في ص ٤١٧ يذكر المؤلف الشهرستاني وفي ص ٢٠٣ الغزالي، وهما مؤلفان عاشا بعد علم الهدى. عن المؤلــف والكتاب ينظر إضافة إلى ذلك

روضات الجنات، ج٣، ص ٥٦٥، الكنتوري، مادة تبصرة العوام وغيرها.
المرتضى الشريف علي بن الحين، كتاب الشافي، طهران ١٣٠١.
النجاشي أحمد بن علي، كتاب الرجال، بومباي ١٣١٧ هـ.
نور الله القاضي الششتري، مجالس المؤمنين، طهران ١٢٦٨ هـ.
السمعاني عبد الكريم بن محمد، كتاب الأنساب، ليدن ١٩١٢.
السويدي عبد الله أفندي بن حسين، الحجج القطعية، القاهرة ١٣٢٣ هـ.
الشهرستاني محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل، لايبتسغ ١٩٢٣، القاهرة ١٣١٧ هـ.
الصابي هلال بن محسن، تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، بيروت ١٩٠٤.
الصدوق محمد بن بابويه، كمال الدين وتمام النعمة، طهران ١٣١١.
الصولي أبو بكر محمد بن يحيى، كتاب الأوراق، القاهرة ١٩٣٦.
الطبرسي أبو منصور أحمد بن علي، كتاب الإحتجاج، طهران، ١٣٠٢ هـ.
الطبري أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، ليدن ١٨٧٦ـ ١٩٠١، ١٣ جزءا.
الطوسي أبو جعفر محمد بن الحسن، كتاب الغيبة تبريز ١٣٢٢.
ـــــ فهرست كتب الشيعة، كالكوتا ١٨٥٣.
طويل أمين غالب، تاريخ العلويين، اللاذقية (سورية) ١٩٢٤.
عريب بن سعيد القرطبي، صلة تاريخ الطبري، ليدن ١٨٩٧.
الواقدي محمد بن سعد الكاتب، كتاب الطرقات الكبرى، ليدن ١٣٢١ هـ.

المخطوطات

ابن بابويه، محمد بن علي بن الحسين بن موسى، تاريخ الغيبة، Berlin, Preuss-Staatsbibl. Petermann II 465
البحراني عبد الله بن صالح، الوسيلة إلى تحصيل الأماني في ضبط أيام التعازي والتهاني، Berlin, Pr. Staatsbibl.

ابن الجوزي، المنتظم، Berlin, Pr.Staatsbibl. Wetzstein I 8

ابن الصباغ نور الدين علي بن محمد بن أحمد المالكي، الأصول المهمة في معرفة الأئمة، Berlin, Pr. Staatsbibl. Petermann I 317 und Petermann II 345

ابن طاووس، كفاية الأثر، Berlin, Pr. Staatsbibl. Ptetermann II 330

ابن كثير إسماعيل، البداية والنهاية، .Berlin, Pr. Staatsbibl

الحلي الحسن بن يوسف بن علي بن مطهر، خلاصة الأقوال، Sprenger 307 (Pr.Staatsbibl.)

الخصيبي الحسين بن حمدان، قصيدة الحسين بن حمدان، Berlin, Pr. Staatsbibl. MQ 477

الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد، تاريخ الإسلام، Paris, Bibl. Nat. arabe 1581

النجاشي أحمد بن علي، كتاب الرجال، Berlin Pr.St. Sprenger 305

اليافعي عبد الله بن أسعد بن علي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، Berlin Pr.St. Petermann II 60

مراسلات ومجلات وسجلات

كاشف الغطاء محمد بن حسين، النجف (العراق) رسالتان بتاريخ ٢٢ رمضان ١٣٥٥ هـ و٢٨ محرم ١٣٥٥ هـ

هبة الدين الشهرستاني، بغداد، رئيس محكمة التمييز الجعفرية، رسالتان بتاريخ ١٥ أبريل ١٩٣٦ م،

وبتاريخ ٢ أبريل ١٩٣٧ م، وجواب عن سؤال بتاريخ ١٧ . ١٢ . ٣٧ ورسالة بدون تاريخ (اختصار هبة).

مجلة لغة العرب، بغداد، نشر الأب أنستاس الكرملي، السنة الثامنة، عدد ٧.

المرشد، بغداد، نشر السيد صالح الشهرستاني، السنة الأولى.

فهرست كتاب خانئِه رضوي، طبع في طهران ١٣٤٥ هـ.

ب. المصادر الغربية

Ameer Ali, The Spirit of Islam, London 1935.

Brockelmann, Karl, Geschichte der arabischen Literatur, Weimar 1898-1902, 2 Bdd., Suppl. 193.

Browne E. G., A Literatory of Persia, London 1908-24, 4 Bdd.

Donaldson, Dwight, The Shi'ite Relegion, London 1933, vorword.

Friedländer, Israil, vgl. Zeitschrift f. Assyrologie, Jg. XXIII-XXIV, Abdallah b. Saba, der Begründer der ši'a und sein jüdischer Ursprung.

———, vgl. Journal of the American Oriental Society, Bd. XXVIII, 1 Häfte 1907: The Heterodoxies of the Shi'a in the Pressentation of Ibn Hazm.

Goldziher, Ignaz, Vorlesungen über den Islam, Heidelberg 1925.

Horten, Max, Die Philosophie des Islam, München 1924.

Le Strange, G. Bagdad during the Abbasid Caliphate, Cambridge 1905.

Massignon, Louis, Passion d'Hallag, Paris ...

Sirdar Iqbal Ali Schah, Eastward to Persia, London, ohne Jahreszahl.

Strothmann, Rudolf, Die Zwölfer-Schi'a, Leipzig 1926.

———, Schi'a Literatur, Leipzig 1926.

Wellhausen, Julius, Die religiös-politischen Oppositionsparteien im alten Islam, Berlin 1901.

